مستعمرة العظاءات

محمود سعيد

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٩

الكتاب : مستعمرة العظاءات

الكاتب : محمود سعيد

تدقيق لغوي : مكتب سكون لخدمات الكتب

تصميم الغلاف : عماد رشدي

رقم ايداع: 23996

ترقيم دولي: 978-977-6688-05-6

دار سنون للنشر والتوزيع

الزقازيق - الشرقية - مصر

٠١٠١١٤٦٤٠٣٧

sonon.pub@gmail.com

مستعمرة العظاءات

سنون للنشر و التوزيع

محمود سعيد

مستعمرة العظاءات

فتحتْ باب المقطورة، غمرها ضوء الشمس المشرقة. هواء ساكن مشبّع برطوبة شديدة أشبه برطوبة البصرة، درجة حرارة في حدود الخامسة والثلاثين مئويّة. يُمكن تحمّل الحرارة، أما الرطوبة فمن الصعب. تصيب النفس، القلب، الروح بالتقزّز. ثمة شيء ما ذو رائحة كريهة ينبعث من مكان ما؟ أشبه برائحة بيض فاسد، لا بل سمك نتن. أهي المجاري أم زنخة البحر؟ أم يخيّل لها! أذلك من تأثير صدمة الاغتصاب التي جعلتها تمكث عشرة أيام في المستشفى؟ من يدري! عشرة أيام. لا تتناول سوى السوائل، كيف يمكن للإنسان أن يعمل في وسط عدائي يتربّص به الجميع؟ تُغتصب، تتمزّق، تدخل مستشفى في اليوم الأول لتسلّم عملها ولا يهتَّم أحدٌ لما جرى لها، وقبل أن تشفى ينسكب على رأسها حمل من الوثائق عليها أن تطّلع عليها: عشرات أشرطة تسجيل عليها أن تسمعها، تقارنها مع الملف الضخم المرافق. بدأتْ بها في المستشفى، ثم أنهتْها في المقطورة الصغيرة الضيّقة، وأنفاسها تختنق، تقرأ وآلام وسطها تشتد حتى لتدمع عيناها رغمًا عنها. ترى كيف يبدو أحمد؟ كيف يبدو ذلك الإرهابي العتيد الذي كُتب عنه هذا الملف الضخم كله، وتلك الأشرطة المتعددة؟ لا شك أنه عملاق هائل، قوي، جبار، ذو جسد مليء بالعضلات. حدّقتْ بالسماء. لماذا تبدو في الضحى باهتة الزرقة؟ ثمة غيوم بيض بعيدة في طريقها للذوبان، تمنّتْ لو لم ترتكب تلك الحماقة الكبرى، فتطلب العمل معهم! أكانتْ تدّري أنها ستعمل في

هذا السجن الكبير المنفى، ومع تلك الإهانة الكبرى؟ كل ما فكّرتْ فيه ابنتها البريئة. أينفع الندم! إن بقيتْ في بيتها، فستنمو الطفلة مشوهة أمام عينيها، وتلك الكرة السرطانية في عظام جمجمتها تتضخم بنموها، ستغدو أشبه بمسخ يثير الخوف والسخرية! ستعاني مدى الحياة هي وباقي العائلة. لا شيء من دون ثمن كما قال الجنرال ديفيد. هكذا الحياة. دفعتْ الثمن مقدمًا.

هبّتْ موجة هواء ساخنة مشبعة بالرطوبة والعفن، نعم إنها زنخة البحر لكن أين البحر؟ كم هي مشتاقة لرؤيته! حدّقتْ باتجاه الشمال، الجنوب، الشرق. لم تره. لم ترَ سوى أبراج المراقبة المتعددة، قريبة هائلة واضحة، وبعيدة تمتد إلى أقصى الأفق على بعد لا تستطيع تقديره، تبدو كأعواد الكبريت دقيقة رقيقة. ابتسمتْ، لاحتْ من بعيد النوارس، في جهة الشرق، تحتل السماء بعبث. لا بد أن يكون هناك بحر. لا نوارس من دون بحر، أو نهر! ما هذا؟ يا لها من نوارس! إنها دكناء تميل إلى السواد. أكل شيء يختلف في هذا المنفى عن العالم؟ حتى النوارس! لكن أهي دكناء أم يخيل إليها لمصيبتها؟ رفعتْ نفسها إلى الأعلى، وقفتْ على رؤوس أصابعها، حدّقتْ بتركيز. لاح البحر قصيًا خطًا أبيضًا رقيقًا، بعيدًا في نهاية الأفق. قدّرتْ أنها لو صعدتْ على سطح المقصورة لرأته، لكن لا سبيل لذلك، لا يوجد درج يصل إلى سطحها، لا من داخلها ولا من خارجها، قدّرتْ أيضًا أنها إن نزلتْ درجات المقطورة الثلاث، فلن تراه، ولن ترى حتى الأفق. الجدار العالي ذو الأبراج العسكرية المرتفعة يحجب المعسكر عن كل شيء جميل، البحر، الأمواج، السفن، غابات جوز الهند، مزارع السكر التي لا تحدّ. عليها أن تسأل إن كانوا يسمحون لها برؤية البحر فقط، يا لها من رغبة سخيفة!

كانتْ تعلم أن التجول خارج السجن ممنوع، لا بل جريمة يعاقب عليها القانون، علمتْ من الأوراق التي وقعتها أن الطريق الذي يربط السجن بما حوله لا يمكن أن يفتح إلا بإذن خاص من القائد الأعلى. لا طريق سوى الطريق الجوي بوساطة السمتيّات، من يحاول أن يخرج من دون استقلال سمتيّة يُرمى، من يدخله من دون طريق الجو يّرمى، من يقترب من السياج من داخل المعسكر أو خارجه يرمى أيضًا، لكنها لم تقرأ أن من يغتصب مترجمة وفق عقد شرعي يقتل أو حتى يحاكم، يا له من عالم قاسٍ، عالم مليء بالظلم، يسحق ضحاياه.

حدّقتْ بالأرض لأول مرة. ما هذا؟ ارتعبت، أمامها أرض مليئة بعظّايات خضر، تلمع نقطا فسفورية خضراء على ظهرها، جاءتْ ليلًا، واغتُصبتْ ليلًا، لم ترَها من قبل. أعينها السود ساكنة جاحظة، لكنها تلمع، أهي ميتّة أم نائمة! أتنام وهي مفتوحة العينين؟ أم تراها مستيقظة! ارتعبت. لا، لن تنزل إلى الأرض قط. ظلّتْ واقفة في باب المقطورة، وملّف أحمد في يد، وفي يد أخرى الأشرطة وكتيب صغير فيه مئات الكلمات من الدارجة المغربية. مبوبة معجميًا، وفق الأحرف الهجائية، أيقظها تلفون الجنرال ديفيد موللر قبل ساعة. أمرها أن تنتظره. لن تنزل قبل أن يأتي. من مكانها أمام مقطورتها أخذتْ تخمّن عدد العظّايات التي غيّرتْ لون الأرض المحروقة بالشمس إلى لون أخضر، لو كان في كل متر مربع ثلاث عظّايات، فكم يكون عددها في عشرة آلاف متر مربع؟ ثلاثون ألفًا. أليس كذلك؟ لكن كم مساحة السجن؟ عشرون ألف متر مربع، ثلاثون، أربعون! من يدرّي؟ ترى هل يتجاوز عدد العظّايات المليون؟

أغمضتْ عينيها، لن تنظر إلى هذه العظّايات قط. ستنظر إلى السماء.

لم يذكروا لها في العقد أن عليها أن تسير وسط وحوش لم ترها من قبل. وحوش مقززة كهذه العظّايات.

-هيّا.

سمعتْ صوتًا من ناحية اليسار، التفتت، رأتْ الجنرال، هتف: تعالي.

حدقتْ به وبالعظّايات، والرعب يلتهم قسمات وجهها. ابتسم، هتف: تعالي، لا تخافي.

لكنها ظلّتْ في مكانها، اقترب منها، حتى إذ أصبح على بعد متر منها قال مطمئنًا: لا تخافي. لا تؤذِي إلا إن وطأتْ عليها، وتركتِ لها الفرصة كي تعضّك، آنذاك تترك أثرًا كالوشم في جلدك لا يزول حتى الموت، لهذا زودناكم بجزم عالية حتى الركبة.

كرر: انزلي.

نزلتْ الدرجات الثلاث. وقفتْ على الأرض. حدّقتْ بموطئ قدميها، كان هناك ممر إسمنتي بعرض متر، يشقّ الأرض اليباب أمامها، يمتد من مجمع المقطورات الملتمة وراءها وحتى زنزانات السجناء البعيدة، المنتشرة في فضاء المعسكر، لينكسر موازيًا الجداران العالية التي تحول دون رؤية البحر العريض، وقبل ذلك يتفرع إلى ممر إسمنتي آخر يؤدي إلى مجمع مقطورات أخرى إلى اليسار. إن كانتْ هي والجنود والضباط في هذه المقطورات، فمن يقطن في المقطورات الأخرى؟

مرة أخرى حدّقتْ بالأرض، العظّايات تملأ الممرات الإسمنتية والساحة التي أحرقتْ الشمس عشبها، فباتتْ أشواكًا وجذمًا صفر، ترى كيف تمشي بينها؟ نقلتْ عينيها بشك من الأرض إلى عيني الجنرال الزرقاوين، وفترتْ شفتاها عن ابتسامة مجهضة انتهتْ لترسم ملامح وجلة مصحوبة بآهة ضياع. كرّر

الجنرال ديفيد حاثًا إياها على السير: استمري، تعالي.
- قلتَ أنها تعضّ.
-في حالة وطئها فقط.
لم تتحرك، هتف يستعجلها: لا تخافي. إنها تسمع جيدًا فتهرب، انظري.
خطا بخفة أشبه بالهرولة أمامها فأخذتْ العظّايات تهرب من وقع قدميه في شتى الاتجاهات، ذكرتها بأسماك شط العرب الصغيرة، التي تهرب بمثل لمح البصر مع أي حركة في الماء، من رمي حجر، من سقوط تمرة. التفتَ إليها الجنرال حاثًا إياها: هيّا. أنت وحدك بقيت، حينما دخلتِ المستشفى ليلة وصولك كان عندنا أربع مترجمين ومترجمات، سُفِّروا جميعًا، هناك أكثر من منطقة ساخنة أخرى في العالم، احتاجوهم بعد الاجتياح. ستأتي دفعة أخرى من المترجمين والمترجمات اليوم أو غدا.
بدأ يسير بخفة، وهي تحاول اللحاق به.
سأل، وهو يلتفتُ إليها ويحثّ السير: هل قرأت الملَف؟
-نعم.
-والأشرطة؟
-كلّها؟
-كيف ستقابلين -مهاماد- المراكشي؟
أدركتْ أنه يمتحنها، قالت: أحمد المغربي وليس محمدًا.
ابتسم، ولم يقل شيئًا. بعد برهة التفتَ مرة أخرى: هل حضَّرت أسئلة؟
-لا، ليس هناك أسئلة.
-لكني قلت لك.
-قلت لي ادرسي الملَف.

-درستِه؟

-نعم.

-ولا أسئلة؟

-نعم.

-أأنت متأكدة أنه لم يثر أسئلة؟

-هناك أمور غامضة.

-الغموض يثير أسئلة.

-لا.

توقف، توقفتْ، نظر إليها مستغربًا، سأل محتدًا: ما هذا التناقض؟

-ليس بتناقض مطلقًا.

-ماذا تسمينه؟

-اضطراب.

مشى، مشت خلفه، التفت إليها: لم أفهم.

-أتريد رأيي؟

-نعم.

-التقارير تختلف اختلافًا كليًا عن الأشرطة.

-كيف؟

-في التقارير المكتوبة أنه اعترف لكنه لم يكشف عن أعوانه.

-صحيح، لذا يجب أن يكون لديك أسئلة.

-لا.

توقفت، التفتَ إليها: لا تقفي. وقتنا ثمين، تكلمي وأنت تسيرين. دعيني أفهم ما تعنين.

-من يسمع أقواله في الأشرطة يدرك أنه كشف كل شيء، لم يعد الموضوع بحاجة إلى استجواب جديد.

وحينما أدركتْ أنه لم يردّ عليها، خمّنتْ أنه يفكر في كلامها، استمر يسير، وهي تتبعه وكلاهما صامتان، ثم قال وكأنه يحدِّث نفسه: لا، لم يكشف.

-الملَف يقول ذلك. الأشرطة تقول شيئًا آخر

-إنه يكذب، عليه أن يقول الصدق.

يسير الجنرال أمامها بخفة تخدع من يراه من بعد فيظنه في ثلاثيناته أو أربعيناته بينما هو في الخامسة والستين تقريبًا، فجأة التفتتْ إلى اليسار، رأتْ جنديًا أشقر، لوحته الشمس فبات برنزي البشرة، في العشرينات بملابس عسكرية نظيفة، يسير خلفها من بعد، وإذ رآها تنظر نحوه، أسرع ليكون محاذيًا لها. ابتسم الجندي لها حينما اقترب، التقتْ عيناهما برهة، انقبض قلبها، لاح لها شبح الاغتصاب الذي مزّق أعضاءها، جعلها تفقد في المستشفى أكثر من اثني عشر باونًا. لم تدرّي لماذا نظرتْ إليه ثانية! يبتسم الجندي ابتسامة واسعة. ما معنى ذلك؟ أساهم بالجريمة! لم تستطع أن تستشف شيئًا من ابتسامته. أهو بريء أم بارع إلى درجة أنه جعل الابتسامة تبدو محايدة. ركّزتْ نظراتها على ظهر الجنرال مرة أخرى، غذّتْ السير لتوازيه. كان نحيفًا متوسط القامة، غيرت شمس المنطقة إهابه، فبات أسمر كأي مواطن في المنطقة، وإذا وصل إلى حيث يتفرع الممر الإسمنتي إلى فرعين، تنتشر إلى اليمين منه زنزانات السجناء متراصة تملأ الأفق، مكشوفة للهواء والشمس والرياح، ظنته سيتجه إليها، لكنه تركها. اتجه نحو عشرات المقطورات المتجمعة كقرية صغيرة تبعد نحو مائتي إلى اليسار.

صعد بالخفة نفسها الدرجات الثلاث للمقطورة رقم ١٠، ثم فتح الباب بقوة، جعلتْ الباب يئن تحت وطأة عنف فتحه المفاجئ القوي. كان الجو في داخل المقطورة ساخنًا رطبًا منفرًا، شبه مظلم، بينما بدا جندي آخر متين الجثة شبه أصلع، ينظر من شباك المقطورة الشمالي نحو الأفق، فوجئ بفتحة الباب المباغتة، استعد، نصب جسده، تعلّق بصره بالجنرال.

دخلتْ خلف الجنرال، وإذ أصبح الجندي الأشقر الأنيق داخل المقطورة، أغلق الباب وراءهم بالقوة والضجيج نفسيهما.

وجدتْ بعد ثوانٍ أمامها على الأرض العارية السجين، توقعتْ أنه هو أحمد المغربي الذي توجّب عليها ترجمة أقواله. بذلة السجناء الحمراء، المتكونة من قطعتين. ساعدا السجين مشرعتان كالمسيح مصلوبًا، ساقه الأولى مربوطة من رسغ القدم الأسمر العاري بزنجير من حلقات لامعة مثبتة إلى مسمار كبير في أرضية المقطورة، أما الأخرى، فكانتْ مجذومة القدم، يغطي جورب أبيض ما تبقى من الساق، مثبتة من البطة ومن فوق الركبة بزنجير آخر إلى مسمار مماثل في الأرضية، حدقتْ بالكرة التي يفترض أنها تكوّن الرأس، لم تجد فيها أي ملامح بشرية، هناك لفافة كبيرة حمراء تمتد من الجبهة حتى المنخرين، وكِمامَة أخرى تكمّم الفم، وثالثة تغطي الأذنين، لم يكن في الجثة التي أمامها ما يمكن أن يدل على أن هناك كائن بشري سوى منخرين، لا يبدوان إلا إن وقف المتطلع إليهما من الأمام. أهو إنسان؟ ربما تمثال أدخل في ملابس سجين. أو تجويف من النايلون منفوخ. إن كان بشرًا فهو ليس بعملاق، لا يبدو قويًا جبارًا كما تصوره التقارير. من يدرّي؟

-زينب.

فوجئت، نطق الجنرال اسمها بطريقة صحيحة، كأنه عربي، أو كأنه يُتقن

العربية. عملتْ منذ أن هاجرتْ في تدرّيس اللغة الإنكليزية، لكنها لم تسمع من ينطق اسمها بشكل صحيح كالجنرال موللر. خففتْ تلك النقطة التافهة من سخطها، وألمها، التفتتْ إليه. تذكرتْ المِلَف، والأشرطة. لابد أنه يريد الاستفسار عن نقاط معينة. لفتها الحيرة. قضتْ آخر يومين لها في المستشفى، ومعظم يوم آخر بعد خروجها تدرس المِلَف، دوّخ رأسها، دوخها، أفقدها صفاء تفكيرها، قرأتْ كل شيء في صفحاته التي تتجاوز المئة، معلومات كاملة، تفصيلات وافية، اعترافات شاملة، كما يقول المصريون من طق طق حتى السلام عليكم. بينما كان داخلها منفصمًا تمام الانفصام من آلام الاغتصاب. وضعتْ أوراقًا بيضًا في ثنايا المِلَف، أين النقص إذن؟ ولماذا التحقيق؟ لا تدري. ماذا يجب عليها أن تفعل؟ لا تدرّي!.

لم يتكلم الجنرال معها، حدّق بالجندي المتين، أسرع هذا فتح بابًا إلى اليمين، ثم جاء بكرسي من الخيرزان، جلس عليه الجنرال، قرب يافوخ السجين من الخلف، ثم نظر مرة أخرى إلى زينب باهتمام. في زرقة عينيه شفافية غريبة، كما لو أنهما من زجاج أزرق باهت، زرعتا في عينيه في عملية جراحية، زجاجتان تنفذان إلى أعماقه. لمحتْ لأول مرة تجعدات وانتفاخات خفيفة تحت العينين، تبدو وكأنها من فعل وإصرار الزمن. وإذ رآها تحدق بعينيه، سألها: وهو يشير إلى السجين: هيا استجوبيه. سنتفعن هنا عشر سنوات أخرى ونحن لم ننجز أي مهمة.

لم تفهم قصده، اضطربتْ بشيء من الخوف، وهو يحدّق بها نافد الصبر، بينما لاحتْ ابتسامة ظفر في عينيّ الجندي المرافق، قال الجنرال يستحثها: تأكدي. من معلومات المِلَف، والأشرطة.

ارتجفتْ يداها فجأة، لم يكن هناك أي لبس في الموضوع، لكنها توقّعتْ أنها

ستسأل عن بعض نقاط. أغمضتْ عينيها لتجمع أفكارها، فتحتْ المِلَف. أين تبدأ؟ احتارت. أي امتحان أمام جنرال يعتبر الاغتصاب أمرًا لا بد منه في هذا المنفى! سجّلتْ ملاحظات كثيرة حول تناقضات المحققين، اتجاهات مختلفة، تقاطعات لا حد لها. كادتْ تبكي: غير واحد اشترك في التحقيق، سألوا، استجوبوا، راوغوا، تركوا كتاباتهم، آراءهم، بصماتهم، الكابتن جون كيللر، الملازم ويلبي، النقيب جيم سيفرد، خطوط بالألوان: الأحمر، الأخضر، الأزرق، الأسود في كل صفحة، كلمات وجمل معلّمة بألوان فسفوريّة مختلفة، اختلافات في الخط والتعبير هنا، وهناك. كل بضع صفحات بخط معين، وقلم جديد، وتعليقات مختلفة، لكنها جميعًا تلتقي بنقطة واحدة: أحمد الطويل خطر، عقل منظم عميق التفكير، واضع خطط إرهابيّة من الدرجة الأولى، خبيث إلى أقصى حد. مع تقرير وافٍ من حسين جلالي المساعد الأشد قربًا للمغدور الزعيم شاه ممدي. وإذ ظل الجنرال يحدّق بها قررتْ أن تقوم بعمل ما. قرفصتْ قرب رأس السجين من الجهة اليسرى كي تتمكن من النظر إلى الجنرال من جهة، وإلى السجين من جهة أخرى، فجأة شبت نار محرقة في جروح وسطها، خشيت أن تنزف، عضّتْ على شفتها، أرادتْ أن تطلب من الجندي أن يقرب الكرسيّ لكنها استبعدتْ الفكرة خوف إثارة أعصاب الجنرال.

مدتْ أصبعها نحو كمّادات السجين حول العينين والأذنين والفم، تساءلتْ وألمها يكاد يقتلها وبصوت تعمّدتْ أن يكون ساخرًا بشكل واضح: أيسمعني إن تكلمتْ معه؟

رفع الجنرال رأسه إلى الجندي المتين. فحدّق هذا بهم، يداه مشغولتان بسحب سماعات صغيرة تمتد من جهاز تسجيل كبير أسود لم ترَ مثله، أخذ

يثبّت السماعات على صدر السجين، في قميصي الجنرال وزينب، من دون أن يتكلم، ثم قرفص أمامهما في الطرف الثاني من جسد السجين، وأخذ يفكّ الكِمامَات بسرعة. بدأ بمانعات الصوت حول الأذنين، ثم أزال كِمامَة الفم، فندتْ عن السجين آهة ارتياح طويلة. ملامح سمراء وسيمة تميل إلى البياض، فتح فمه كأنه يحاول أن يختبر شفتيه، ثم انفرجتْ أسارير ما حول فم محروس بشارب خفيف ولحية فحمية بطول سنتيمترين، لم تكن متأكدة أهو يبتسم أم يتألم، لأن عصابة العينين كانتْ واسعة تبدأ بالجبهة وتنتهي بنهاية المنخرين. طاف فوق التقاطيع شبح العشرينات المشاغب، ربما لو رأتْ العينين وبقية الملامح لساعدتها في تخمين عمره، لكنها توقعتْ أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين بأي حال. خفق قلبها، ثلاثة أشياء إضافة إلى الاسم مألوفة لديها: بشرته، فمه ذي الحدود الواضحة، ذقنه وعقصته الطويلة، كل ذلك يشبه ما عند أخيها أحمد، عندما كانتْ تتصفح المِلَف ظنتْ أن الاسم وحده يجمعهما، ترى ماذا بعد؟ هل ستكون عيناه سوداوان مكحلتان مثل أحمد؟ ودّتْ لو ترى ملامحه، لو تعانقه.

ترى كم ساعة قضى وحواسه معزولة عن الكون، الوجود، الناس، العالم؟ ترددتْ قبل أن تخاطبه. هل سيسمعها؟ وإن سمعها هل تستيقظ حواسه ليجيبها بصفاء؟ كانتْ عينا الجنرال حربتين ناريتين تنغرسان في عينيها، تستحثها، قرّبتْ فمها من أذن السجين اليسرى، قالت: أحمد.

أدار رأسه نحوها، لم يقل شيئًا، أضافت: اسمعني رجاءً، وجدوك ذاهبًا نحو الحدود، ممن تسلمتَ المتفجرات؟ ولمن تريد أن تسلّمها؟ لماذا لا تعترف فترتاح؟

نبر الجنرال: ماذا سألته؟

ترجمتْ له قولها، ابتسم، هزّ رأسه موافقا: استمري.
لم يجب السجين، أعادتْ السؤال.
فتح السجين فمه فابتسمت، قال: آللّا. اشحال من درّي معاك؟
سألها الجنرال: ماذا قال؟
رفعتْ رأسها نحوه: قال كلماتْ مغربية، لا أعرف معناها سأفتش عن معناها في الكتيب.
بحثتْ عن الكتيب بين الأشرطة، فسقط من يدها، انحنت لتتناوله فانغرزت سكين حادة في جروحها، تأوهت بالرغم منها.
-أهي عربية؟
تهدّج صوتها من الألم: لا أدري.
-إذن فرنسية.
-لا.
-ربما بربرية.
لم تعرف كيف تسيطر على آلام جروحها، أو على إلحاح الجنرال، كادتْ تهتف متضايقة، لكنها ضبطتْ نفسها: أعطني لحظة، دعني أنظر.
صمتَ الجنرال مرغمًا، ضحك السجين، أحس الجنرال أنه يستهين به، قال بصوت أشبه بالصراخ: أرأيت كم هو خبيث!
ضحك السجين مرة أخرى بصوت أعلى. استنتجتْ زينب أنه لا بد أن يعرف الإنكليزية. وأنه يلّذ له أن يتلاعب بأعصاب الجنرال. هتفتْ فرحة والابتسامة تملأ وجهها، نظرتْ نحو الجنرال: وجدْتُها، وجدتُ معنى الكلمات، للّا: تعني سيدة، درّي. تعني طفلًا، سألني: يا سيدة كم طفلًا عندك؟
صرخ الجنرال وهو ما يزال تحت تأثير الغضب: قولي لـ هذا الـ mother fucker

----

إننا نحن من يستجوبه، لا هو.
غيّرت اتجاه الأسئلة، سألت الجنرال بدورها: في المِلَف شيء عن المحفّزات، إن اعترف ماذا ستكون المكافأة؟
-نطلق سراحه.
ضحك السجين بقوة، وبنبرة من يسخر بعمق!
-أرأيتِ؟ أعصابه من حديد.
- أصمت .mother faker
صرخ الجنرال بصوت عالٍ. لكن أحمد أخذ يردد بصوت خافت لكنه مسموع، ومع لحن موسيقي جميل: آللّا. اشحال من درّي معاك؟
قالت: دعك منه. ليقل ما يشاء.
خفض الجنرال من صوته، لكنّه ما زال منفعلا: أضرب السجناء عن الطعام، فيهم من أفطر بعد أسبوع، أسبوعين، ثلاثة، أربعة لكنه وحده لم يفطر إلا بعد ثمانية أسابيع، ضرب الرقم القياسي، أيوجد أقوى منه!
انحنت مرة أخرى نحو السجين، قالت بصوت هادئ حرصت أن يكون ودودًا: أحمد، هل تخسر شيئًا إن اعترفت؟ ستكسب كل شيء، الحرية، الراحة، السعادة؟
لم يطلب منها الجنرال هذه المرة أن تترجم له سؤالها، أشار إليها أن تكتبه، كتبته في ورقة سلمتها للجنرال، هزّ رأسه موافقًا، كررّ السجين سؤاله باللهجة الباردة نفسها: آ للّا اشحال من درّي معاك؟
فتحت المِلَف، أخذتْ تفتش عن الوريقات التي زرعتها فيه في الليلة الماضية، لتذكرها بحقيقة النقاط المتناقضة في التقارير والأشرطة، عبر حياته القصيرة الواضحة التي سطرتها أقلام متعددة في المِلَف: أبوه تاجر سجاد مشهور في

الدار البيضاء، اعتاد أن يرسله إلى تركيا، إيران، أفغانستان، الصين، الهند، باكستان. في آخر رحلة له علق بحب شابة حسناء كانتْ تدرُس في إسلام آباد، لم يرجع، تزوّجها، بقي في الباكستان حسب شرط أهلها، استقلّ عن أبيه، ثم انتقل إلى بشاور القريبة من أفغانستان، حيث يستطيع أن يحصل على سجاد راقٍ رخيص من القرى الباكستانية والأفغانية. ثم أخذ يزوّد غير مصدر في المغرب، إسبانيا، فرنسا بطلباتهم من السجاد.

في الخامس عشر من أيلول سنة ٢٠٠١ ذهب ليسلّم (بيك أب) ضخم مليء بسجاد تبرّع به أثرياء بشاور لتجهيز بضعة مساجد في قرى فقيرة تابعة لمدينة جردي الأفغانية، أعيد بناؤها إثر غارة جوية أمريكية دمرتها كليّة.

طلبَ منه المتبرعون أن يسلّمها إلى رجل الدين حميد الله كبيري، في منطقة على الحدود بين البلدين. كان من المفروض أن يرسل مظفرًا أخا زوجته، وصديقه الذي يعمل معه راوي. أقنعه مظفر: لم ترَ في حياتك ندف الثلج تداعب وجهك، كيف يغطي الثلج الطبيعة كلها، سهولًا وصخورًا وأودية وتلالًا وجبالًا، أجمل منظر تراه في حياتك، ستتذكره ما حييت، لن يأخذ الطريق منا سوى يوم واحد، لتكن زيارة وتجارة.

استقلوا سيارته النيسان الصغيرة البيضاء الجديدة، وصلوا إلى نحو مئة متر فقط من الـ-تنكنا- (المضيق) المتعرج الملتوي الذي يلتف حول بداية جبال هندوكوش الشاهقة المؤدية إلى الحدود الأفغانية، لا يسمح المضيق إلا بمرور سيارة واحدة، يتوجب عليها أن تتوقّف ملاصقة للجبل إن رأتْ أخرى قادمة، وإلا سقطتْ إحداهما في هاوية سحيقة، لا نجاة منها. عندئذ سمعوا أصواتًا منبهة صاخبة لشاحنة كبيرة مسرعة تريد سلوك الـ- تنكنا- قبلهم. الغلطة الكبرى وقعتْ هنا، أعطوها المجال لتمرّ، كانتْ قمرة

الشاحنة زرقاء، أما باقي هيكلها فبلون الصدأ الغامق، لكن الفرصة فاتتها، دخل (بيك أب) السجاد الـ- تنكنا- قبلها، فاضطرتْ الشاحنة لتسير وراءه، فتفصل سيارتهم عن البيك آب، لم يكن الأمر بأيديهم. ثم ماذا؟ ينتهي الـ-تنكنا- بعد نصف كيلومتر فقط، عندئذ تلتحق سيارة النيسان بسيارة السجاد لتسيرا معًا. وإذ أصبحتْ شاحنة الصدأ على بعد عشرة أمتار فقط من المضيق هاجمتهم طائرات الهيلوكبتر بقنابل كالمطر. انفجرتْ الشاحنة التي أمامهم، وكأنها كرة نار جبارة تريد أن تحرق الكون كله. كأنها مليئة بالمتفجرات، تمزّق حديدها أشلاءً في شتى الاتجاهات، زرعت النيران والموت في الوجود أمامهم، ارتفعتْ ألسنة النار والدخان حتى النجوم، إلتهب الفضاء كله، لم يجد أحمد نفسه إلا وهو وحده بالمستشفى، أين مظفر؟ أين رواي؟ أين (بيك أب) السجاد؟ أين سيارة النيسان؟ لا يدرّي أي شيء، لم يكن أحد يتكلم معه، حرس مدجج بالأسلحة على الباب، لا أحد يجيب على أسئلته، لا أحد ينقل أخباره إلى زوجته، والد زوجته، أخوتها، أخواتها، إلى أهله، انقطع عن العالم كلية. جاءتْ قوة عسكرية اعتقلته قبل أن يشفى، تسلمته فئة ثم سلّمته لأخرى، ثم ثالثة، ثم رابعة، ثم، ثم، ثم لينتهي هنا مع آلاف السجناء والتحقيق الذي بدأ ولم ينتهِ.

يتذكر كل ما حدث له قبل هجوم الهيلوكبترات وبعد خروجه من المستشفى.

يتذكر كل شيء، يصفه بدقة آلة تصوير جيدة، حتى ألوان بذلة السجن التي كانتْ زرقاء، ثم رمادية، ثم بلون الخاكي، وأخيرًا حمراء، ثم مبقعة، ثم عادت زرقاء، ثم، ثم، ثم، الخ. يتذكر الطعام، الجوع، التعذيب، الضرب، السّب. يتذكر رفاقه في الزنازين كلهم، لم ينس أي واحد منهم، سجّلهم جيمعًا في تلافيف دماغه. في أقواله المتعددة، ذكر كم طائرة استقلّها، وهو

معصوب اليدين والرجلين والأعين والأذان والفم. قدّر كم ساعة طار فيها! كيف كان يُصفع، يُركل، يعذّب. شريط سينمائي يبدأ بتفجيرات الشاحنة حتى رُسوّه في مستعمرة العظّايات الخضر. تكرّر قوله منذ ستة عشر شهرًا عشرات المرات، المعنى نفسه وبكلمات تكاد أن تكون كما هي من دون تغير، فلماذا كل هذا الغباء؟ التحقيق، الاستجواب، الأسئلة؟

سألته زينب بهدوء وهي تتخيله أخاها: أحمد، لماذا يهمّك كم درّي عندي؟

-آالعراقية! آللا اشحال من درّي معاك؟

سأل الجنرال: ماذا قال؟

-الجملة نفسها لم يغيرها، أيتها العراقية كم طفلًا عندك؟

-أعرفك عراقية؟

-نعم.

-كيف؟

-من لهجتي.

احتد الجنرال، صرخ: قلت لك خبيث، أتعبنا هذا الأحمد، اضربيه Fucker mother اضربيه. يستحق الموت، لا يتجاوب.

كادتْ تبكي، قالتْ بما يشبه الأنين: لا أستطيع ضربه. لماذا لا تفعل أنت؟

هتف الجنرال بالجنون نفسه التي استحوذ عليه: انظري إليه. إنه ضعيف جدًا، ربما ثمانين أوقية فقط، يعني أقل من أربعين كيلوغرامًا إن ضربته ضربة واحدة سيموت حالًا، ويُعدونني قاتلًا لإنسان، وهو ليس أكثر من حشرة، من animal أنت امرأة، ضرباتك أخّف.

انفرج فم السجين، ردد وبصوت جميل عذب وكأنه في عالم آخر: آالعراقية، اشحال من درّي معاك؟

هتف الجنرال، وهو ينظر إلى الجندي المتين: هات الجهاز، دعه يذُق جراء استهتاره.

اختفى هذا مسرعًا بإحدى الغرف، فجأة أحستْ بالحرارة تشتد داخل المقطورة، والنفس يضيق، وظهرتْ غير بقعة مبللة في قميص السجين، جعلتْ اللون الأحمر يبدو مبقعًا بما يشبه اللون الماروني، ثم فوجئتْ بالعرق يتساقط من وجهها، بملابسها تلتصق بجسدها، بخاصة تحت إبطيها، في وسطها، أحستْ بالعرق يحرق جروح ما بين فخذيها، وجّهتْ عينيها نحو الجنرال، هتفتْ متضايقة: ألا يوجد تبريد هنا؟

التفتَ الجنرال إلى الجندي المرافق، صرخ: افتح المكيف.

سرت في الجو نسمة باردة أحستْ بالانتعاش، فيما قدم الجندي وبيده عصا سوداء غليظة قصيرة، وصندوق صغير عليه صليب باللون الأحمر، وجهاز من الإسفنج ينتهي بقابس كهربائي، ثبته بالحائط. أقعى قرب بطن السجين. الجندي، متين تشي ملابسه بعضلات بارزة، كان أحمر الإهاب مع شعر أسود، شبه أصلع، تكاد عيناه أن تكونا جاحظتين في مستوى الحاجبين، أنف قصير مفروش. وضع العصا وصندوق الإسعافات الأولية على الأرض، حاول رفع رأس أحمد فتصالب هذا على نفسه بشدة كي يمنعه، لكن الجندي استطاع رفع رأسه بسهولة، كمّمه فلم يعد يظهر منه سوى منخريه، ثم رفع قميصه إلى الأعلى، بان بطنه بسمرته الخفيفة أميل إلى البياض، رقيقًا، منخفضًا، ككشح طفل في العاشرة، مع سرّة غير عميقة، تذكرتْ زينب أخاها، كادتْ عيناها تدمعان، لكنها تمالكتْ نفسها، ركّزتْ عينيها على الجندي.

حلّ تكة سروال بزة السجين الحمراء، ظهر اللباس الأبيض الطويل تحتها، وضع يديه كلتيهما حول وركي السجين، رفعه إلى الأعلى قليلًا، ثم مد راحة

يمينه تحت إليتي السجين، وبيده اليسرى أنزل اللباس الداخلي، والسجين يتحرك يمنة ويسرّة من دون فائدة، بان أعلى فخذيه المشعرين وجزء من إليته اليسرى، ثم أرجع الإليتين إلى الأرض حيث وضعهما الأول.

ازدادتْ حركة السجين شدة وعصبية، عندئذ سحب الجندي اللباس من الجانبين نحو الركبة، فخرج صوت السجين أشبه بأزيز مخنوق من تحت المنخرين، في الوقت الذي لطمتْ أعين الجميع عانة سوداء كثيفة ترتفع بضعة سنتيمترات فوق جلد أسمر صافٍ، تملأ الفراغ، أنزل الجندي أصابعه الغليظة، أخرج عضو السجين. بدأ هذا ينتفض ويرتجف بشكل غير إرادي.

تساءلتْ زينب في داخلها: ترى هل مرّ بهذه التجربة من قبل؟ كان الجندي يمسك به بإبهامه وإصبعين فقط ثم سحبه إلى الأعلى بقوة جعلتْ السجين يتأوه، لكن الكِمامَة أخرجتْ الصوت جافًا مخنوقًا، أصبح الحبل حبلًا ضعيفًا ممطوطًا بطول خمسة عشر سنتيمترا، تناول الجهاز الأسفنجي، فتح ظلفتيه، المقورتين في الوسط، أطبقهما عليه، انتفض السجين مرة أخرى.

لفّ الجندي الجهاز بشريط لاصق أسود ملحق به، ثم رمى به فوق العانة الفحمية الكثيفة، ضغط على زرّ في وسط السلك الممتد إلى الحائط، أخذ الجهاز يتحرك، يصدر صوتًا قويًا كالأزيز، يرتفع، ينخفض، يتيمّن، يتيسّر، وأحمد يهتّز معه مرتعشًا كأنه جزء من الجهاز، وكِمامَة الفم تنتقع بروال يخرج من فمه مع صوت مبحوح مخنوق متحشرج، ولهاث مخرّش يصدر من قعر عميق، في الوقت الذي كان الجندي ينظر باهتمام إلى ساعة ملصقة بالجهاز، يمشي عقربها نحو الجهة اليسرى بهدوء.

نهضتْ زينب، أخذتْ الدنيا تدور بها، رأسها يتضاعف حجمًا، ضغطًا، عيناها تخرجان رغمًا عنها، صعد القيء فجأة إلى حنجرتها، تراجعتْ مسرعة،

أصبحتْ خلف الجنرال، اندفعتْ معدتها إلى الخارج، قذفتْ بعض السوائل على الأرض، مصحوبة بصوت قوي، بصقت، أغمضت عينيها: يا إلهي، أين رميت نفسي؟ لمحت كرسيًا قرب الباب، جلستْ عليه، وضعتْ وجهها بين يديها، ودموعها تسح، أحست بالجندي الأشقر الأنيق يلمسها من كتفها، ناولها قنينة، أخذتْ منها جرعة ماء، ثمّ صبتْ على راحتها اليمنى بعضه، مسحتْ وجهها، تنفستْ بعمق، سيطرتْ على نفسها، نظر إليها الجنرال وأشار إليها أن ترجع. وصلت مكانها الأول. السجين ما زال يتفتت من اهتزاز الجهاز القوي، وربما من الألم الفظيع، ترى إلى متى سيصمد؟ وإذ وصل عقرب الساعة إلى نقطة الصفر، هتف الجنرال: هذا كافٍ، ابدأ.

فتح الجندي ضلفتي الجهاز، تناول العضو مرة أخرى، جسّه، كان قد اكتنز قليلًا، بات في سمك الأصبع، مع تغيّر لونه إلى حمرة فيها شيء من السواد.

كان السجين لا يزال يرتجف بقوة، بينما أمسك الجندي بحشفة العضو بأصابع يده اليسرى، وشدّه إلى الأعلى ثانية، تناول العصا القصيرة السوداء باليمنى، وبلمح البصر وجّه ضربة صاعقة إلى العضو جعلته يتأرجح يمنة ويسرّة والدماء تنز من الجهة التي وجهتْ لها الضربة، فيما طفق السجين يهتزّ، ويرتجف بشدة، يزفر ويشهق بقوة كالثور الذبيح، وكِمامَة الفم تتبلل باللعاب. كرّر الجندي الضربة مرات عديدة، حتى تدفقتْ الدماء من العضو في غير مكان، لا بل تناثرتْ قطرات الدم شتى الاتجاهات، وقعتْ بضع قطرات على وجه الجندي الأصلع، لوثتْ أخرى سرواله، بينما كونتْ باقي القطرات شبه دائرة أهليجية على جسد السجين والأرض. شهقتْ زينب أغلقتْ عينيها، لم تسيطر مرة أخرى على دموعها.

لم تدرِ متى توقّف الضرب، لكن جسد السجين لم يتوقف عن الحركة، كان

يرتفع، ينخفض، والشهيق يشتدّ، والرأس يتحرك يمنة ويسرّة، ومن تحت الكِمامَة سمعتْ صوت أسنانه تصطك بخفوت.

التفتَ الجندي نحو الجنرال، سأل: هل نعيد الكرة؟

حدّق الجنرال بالدماء تبلّل لباس السجين الأبيض، والسروال الأحمر، والأرض، قال: لا. هذا كافٍ.

عندئذ تناول الجندي صندوق الإسعافات الأولية، رشّ على العضو من قنينة أشبه بقنينة العطر سائلًا أبيض كثيفًا غمرها من جميع الجهات، بدا أن ذلك يؤلم السجين فأخذ يشهق بقوة، عندئذ أخذ الجندي يلّف العضو بالشاش الأبيض الذي كان يتبقع بزهور حمر، حتى إذا انتهى أخذ يمسح الدم بعناية من فوق السرّة والجلد الأسمر، وشعر العانة وما تحتها، وملتقى الفخذين، ثم رشّ على المنطقة نفسها من قنينة أخرى سائلًا أخضر اللون، وأعاد مسح الدم حتى نظف، ثم أرجع اللباس الأبيض المطرز بالدماء إلى مكانه، وأعاد ربط تكة السروال الأحمر. كان شهيق السجين وزفيره قويًا كأنه يريد أن يفارق الحياة، تمنتْ في قرارتها أن لا يموت، وتوقعتْ أنه لن يعود إلى وضعه السابق من الوعي حتى بعد يوم كامل. لكن الجندي أزال الكِمامَة فظهرتْ قطرات من الدماء تلطخ شفته السفلى، خمّنت أنه لابد عضّ شفته. كان الجندي مستغرقًا في عمله بتوئدة، وكفاءة مهنية، أخرج قنينة صفراء، قربها من وجه أحمد، ضغط على الرأس فاندفع رذاذ كثيف ذو رائحة قوية حامزة جعلتْ أحمد يحرك رأسه يمينًا وشمالًا، ليستقر بعد نحو دقيقة في وضعه الأول، ويعود نفسه منتظمًا بعد نحو دقيقة واحدة

أدارت زينب وجهها نحو اليسار وهي تمسح دموعها ثم نظرت إلى السجين. مرّتْ هي نفسها بمثل هذه المعاملة قبل أيام. في اليوم الأول لوجودها

دعتها المجندات إلى البار، وعندما أخبرتهن أنها لا تشرب، تساءلتْ إحداهن:
حتى عصير البرتقال؟
ضحكت: بل أشرب هذا.
-إذن هيا.
في البار الغارق بالضوء ودخان السكاير والموسيقى الصاخبة التي تمزق طبلتي الأذن وضجة الراقصين، وحركاتهم الجنونية لم تجد عصير البرتقال بل الكولا، أحستْ بها لذيذة جدًا، لكنها وجدتْ نفسها في اليوم التالي في المستشفى، لم تدرِ ما بها، لكنها لا تستطيع أن تقضي حاجتها، لا تستطيع أن تنحني، لا تستطيع أن تقف على رجليها، ملابسها الداخلية ممزقة، وسطها ممزق كله.
لم تفهم نظرات الممرضة، فم صامت، ابتسامة غامضة، عينان ناطقتان تقولان الكثير، جاءتْ بعض زميلاتها اللواتي أتين معها من ديترويت في طائرة الشحن نفسها، قضتْ معها كل منهن بضع دقائق، بكين بحرقة. لماذا؟ لا تدرّي. خرجن. كانتْ تسأل كل واحدة منهن: أحصل لك شيء مشابه؟ لكن لا إجابة. دموع فقط. لم تفهم. ربما لن تفهم حتى الموت. هل ما حدث لها وحدها أم للجميع!
عصر اليوم التالي زارها الجنرال ديفيد نفسه، وعندما اشتكتْ له ما أصابها، أخرج صورة من جيبه، نظرتْ إليها، ضابط ضخم لم تره قط، يحملها هي نفسها بين ذراعيه كطفل، يحملها مستلمة، مغمضة العينين، سألها الجنرال: أهذه صورتك؟ لا يستطيع أن يحملك بين ذراعيه لو لم تكوني موافقة، لا يشكّ بذلك أحد!
الصورة لها، لم تتذكر إلا وهي تثرثر مع زميلاتها وتشرب الكولا، ذلك وحده

في دماغها. إذن كيف حدثتْ الصورة؟
فاجأها الجنرال: كم ستتسلمين سنويًا بموجب العقد؟
ظنته يريد تغيير الحديث، دمعتْ عيناها، حدّق بها بقوة، قالت: مئتين وعشرة آلاف دولار.
- المدرسة في الثانوية لا تتسلم أكثر من خمسة وثلاثين ألف دولار في السنة.
راتبك يعادل ستة أضعاف المدرسة. لكل شيء ثمنه أليس كذلك؟
استنتجتْ ما لم تكن تتصوره مطلقًا، بدأتْ دموعها تنهمر، ظلتْ ساكتة،
أضاف الجنرال: ذكرتْ في أوراقك أن ابنتك تحتاج إلى عملية مهمة.
هزّتْ رأسها مؤيدة.
-سيكون لها ذاك بتضحيتك.
مصيبتها أكبر من أن تمحيها الدموع، وقعتْ لقمة بين مخالب النمر! ما العمل؟ إن كانوا اخذوا لها هذه الصورة فمن المؤكد إنهم اخذوا لها صورًا أخرى، وأوضاعًا أخرى أشدّ قذارة. تذكرتْ كلام الجنرال حول العظّايات، يبدو أنهم تركوا العظّايات كي تكون رمزًا واقعيًا لكل من يعمل هنا، تترك عضة العظّايات أثرًا كالوشم لا يزول حتى الموت.
استجوبيه.
جاء أمر الجنرال ليوقظها من سقطاتْ قدرها، حدّقتْ بالسجين رأتْ دموعه تسحّ من عينيه، من تحتِ العصابة المبللة. قدّرتْ أنها دموع غير إرادية، إذ بدا كما كان من قبل مسيطرا على أعصابه.
نادته برقة كما لو كان أخوها: أحمد؟ هل تشعر بتحسن الآن؟
-آ للّا اشحال من درّي معاك؟
سألها الجنرال: أردد العبارة نفسها؟

- نعم.
- يا له من خبيث!
التفتتْ نحو الجنرال: لماذا لا أجيبه. ما المانع؟ دعه يعْتدْ عليّ.
صرخ الجنرال بقوة: لا، لا، لا، نحن من نستجوب وليس هو. ما قيمته هو؟ إنه خراء shit !
توقف لحظة ثم قال: خيّري هذا الـ Fucker mother إن لم يعترف الآن فسنعيد وضع عضوه في الجهاز حتى يتآكل وينتهي، يصبح خنثى.
اقتربتْ من إذنه: عزيزي أحمد، أنت تعرف الانجليزية، أليس كذلك؟ سمعتَ الجنرال، عرفتَ قصده، سيقضي عليك، ماذا تقول؟
جاء الصوت وبنفس الإصرار السابق، وبهدوء، كأنه لم يمرّ بمثل هذه المحنة قط أو كأنه لم يسمع كلام الجنرال أو يسمعها: آللّا، للّا اشحال من درّي معاك؟
- أحمد. لا تتغابى. فكّر في مستقبلك. أنت شاب. سيقضون عليك.
خيّل لها أنه يبتسم: آ للّا، اشحال من درّي معاك؟
أعاد غناء الجملة بصوت جميل، قوي، فقدتْ أعصابها كليةً، أخذتْ تبكي بصوت عالٍ، صرخت: سيقضون عليك. ستنتنهِ. فُقْ يا غبي.
وعندما لم يصمتْ ضربته على صدره بكلتا يديها، وهي تصرخ: كفى.
- آ للّا، اشحال من درّي معاك؟
-كفى.
-آ للّا، اشحال من درّي معاك؟
-كفى. كفى. كفى. كفى. كفى.
- آ للّا، اشحال من درّي معاك؟

كانتْ يداها تقعان على القسم الأيسر من صدره، وكانتْ تصرخ وتضربه بعنف يتزايد مرة بعد مرة، وآلام وسطها تمزقها بضراوة ولهيب يتصاعد، فيشتد بكاؤها وتعلو نبرات صوتها مع عنف حركة اليد، مصحوبة بنشيج باكٍ، استمرتْ تضربه من دون وعي، وصوتها العالي يردد كلمة كفى. وهو يردد بعدها مباشرة وبإلحاح: آ للّا، اشحال من درّي معاك؟ حتى خفتَ صوته، صمتَ، انتهتْ حركات شفتيه، لم يخرج من فمه أي شيء. لم يبق سوى صوتها، وضربات يديها على صدره، وصراخها: كفى. كفى. كفى. ثم أدركتْ أنها وحدها في الميدان، فتوقفت، حدّقتْ به. لا حركة. لا نفس. أي جسد واهٍ؟ وضعتْ أذنها على صدره ودموعها تسحّ على ملابسه الحمر، لم تسمع أي دقّة. جسد صامت، صمت الصخور. طفقتْ تبكي بصوت عالٍ. سحبها الجنرال من كتفها الأيمن: لا عليك. لا تبكي. هذه هي النهاية التي يستحق.

ثم نظر إلى الجندي المرافق: نادي الطبيب ليلقي نظرة عليه.

خرج الجنرال، وهي تتبعه وخطواتها واهنة ضعيفة، تكاد تلقي بها فوق العظّايات، والعظّايات تبتعد عن طريقهما، وهي تنشج، وترجف، وعقلها وأحاسيسها مع السجين الجامد في الداخل وهو يردد: آ للّا، اشحال من درّي معاك؟ وشيء ما في قرارتها يرفض أن يصدق أنه مات، ترى لماذا كان يصرّ على معرفة عدد أطفالها! كان وقت الغداء قد حان، فقدتْ شهيتها، بقيتْ في مكتبها الصغير، جامدة أمام الحاسوب، مشتتة الفكر.

بعد قليل استدعاها الجنرال، وضع أمامها أوراقًا للتوقيع تقضي بأن السجين أحمد الطويل قد انتحر. -كان معروفًا بتمرده، غروره، أضرب عن الطعام، عشرات المرات، هو الوحيد الذي بقي من دون طعام ثمانية أسابيع،

كان عنيدًا إلى درجة أنه فضل أن ينتحر ليحرج إدارة المعسكر، بالرغم من المعاملة الممتازة التي تجري مع الموقوفين وفق معايير مبادئ حقوق الإنسان، والتصرف القانوني المسؤول-.

-أشار الجنرال إلى كومة من الأشياء أمامه: هذه هي كل ما كان عنده، أنت شاهدة.

حدّقت، ساعة رجالية فاخرة بسير فضي، خاتم ذهبي، وثيقة تأمين صادرة من شركة باكستانية على سيارة نيسان Sunny ، خفق قلبها بعنف، صورة لأحمد، تذكرت أنها كانت تتوق لرؤية ملامحه، هذه صورة له، لم تره في الحياة، لترَ صورته بعد موته. آه كم هو وسيم! أوسم من أخيها، جبهة عريضة وشعر أسود فاحم على شكل قوس فوقها، بدر أسود، قربه عروس جميلة جدًا، لم تتجاوز الثامنة عشرة، في حلة الزفاف البيضاء الرائعة المكيفة بزينة باكستانيّة، رخصة سوق باكستانية عليها صورة ملونة، لم تستطع التحديق بالصورة، أدارت رأسها، ربما تعود الحياة إليه فيعاتبها مرة أخرى، وصدى كلماته يخترق الكون: آالعراقية، اشحال من درّي معاك؟ ثم صورة أخرى لطفلة تشبه أمها، في شهرها السادس، ذات عينين حادتين واسعتين ترسلان نظرة معبّرة ذكيّة، حدّق الجنرال بالجندي الأشقر المرافق.

-تعال وقّع.

وقّع الجندي وخرج، همّتْ زينب بالتوقيع حين رنّ جرس التليفون، التفتَ الجنرال ليردّ عليه، فمدتْ يدها وتناولتْ صورة الطفلة الجميلة، يا لعينيها الرائعتين! لا بد أنها أصبحتْ الآن في عمر السنتين، بعمر ابنتها نيران، ترى ألهذا كان يسألها: آللّا، اشحال من درّي معاك؟ لماذا كان يصرّ على وضع كلمة العراقية قبل السؤال؟ لماذا يكرر سؤاله؟

عندما أنهى الجنرال مكالمته كانتْ هي قد أنهتْ التوقيع بينما استأنف الجنرال وضع ما يخص أحمد في كيس من النايلون، ثم كتب على ورقة: أحمد الطويل المغربي، تسلّم محتويات هذا الكيس إلى أي من تقرر السلطات القضائية صلة به.

وقّع إلى جانب الشاهدين، وكتب اسمه، وتاريخ اليوم: الرابع من أيار. ٢٠٠٣

وضع الجنرال الكيس في جرار خزانة حديد رمادية إلى يمينه، ثم نظر إلى زينب، قال بصوت هادئ: سأرسل إليك بعد الغداء لنستجوب سجينًا آخر.

خرجتْ ونظرات الطفلة ترسل سهامًا نارية تحرقها، في محيط غرفة يتلاطم فيها صدى صوت أبيها وهو يغني: ياالعراقية، اشحال من درّي معاك؟

****

يونس ويوسف

بدا الجسد المسجى على النقّالة المتحرّكة مركزا يبثّ رهبة مشبّعة بالسّكينة والهدوء. يجسمه ضوء شاحب، ينبعث من الغرفة الملاصقة للباب الرّئيس، وآخر عليل ينتشر من مصباح صغير فويق كرسي الطّبيب. حيث ساعة حائط مدوّرة ترك عليها الباب لطخات سود متفرّقة. كانت عينا الطّبيب تهربان من الجثّة فيلتفت إلى المراجعين ويؤشّر إليهم واحدا فواحدًا لفحصهم، ووصف الدّواء لهم. أجبر نفسه على التّركيز على مرض المراجع باهتمام، وأخذ يكتب الدّواء بتأنٍ غير معهود منه، لكنّه من دون شعور يلتفت نحو الجثّة المسجاة على النقّالة بملامح متغضّنة، فيرتدّ طرفه، وتسود ملامحه تعاسة مؤلمة تقابلها لا مبالاة عمليّة على قسمات الممرّض القصير، وهو يراقب وصفات الطّبيب، ويعد العدّة لزرق من يحتاج إلى إبرة بين الحين والحين، في الوقت الّذي كان مساعد الطّبيب يغلي من الغيظ، وعيناه تقدحان شظى عصبيّة تتحفّز للتفجّر في أي لحظة، لكنّه كان يضغط على نفسه كما يفعل الطّبيب ليستطيع تبديد غضبه، فيتمهل في شرح تعليمات الوقاية لمن يراه يحتاجها من المراجعين الآخرين.

كان المراجعون ينتظمون في خطٍ طويل يمتد من باب الغرفة إلى نحو عشرة أمتار خارجها، تحت مظلّة تحميهم من أشعّة شمس تمّوز الضّارية، لكنّها لا تحجب عنهم الحرارة الشّديدة بأيّ حال. بينما كان الكثير من المراجعين يدخلون الغرفة مضطرّين للمرور بها ليصلوا إلى أقسام الأنف، الأذن، الحنجرة، الكسور، الباطنية، فتصطدم أعينهم حالًا بالجثّة مسجاةً

على النقّالة، فيحيدون بنظرهم عنها لا إراديًّا كأنهم يخشون ضربة مصير أهوج يطيحهم مثلها، ألّا أنّها كانت بالنّسبة إلى الفريق الطّبي الثّلاثة أشواكا في العين يستحيل التّخلص منها. لم يكن هناك مفر من وجودها معهم، ولم يكن لهم مقر غير هذه الغرفة التي لا تتجاوز ثلاثة أمتار بكراسيها الأربعة، التي تلتف حول منضدة رماديّة حديد بدأ الصّدأ يتآكلها.

قدما الجثّة سمرواون يبدوان من فوق النقّالة معفّرتين بالتراب، مع بقع متفاوتة الأحجام لوحول جافّة، تنتهيان بأظافر طويلة قاتمة السّواد، من جهة وكعبين متشقّقين مغبرّين من جهة أخرى. فيما بد لون أعصاب القدمين وهي تتوزع على الأصابع صفراء بارزة خالية من الدّم، مع عروق غامقة خضر.

عبثًا حاول الطّبيب ومعاونوه نسيان الجثّة والتفرّغ لأعمالهم، كانت تستفزّ نظراتهم، حاولوا الاستغراق بأيّ شيء لكنّهم فشلوا، كأن فيها خيوطًا تشد أبصارهم، تخزّ أعينهم، لماذا؟ ألأنها هناك؟ أم بسبب ذلك الصبي ذي العينين الصّفراوين الواسعتين؟

مرّة أخرى حدّق الطّبيب به، أيّ شجوٍ يمزّق تينك العينين اللتين تملأن صفحة الوجه! أيّ عمق فيهما! لماذا يبدو وكأنه يبتلع غصّة مكبوتة! كان الصبي يجلس مقرفصا تحت النقّالة، ممسكا بمسحاة والده يسندها إلى الحائط تحت قدمي الجثّة، وعلى الرّغم من أنّه كان لا يتجاوز العاشرة إلا أنّه كان متماسكًا رابط الجأش حتى أنّه لم يذرف دمعة واحدة. كان في تحديقته المسمرّة في الأرض عمقا يتجاوز الحزن العاديّ، يكاد يحفر آجرّها وينفذ في طبقاتها، ليخترق محيطها. حزن ساد الغرفة الصّغيرة، أصبح مظلّة لها، تكاثف في جوّها، لم تستطع حركة الممرّض ومساعد الطّبيب الدّائبتان

تبديدها، بدوا وهما يتكلمان بصوتٍ عالٍ، يلقيان العليمات المختلفة للمرضى وينتقلان بين بابي الغرفة مع المراجعين، بهدوء مرّة وبحذر أخرى، وبسرعة مرّة ثالثّة، مدًا وجزرًا ومن دون انقطاع، لكنّهم كانوا يرجعون إليها بنظراتهم وتحديقاتهم مرّة بعد مرّة.

لوجود النقّالة في الممّر الضيق كان معظم المراجعين يصطدمون بها في رواحهم وغدوهم، فتندفع قليلًا لترتطم بركن الباب الخشبي المفتوح إلى أقسام المستشفى المتعدّدة، ثم ترجع إلى مكانها، تتحرك إلى الأمام والخلف عند أيّ صدمة، أو حركة مهما كانت خفيفة، فتنزل حافة اليشماغ من فوق رأس المتوفّى وتتأرجح في الفراغ تحت النقّالة، أمام وجه الصبي القابع قريبًا منها، فينكشف وجه ورأس الميت عن شعر أسود لما يستسلم للمشيب، ودائرة صغيرة صلعاء صفراء لامعة في أعلى اليافوخ فيها بضع شعرات سود طويلة، ويسفر وجهه عن جبهة متغضنة ملتصقة بالعظم، وكأنّها لشدّة نحافتها خالية من الجلد. حين ذاك ينهض الصبي يسند المسحاة إلى الحائط، ويرفع طرف اليشماغ، يفتحه، يفرشه ثم يغطي الجزء المكشوف من الوجه: العينان المفتوحتان، وجزءا من الوجنتين الممصوصتين والأنف الأعقف، يغطيها بهدوء، وبحركة مليئة باحترام قدسي. معظم اليشماغ كان تحت الرّأس، لم يتبقّ منه سوى طرفه الدّقيق، بحافتيه المليئتين بالشّراريب البيض المتدليّة. لم يكن يجرؤ على سحب بقيّة اليشماغ ليغطّي الوجه بالكامل، ولأنّه لم يجد في النقّالة مكانًا كافيًا وضع العقال المقحل المهترئ على صدر أبيه. كان يتمنّى ألا يضعه هناك لا لشيء إلّا لأنه لم يكن في موقعه الصّحيح، وكان يتساءل مع نفسه إن كان أبوه يحسّ بثقل العقال على صدره أم لا! سمعهم يقولون إن الميت يحس ويرى ويسمع ويتألّم

ويفرح بطريقة لا تظهر للأحياء، يشاركهم وجودهم، حياتهم، مشاعرهم، لكنّه لا يتمكنون من مشاركته قط.

كان الطّبيب ينظر إليه وإلى أبيه بين آونة وأخرى كما يفعل الآخرون، وكان يهّم بأن يخبره شيئًا عن وثيقة الوفاة الجاهزة أمامه منذ بعض الوقت، لكنّ التردّد يصدّه. ليس التردّد وحده بل هناك زحمة العمل وتكدّس المراجعين، وشدّة الحرّ الّذي لم تستطع المروحة السّقفية أن تخفّف من سعيره. كان يشعر برهبة إزاء اقتحام صمت الصبي المتكئ على الحائط غارقا بلجّة حزن كثيفة يصعب اختراقها.

بعد لأي استجمع الطّبيب شجاعته، نهض، التفّ حول المنضدة، اقترب من الصبي وهو يطوي وثيقة الوفاة ويمدّها نحوه، تنهّد، أحمرّ وجهه، قال مشدّدًا على كل حرف: حافظ على هذه الورقة، لا يسمحون لكم بدفن أبيك إلّا بها.

فوجئ الطّبيب برد فعل الصبي، نهض بسرعة، استلم الورقة، عدّل دشداشته المرقعة القاحلة، سحبها تحت حبل القنّب الّذي يحتزم به، أودعها باهتمام في جيبه الجانبيّ، بعد ذلك عادت عيناه الصّفراوان تحدّقان بالطّبيب، بتساؤل أخرس، عمّا يفعل. قال الطّبيب: خذ والدك واذهب.

أحس بأنّه تخلّص من جبل كان مُلقى على كاهله، ثم تنهّد بارتياح بينما ظلّت عيناه مركّزتين على عيني الصبي الصّفراوين الّذي ما إن سمع كلمات الطّبيب حتى استدار نحو الجثّة. رفع العقال عن صدر والده، أرخاه، علقه برقبته، أحاط صدر والده بذراعيه الهزيلتين ليرفعه من النقّالة، فسقط طرف اليشماغ عن الوجه المتشمّع بالفناء، وتدلى رأس الميت خارج النقّالة إلى الخلف، كأنّه يريد أن ينفصل عن الجسد.

بدا فمه مفتوحًا على أسنان صفر منخورة بالسواد، وفراغ عميق كبئر نضبت مياهها منذ آلاف السّنين، وبانت تقاطيعه المصفرّة متعبة يابسة تحت عينين صفراوين شاخصتين إلى الأعلى، في لا مبالاة راسخة.

دمعت عينا الطّبيب من تحت نظّارتيه الطّبّيتين، لكنّه ابتسم ابتسامة خفيفة متعاطفة، انحنى قرب الصبي، وضع يده على كتفه الهزيل بحنوٍ، فيما كانت سمّاعته المعلّقة على صدره تتأرجح بين الصّدرية البيضاء النّظيفة وبين صدر الصبي: لا ليس هكذا، اذهب واجلب سيّارة أجرة، سيساعدك الموظفون على حمله، لا تستطيع حمله وحدك.

قال ذلك ووضع كفه على كتف الصبي، تراخت يدا الصبي. أراح رأس والده على النقّالة من جديد وأعاد تغطية الوجه كلّه باليشماغ فاختفى صراخ العينين الصّفراوين الجامد، ثم التفت نحو الطّبيب يحدّق به. كان واضحا أنّه لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، وأنه مع كونه أقرب النّاس للميت في هذه الغرفة فوجئ بالحدث يشلّه، كان شعر رأسه الأسود الكثيف متشمّعًا بتراب وعرق لم تصل إليه يد الحلاق منذ دهر، فتطاولت خصلاته حتى بدا وكأنه هالة ضاعفت حجم وجهه الحليبـيّ متناسق التقاطيع. كان يحس حينما يسير تحت أشعة الشّمس بالعرق يلتهب في نافوخه. أرادت أمّه أن تغسله اليوم فمنعها أبوه، قال لها: اغسلي شعره غدًا، أحتاجه اليوم.

خيّل للطّبيب أنّ الصبي أخرس لكنّه استبعد ذلك فهو يطيع الأوامر، يعني أنّه يسمع، ومن يسمع لا يمكن أن يكون أخرس.

كان ينظر إلى الطّبيب بضياع، بغرابة من وُجد في عالم لا يمت إليه بأيّ صلة، عالم يراه أوّل مرّة في حياته: الطّبيب، المستشفى، النّاس المتجمهرون الّذين ينظرون إليه بتعاطف، المراجعون المصدومون الّذين لم يتوقفوا منذ

الصّباح عن الغدو والرّواح، يمرّون بعجلة، يلقون نظرة تلقائيّة عاديّة على جسد أبيه، ثم فجأة يفتك الذّعر في حدقاتهم فيشيحون بنظراتهم عنه. يأتون مسرعين كأنّهم في مهمّة عاجلة يريدون إنهائها؟ لماذا هو وأبوه هنا؟ لماذا أوقفوه في هذا المكان المزدحم؟ قالوا له إن أباه مات. ألا يوجد غير هذا المكان الضيّق؟ أحس أنّهم يتألّمون حينما يزرقهم المضمّد القصير بأبرة يدخلها في أفخاذهم. لماذا يفعل ذلك؟ نظر إليه وهو يمارس عمله محتقنًا، عصبيّ المزاج. كلماته قصيرة حادّة، أشبه بنباح كلب الصّريفة المجاورة لصريفتهم. خشي أن يتوجّه إليه فيسوطه بصراخه. لكنّه لم ينظر إليه. أشاح بوجهه إلى الحائط. حيث السّاعة المدوّرة الكبيرة وعلى بعد قدم واحد منها مفكرة السّنة، مليئة برموز لا يفهمها- محاطة بوجوه أطفال جميلين جدًا، يرتدون ثيابًا نظيفة زاهية تختلف عن ثوبه الوسخ الرخيص. بنين وبنات بوجوه سعيدة مشرقة غريبة عنه. رأى مثلهم في السّوق، لكن هناك مسافة شاسعة تفصلهم عنه، عندما يقتربون منه، يضطربون، يرتعدون، يخافون منه، شأنهم شأن المراجعين في المستشفى.

بدا كلّ شيء غريبًا عليه هذا اليوم، حتى والده، لماذا أيقظه في الفجر؟ سلّه من النّوم اللذيذ.

- يونس. يونس أفق. اغسل وجهك.

اختلط عليه الأمر في غبش النّعاس، عاد أكثر من مرّة إلى الحصير، ما إن يضع رأسه على المخدّة حتى يسقط في بئر النّوم اللذيذ، لكنّ أباه كان له بالمرصاد، أعاد إيقاظه مرّة بعد مرّة في صبر وتؤدة، وعندما لم يستيقظ رمي على وجهه كفًّا من الماء البارد، أخذه من الطّست المخفي داخل الصّريفة كي لا تلعقه الكلاب الضّالّة. سمع أمّه تنادي أباه وهي تتثاءب: لماذا تلّح على

أخذه معك؟ انظر إلى شعره أصبح كاللباد، سأقصّه اليوم وأغسله، أعطتني أم غالب قالب صابون، وسمحت أن تمد صنبور الماء، لأحمّمه وأحمّم أخته حسنة.

- يجب أن يأتي معي. أحتاجه.

لم يدرك قصد أبيه آنذاك. انقشع الظّلام، بات ضوءًا رماديًا أشبه بفيء خيمة واسعة سعة الكون. تبعه والنّعاس يثقله، يكاد يجعله ينام ماشيًا، لم يتخلّص من جذور السّبات وتهويماته إلّا بعد أن هاجمتهم الكلاب الضّالة. أكثر من خمسة عشر كلبًا. كيف تجمّعت؟ صحا كليّة. قال له أخوه يوسف قبل سنتين: الكلاب لا تخيف الرّجل. إن فاجأتك اجلس. عندئذ تتوقّف. أمّا إن استطعت رميها بحجارة فستتفرق وتهرب حتى لو كان عددها أكثر من مئة كلب. فعل كلّ مرّة تهاجمه الكلاب بنصيحة أخيه. انحنى بسرعة، اختطف حجَرَة من الأرض بمثل لمح البرق، ورماها نحو الكلاب. تفرّقت. أخذ أحد الكلاب ينبح بصوّت متألّم. تلك الحركة الوحيدة البسيطة جعلته يحس بالجوع. افتقد يوسف كثيرًا، بكى غير مرّة، تذكّر لعبهما معًا، كيف كانا يتسابقان، يتصارعان. يوسف علّمه كلّ شيء، لم يعلّمه أبوه أو أمّه شيئًا بقي في باله. علّمه يوسف مهنة الحمّالة التي يجيدها الآن بالرّغم من كونه لا يجد زبائن هذه الأيام، وبخاصة بعد الحصار. بات المتسوّقون يحملون مشترياتهم بأنفسهم. إن وجد زبونًا واحدًا في الأسبوع اعتبر نفسه محظوظًا.

-ضع هذا في دماغك: حينما تصل إلى بيت الزّبون، لا تدخل إليه أبدًا. أدخل إن كان الزّبون امرأة. أما إن كان رجلًا فلا تقف على عتبة الباب، ناوله الأغراض وأنت في الخارج، لا تتجاوز العتبة، هل سمعتني؟-

- نعم.

كرّرها غير مرّة، وهو ينظر إليه باهتمام، يجبره على هزّ رأسه. لم يزد على ذلك، لم يكشف له سبب ذلك. لم يقل له كل شيء! لكنّه بعد التقائه بالحمّالين الصّغار أمثاله، سمع منهم قصصًا مخيفة، جعلته يؤمن بما قاله يوسف. علّمه يوسف أشياء كثيرة.

في ذلك اليوم الحار أيضًا، صرخ، تأوه بصوت عالٍ أخذ يقفز على رجل واحدة من الألم. اقترب يوسف منه، هتف به: لا بأس. توقّف عن الصّراخ. انظر إلى باطن قدمك، انظر، هناك مسمار صغير. اقتلعه. نحن حفاة، لا ننتعل شيئًا. يحدث دائمًا لنا مثل ذلك. اضغط بقوّة على الجرح حتى يخرج الدّم، انتظر قليلًا، ثم امشِ على رؤوس أصابعك حتى يجفّ، سيزول الألم بعد وقت قصير. تذكّر يجب أن يجفّ الدّم وإلّا مرضت.

زارهم العمّ مرزوق، كان يضع على رأسه يشماغًا جديدًا أزرق نظيفًا، وفوقه عقال أسود جديد، وكانت -دشداشته- جديدة أيضًا، وفي رجليه نعال من الجلد الأصفر. جاء هو وصديقه العمّ ناصر الخشاب، كان هذا طويلًا نحيفًا، أسمر، ترك حلاقة وجهه بضعة أيام، فبدا الشعر أسود بطول نصف ظفر، يضع عقاله الأسود العريض في مؤخرة رأسه، توقّع أن يراه يسقط في كلّ حركة يحرك ناصر الخشاب بها رأسه، لكنّ توقعاته خابت، إذ ظلّ العقال ثابتًا في مؤخرة الرّأس. جلس الضّيفان يتسامران في الصّريفة مع أبيه وهم يرشفون الشّاي. أخرج العم ناصر علبة سيكاير حمراء. ناول الرّجلين سيكارتين. أورث النّار العم مرزوق. لم يرَ أباه يدخّن قطّ سوى تلك المرّة. لكنّه لحظه يستمتع بالتّدخين كثيرًا، يمصّ الهواء بقوّة، فيخرج الدّخان الأبيض من منخريه الواسعين. وعندما انتهوا من تدخين السّيكارة الأولى

عاود العمّ ناصر عرض سيكارتين أخريين لهما مرّة أخرى، لكنّ أباه رفض أن يدخّن ثانية.

كان هو ويوسف يلعبان خارج الصّريفة، وأنوار الشفق الفريدة الجميلة تملأ الأفق بسحرها الرّائع. ثم نادوا على يوسف. تكلّموا معه، رأى عيني يوسف تبرقان سعادة، وهو يهزّ رأسه موافقًا على قولهم. كان هو بعيدًا يلعب مع حسنة، لم يسمع ما قالوه له، وبعد مغادرتهما الصّريفة سمع أبوه يقول لأمه أنّهما عرضا عليه أن يسافر يوسف معهما إلى البصرة للعمل في -جراديغ- التّمر. وعندما سألته ماذا قرّر! قال لها باقتناع كامل: في الأقل يتعلّم صنعة أكثر فائدة من الحمالة.

ثم سألها: وأنت ماذا تقولين؟

- لا رأي لي، الرّأي رأيك.

- الخير ما اختاره الله.

لم يتكلم معه يوسف كثيراً، بدا فرحًا كمن يقدم على مغامرة مهمّة، قال له: سأذهب إلى البصرة.

- سأجيء معك.

- ما زلت صغيراً. ربما بعد بضع سنوات.

ثم رأى يوسف في اليوم التّالي يغادر الصّريفة، مرافقًا عمّه مرزوق وحده. كانت تلك آخر مرّة يراه، التفت يوسف إليه بعد نحو عشر خطوات. لوّح بيده وهو يبتسم. ثم اختفى بعد حين مع العم مرزوق.

بعد ثلاثة أشهر جاء العمّ ناصر الخشّاب بقامته النّحيفة المديدة وحده، كان الوقت عصرًا. سلّم، دخل الصّريفة. لم ينتظر كي تعد أمه الشّاي. أدخل يده في جيبه، أخرج محفظة قديمة سوداء، أخرج دينارًا كاملًا، سلّمه لأبيه.

فطفقت أمّه تدعو الله كي يحفظه ويحفظ العمّ مرزوق، وأولادهما وأهلهما جميعًا. أراد أبوه أن يستمتع بأكلة ثريد باللّحم. لكنّ أمّه أصرّت على أن تشتري لهم ثيابًا جديدة تخيطها بنفسها، لأنّ العيد الصّغير على الأبواب.
ثم تكرّر مجيء العمّ ناصر الخشاب ثلاث مرّات أخرى. لكنّ والديه لم يوفرا المبلغ لشراء سيّارة. وعندما ذكّرهما برغبة يوسف في توفير النّقود لشراء سيّارة بعد عشرين عامًا ضحكا عليه.
قال أبوه وهو يبتسم: ألا تعرف طبيعة يوسف؟ إنّه كثير المزاح.
بعد أشهر جاء العم مرزوق بنفسه، جاء وحده، انتحب، قال وهو يبكي، ويمسح دموعه بـ-يشماغه-: غرق يوسف. حذّرته غير مرّة. لا أحد يستطيع السّيطرة على الأطفال، يغرونه بالسّباحة، يهربون من أهاليهم ويغطسون في شط العرب.
بقي هو وحده وحسنة الصّغيرة في الصّريفة. يتعشيّان، يتمازحان، يلعبان حتى يناما.
وصلا إلى الطّريق العريض المؤدّي إلى بغداد، آنذاك بدت أبنية العاصمة هلامًا يرتسم في خطوط غبشيّة تظلّل قوس الكون، أوّل شيء بان الجسر الكبير الّذي يصل بغداد الجديدة بالعاصمة، تذّكر يوسف مرّة أخرى، جاء هتافه حيًّا كأنّه معه الآن: انظر. هذا الجسر طويل جدًا، لو مشينا عليه يومين لا ينتهي. لكننا سنقطعه بربع ساعة.
- كيف؟
- سنشتري سيّارة.
ضحك من كلّ قلبه: أنت مجنون. نحن نشتري سيّارة!
-نعم.

- لكن كيف؟
- سنوفر كل يوم ربع دينار.
- متى نشتري السّيّارة؟
-بعد عشرين سنة.
انفجرا يضحكان كليهما. عشرون سنة، مدة طويلة، عمره عشر سنوات. كيف سيصبح بعد عشر أخرى؟ كيف بعشرين؟ لم يقل له أنّه لا يستطيع تصور كم تطول العشرين سنة. يا ليته معه الآن، ليستمتع بمزاحه.
التقط هلال مئذنة جامع السّيديّة أوّل شعاع أصفر باهت قذفته شمس تموز، سار أكثر من عشرين خطوة وعيناه على هلال المئذنة، جاءه صوت يوسف مرّة أخرى: لماذا هذه المئذنة عالية؟
- لا أدري. أتدري أنت؟
- أحزر.
- لتقف عليها الطّيور.
تنفجر قهقهة يوسف قوية تملأ الكون: هل رأيت طيرًا يقف عليها؟
-لا.
-كيف إذن تقول هذا؟
امتزج شعاع الشمس مع لون الهلال الرّمادي، لكن صفرة الشّعاع غلبت، بات الهلال وكأنه مصبوغ بالأصفر: لا تهرب من الإجابة، كيف تقول ذلك؟
-حسنًا أنا لا أعرف، قل أنت.
-ليكون المؤذّن قريبًا من الله، الله في السّماء، وكلّما علت المنارة اقترب المؤذّن من الله.
كلما يرى منارة يتذكّر مفكّرًا في كلمات يوسف الغامضة، لم يسأله أن يشرح

له ذلك، ولم يبادر هو بالشرح. بعد قليل سادت الكون رائحة النّفط، ثم بدا في الأفق القريب لهب ودخان مصفى الدّورة، وفجأة كما لو كان ذلك حلمًا اتضح كلّ شيء مع إشراقة الصّبح، سيل سيّارات لا ينقطع، بيوت، محلات مغلقة، بشر يغذون السّير. أول سيّارة رآها كانت برازيليّة حمراء متّجهة نحو الحلّة، تكدّس في مقعدها الخلفي أطفال كثر لم يستطع تمييز ملامحهم أو عددهم، فقط وجوه وعيون تلمع تنظر إلى ما هو موجود في الطّريق.

آنذاك لحظ أن أباه كان يخطو ببط خلفه على غير عادته، يسير بصعوبة، يتوقّف بين آونة وأخرى ليأخذ نفسا عميقًا، أكان يعرف أنّه سيموت؟ ألهذا أخذه معه؟ إن كان يعرف فلم فضّل أن يموت بعيدًا عن الصّريفة؟ تذكّر أنّه قال له عندما ابتعد عن الصّريفة ببضعة أمتار: أنت رجل، الرّجل لا يستجدي ولا يبكي. لماذا قال له ذلك؟ ثم نظر إليه، ابتسم: لا تضيّق الحبل على بطنك، ستنسى الجوع بعد قليل.

كاد الحبل القنّب الأصفر يقسمه قسمين، توقّف، أرخاه، عرف أبوه أنّه جائع، لكنّه سيصبر كالعادة لأنّه رجل، كانت سيّارات البيك أب تمرق محمّلة بصناديق الباذنجان، الطّماطة، القرع، الفاصوليا، الباقلاء، التفاح، الرّطب، العنب، الرّقّي الخ. يصحب السّيّارات وشيش صاخب يقطع كلمات أبيه: لن يتخلى الله عنا هذا هو اليوم السّابع، أيترك الله خلقه سبعة أيّام؟ سبعة أيّام لم أجد شغلًا! أخلَقَنا لنموت من الجوع؟ لا، حاشا لله!

بدا الأب واثقًا من الحصول على عمل هذا اليوم، وسرت عدوى الثّقة إليه بالرّغم من أنّه ما كان يتفّق معه فيما قاله أبوه، لا يفهم معنى -يتخلى الله عنا-. قبل الحصار كان يجد العمل سهلًا، لم يشعر لا هو ولا أهله بوطئة الجوع، كما في هذا الشّهر بالذات، بعدما اضطرّوا لبيع الحصّة التّموينيّة

لعلاج حسنة التي تمرضّت وكادت تموت. تغيّرت الأمور كثيراً. لو كان يوسف معه لسأله عن معنى الحصار. ولماذا توقّف العمل بعده. كان يحمل -كوشره- الكبير الّذي رقّعته أمّه، داخلًا وخارجًا بما يتيسر لها من بقايا قماش ترميها الخيّاطات في القمامة، احتجّ: لكنّه جديد، لماذا ترقعينه؟
- أفضل. الرقع تقوّيه، تمنعه من التّمزّق بسهولة.
علّمه يوسف أين ينتظر قدوم سيّارات المتسوّقين. حينما يترجل أحدهم من سيّارته، اقترب منه، لا تضايقه، لا تلّح عليه بالسّؤال، بل سِرْ حذاءَه. فإن احتاجك يبدأ هو بدعوتك لمرافقته. علّمه كيف يدور في ممّرات سوق السّيدية بهدوء عندما يشتدّ الحرّ. أين يقف في الظّل كي يراقب السّيّارات.
قبل كلّ ذلك علّمه كيف يحمل -الكوشر- على رأسه بطريقة يحافظ بها على المشريات كي لا تسقط في الأرض فتتلوّث بالتّراب أو الوحول، إن سقطت أرضًا يفقد مكافأة الحمولة، وربما ينال صفعةً قويّة. أوصاه أن يبتسمَ ويمد يده إلى -الكوشر- طالبًا من الزّبون مساعدته على وضع -الكوشر- على رأسه. لم يكن الطّريق طويلًا إلى موقف السّيّارات. لا أكثر من مئة خطوة. هذا في الأيام العاديّة، أمّا حين يكون محظوظًا فقد تأتي سيدة عجوز أو رجل محترم يسير على قدميه. يحتاج مثل هؤلاء حمّالًا صغيراً مثله. حتى هؤلاء الّذين يتوسّم فيه التسوّق المتنوّع عليه أن يراعي رغباتهم، قد يضجرون إن ألحّ عليهم الحمّال بعرض خدمته، شأنهم شأن الآخرين. يرافقهم عن بعد، فإن أرادوه طلبوا منه حمل بضاعتهم. هؤلاء يدفعون جيدًا، لكنّهم الآن قليل.
ظلّ يوسف يعيش معه، بتعليماته، بكلماته، بتصرفاته. أرسل لهم من البصرة الفلوس ثم اختفى. أمّه لم تنسه. حسنة الصّغيرة وحدها نسيته، لم

تعد تذكره. أما هو فيتذكّره في كلّ خطوة يخطوها. ترى ماذا يحصل لمن يغرق بالماء؟ سمع العم مرزوق يهمس لرجل يعرفه بصوت لم يرد إسماعه لهم: لم نعثر على الجثة، شطّ العرب عميق وواسع، وعندما يحدث الجزر يسحب كلّ شيء إلى البحر.

في المساء تغلق دكاكين السّوق أبوابها، تخلو دروبه من النّاس، إلّا منه ومن زملائه الحمّالين الصّغار. يتراكضون. يتسابقون، يلتقطون ما لفظته الدّكاكين من أوراق الخسّ، الرّشاد، المعدنوس، الكرافس، الشّبنت، البربين، البصل، حبات التّمر، عناقيد العنب الصّغيرة الضّامرّة، المتيبّسة. حتى بعض وحدات الباذنجان، القرع، الفلفل المتآكلة، أو التي تعفّن جزء منها.

البارحة كان محظوظا جدًا، عثر على نصف رقيّة عاديّة، صالحة للأكل، غير منتنة، لم يصدّق عينيه! لماذا تركوها؟ ماذا فعلوا بالنّصف الآخر؟

بما جمعه من نقود قبل أسبوع اشترى به دقيقا خبزته أمّه، لكنّه لم يكن كافيا لإشباع الجميع طيلة الأيام السّتة التي لم يجد فيها الأب عملًا. أكلوا كلّهم نصف الرّقيّة بلا خبز. قالت حسنة بعد أن انتهت الرّقيّة: لم أشبع. عانقتها أمّه، وهي تهزها على صدرها: لا بأس حسونة حبيبتي. ستنامين وتنسين الجوع.

أأخذه معه هذا الفجر لأنّه كان متأكّدا أنّ الله لا يتركه بلا عمل سبعة أيام أم لأنّه يعرف أنّه سيموت!

وصلا إلى تقاطع السّيديّة الرّئيس، من دون شعور نظر نحو سوق الخضار البعيد، قرصه الجوع بشدّة. أبعد عينيه عن السّوق، تذكر كلمات أبيه: ستنسى الجوع. نعم سينساه. سيرغم نفسه ألا يفكّر فيه.

جلسا على رصيف الشّارع أمام دلالة الخليج العربي، جاء بعد ذلك شاب

طويل أسمر ممتلئ سلّم على أبيه، لكنّه لم يجلس، سأله أبوه عن الوقت، قال المحامي: السّادسة إلا خمس دقائق.

كان الجوّ لطيفًا، لم يستفحل الحرّ بعد. وقف الرّجل على بعد بضعة أمتار وهو يضغط على أصابعه فيخرج فرقعة قويّة، أشار أبوه إليه، هامسًا باحترام: هذا محامٍ.

سقطت الكلمة في غيهب الغموض. ما معنى محامٍ؟ كان يبدو شخصًا محترمًا أنيقًا، يرتدي سروالًا من الكبردين الأخضر الزاهي، مع قميص نظيف أبيض مخطّط بالأخضر مكويّ.

ثم جاء مدرسّان، وأربعة موظّفين، وعمال كثيرون، زاد العدد على الثّلاثين.

بدوا يعرفون بعضهم البعض الآخر، سلّم معظمهم على أبيه، طفقوا يتحدّثون، يمزحون، يقهقهون، اشتدّ اللغط. الضّجيج. التّندر، النّكات.

بعد بضع عشرة دقيقة جاءت سيّارة بيك أب متداعية، تساقط طلاؤها في غير مكان، هرع العمال إليها بسرعة البرق. فأخذ السّائق الأصلع يحدّق فيهم بتمهّل، نقل نظراته بينهم متفحّصًا. تزاحموا حول شباك السّائق كونوا كتلة متلاحمة، يصرخون، يتدافعون، يتكلمون في وقت واحد. أبوه وحده لم يتدافع، قال له: اصرخ بصوت عالٍ ليسمعك الجميع: اثنان بأجرة واحد.

صرخ يونس: اثنان بأجرة واحد. قفز، صرخ ثانية: اثنان بأجرة واحد. ظلّ يصرخ. بحّ صوته، لم يستطع بعدئذ أن ينطق حرفًا واحدًا، خرج الهواء من حنجرته من دون صوت. أحس أنّ هناك جرحًا في حنجرته، عندما بلغ ريقه آلمه الجرح. كان يونس يقفز كي يراه السّائق، لكنّ الجمع حال بينهما.

اكتفى أبوه بهزّ المسحاة، ورفعها وخفضها كأنّه يذكّرهم بوجوده.

أخذت سيّارة البيك أب، أربعة عمال بينهم المحامي. قفزوا برشاقة على ظهرها والفرحة تلتهم تقاطيعهم ووجوههم، وتشعل بريق الانتصار في أعينهم، رجع الباقون بخيبة غطّى على قسماتهم المدحورة، كادت تدفع أحد العمال إلى البكاء. لكنّ شابًا نحيفًا لا يتجاوز الثّامنة عشرة غطى على رجوعه خائبًا بالتّنكيت، لامزا أباه: اثنان بأجرة واحد.

انفجر شاب آخر في عمره نفسه، يضحك بقوّة، كان أحدهما بدينًا في سمرّة فاتحة، يرتدي قميصًا رمانيًّا مثقوبًا في أعلى الكتف، أما الثّاني فرشيق طويل أقرب إلى السّواد، حافٍ لفّ رجله اليسرى بشاش اتسخ أسفله حتى بات أسود كأسفلت الشّارع. قال أحدهما بصوت عالٍ ليسمع أباه: لم لا نقول نحن كذلك: اثنان بأجرة واحد. اليوم جمعة، العمل قليل.

نظر إلى أبيه. كان رأسه إلى الأسفل، وعيناه مغمضتان. بدا بعيدًا عنه وعنهما. كأنّه في وادٍ آخر.

لم يشعر يونس بأيّ ضغينة نحوهما، لكنّه أحس بجوع شديد فتت أحشاءه. لماذا؟ ألأنّه قفز غير مرّة وصرخ كثيرًا؟ سمع يوسف غير مرّة يقول: الحركة تلهب الجوع. لو توجّه الآن إلى سوق السّيديّة القريب، سيصل بعد وقت قصير جدًا، لا أكثر من خمس دقائق في الأكثر، إذن لالتقط حبّة طماطة، باذنجانة، تفاحة مدوّدة، لا ستغفل بائع تمر وسرق منه بضع تمرات.

أمسكه يوسف من ذراعه، هزّه: تعال معي.

أصبحا خارج السّوق، بعيدًا عن المتطفلين، همس: سأعلمك كيف تسرق التّمر، والفاكهة، تستطيع أن تلهي معدتك بأيّ شيء، بضع تمرات حينما تجوع.

- كيف؟

كان بيده عصًا بطول قدمين اثنين. أخرج سكينًا صغيرة، وعندما رأى تساؤلًا ملحًّا واضحًا في عينيه وهو ينظر إلى السّكين، حدس أنّه يريد أن يعرف مصدرها.

- لا تخف. لم أسرقها. استعرتها من حليم صاحب الرّقّي.

طفق يحدّ طرف العصا، أصبحت كنبلة قوس حادّة. أخذ يسير وينظر إلى الأمام، ثم طعن شيئًا وهميًّا إلى اليمين. التفت أليه: هكذا أفعل. لا أنظر إلى التّمر أو التّين أو الفاكهة أو الخضرة. فقط أوجّه النّبلة نحو الهدف بطرف يدي، تخترقه النّبلة، ثم أخفي الصّيد سريعًا بـ-الكوشر-. هكذا أقضي على الجوع. درّبه حتى أصبح ماهرًا بسرقة حبّة طماطة، بضع تمرات، حبّة باذنجان، خيارة، حبّة قثّاء إلخ.

عربدت أشعة الشّمس بالشّارع، اشتدّ الحرّ، طفق العرق ينـزّ من جميع مسامات جسده، ومع سيادة الحرارة طفقت جلدة رأسه الملبّدة بالوسخ تحكّه، تذكّر رغبة أمّه بغسل رأسه. ضبط نفسه، كما علمته أمّه. لم يهرش رأسه، لم يستطع معظم طلاب العمل مقاومة موجة الحرّ، نظر أحد المعلمين إلى زملائه وهو يضع يده فوق عينه ليمنع أشعة الشّمس: خير ما يعبر عن حالتنا قول عبد الوهاب البياتي: انتظار الّذي يأتي ولا يأتي. مسح أحدهم جبهته السّمراء من العرق: قل خيبة انتظار الّذي يأتي ولا يأتي.

لم يفهم شيئًا، طفق الجمع يتفرّق، تمّنى أن يشعر أباه بالملل مثلهم ويرجع إلى البيت ويتركه يذهب إلى سوق الخضار القريب، فلعله يجد شيئًا ياكله.

جاء شيخان في ستيناتهما، مدّا بسطة خشبية صفّا عليها علب سيكاير متفرّقة، ثم انسحبا إلى جدار دلالة الخليج العربي، قرفصا في الظّل، غرقا في حديث لا ينتهي، بعد أقلّ من دقيقة توقّف قرب البسطة العائدة لهما

مراهق مع عربة يد مليئة بعلب زيوت محرّك سيّارات، ومحقان، ومفك صامولات، أخذ ينفض بذلة عمله المبقّعة بالدّهون من أعلاها حتى أسفلها، بينما لم يبق من طلاب العمل سوى الشّابين السّاخرين. عندئذ طلب منه أبوه أن يجلب له شربة ماء. أشار إلى بيت عبر الشّارع ذي واجهة ضخمة مكوّنة من عمودين عاليين جدّا مغلّفين بطابوق أصفر فاقع، يكونان علامة فارقة للبيت تجذب نظر من يسير في الشّارع. الدّار جديد وإلى جانبي باب السّياج المصبوغ بالأزرق كان هناك مصباحان مناران، كمد ضوءهما نور الشّمس اللاهب، قال أبوه وهو ينظر إليه باهتمام: اضغط على الجرس مرّة واحدة فقط، لا تزعج أهل البيت.

لم يكن بحاجة إلى تلك الوصيّة، كثيرًا ما لجأ إليها عند رجوعه من السّوق ليطفئ ظمأه من حرّ الصّيف اللّاهب.

فتحت باب السّياج الحديد العريض امرأة في الخمسين. بدت تلوك لقمة في فم مغلق، كانت بيضاء مشرقة التقاطيع، جميلة، شعرها كستنائي قصير، فستانها قهوائي فاتح مورد بزهور حمر وصفر، كان الممرّ المفضي إلى الباب الدّاخلي من -القرميد الملوّن- الموزائيك، نظيفا يزهو بلمعان برّاق لم ينشف ماؤه بعد. أحس بإغراء شديد كي يستلقي عليه. امتدّت على جانبي الممرّ حديقتان، إحداهما كبيرة والأخرى بعرض متر واحد تنتهي إلى سياج الجيران الأيمن. كانت الحديقتان تغفوان ببرودة منعشة تحت ظلّ وارف لأربعة أشجار تين وبرتقال ونخلتين قصيرتين مثمرتين يتهدّل منهما عثوق رطب أصفر يتلألأ في أشعة الشّمس، بينما استقرّ في نهاية الممرّ كرسيّ خيزران أصفر نظيف لامع.

كلّ شيء كان نظيفًا بارقًا جميلًا، غير أنّ المرأة كانت أجمل ما في الكون،

عيناها واسعتان كستنائيتان، وبهاء تقاطيعها بحر حنان، ابتسمت ابتسامة خفيفة. اضطرب، احتبس لسانه، بلغ ريقه فأحس بجرح حنجرته إثر صياحه القويّ المتتالي في الصّباح. حدّق بها من دون كلام، نسي شربة الماء.
قالت: تعال، اغلق الباب وراءك.
ثم اختفت وراء باب من خشب ساج نظيف يلمع بلون البرتقال، على جانبيه شباكان صغيران طويلان، ثم شبابيك عريضة، إلى اليمين والشّمال. تمنع النّظر من اختراقها ستائر خضر مخططة بأحمر ماروني جميل صافٍ.
ترى لماذا دعته للدّخول؟ لماذا اختفت في الدّاخل؟ لكنّه مطمئنّ. جاءت كلمات يوسف واضحة: حينما تصل إلى بيت الزّبون، لا تدخل البيت قطّ، إلّا إن كان الزّبون امرأة، أمّا إن كان رجلًا فلا. ملامحها ودودة، لن تؤذيه. لكن ما غايتها من دعوته للدّخول؟
جلس على قرميد أرضيّة الممرّ المربّع الملوّن النّظيف، فسرت إلى فخذيه برودة خفيف لذيذة، تمنى ثانية أن يتمدّد عليه ويغفو بعض ساعة، كان أمامه على بعد قدمين شجيرتا ورد جوري حمر وصفر. مدّ رقبته نحو الوردة القريبة إليه. تنشّق الرّائحة الطّيبة، ثم قال بصوت خافت: الله! أغمض عينيه، أحس بخدر ما قبل النّوم، تنفّس بعمق. أحس بحركة صدره تتحسّس من حبل القنّب المشدود على بطنه، مدّ يده ليرخيه، سمع صوت الباب السّاج يفتح، اعتدل، رآها قادمة، وبيدها صينيّة صغيرة، استيقظ جوعه دفعة واحدة، اتّسعت حدقتاه. ترى ماذا في الصّينية؟ انحنت، وضعت الصّينية على قرميد أرضيّة الممرّ الملوّن، خطفت نظراته بسرعة البرق رغيف خبز كامل، وصحن فيه أربعة أصابع من الجبن الأبيض، وريحان مغسول شهيّ، تنتشر عليه قطرات ماء تلمع، واستكان شاي.

أشارتْ بيدها، وهي تبتسم بعذوبة: تقدّم، كُلْ، ياللا.
اعتدلتْ، لم يصدّق عينيه، كاد يتساءل: أكلُّ هذا لي؟
لكنّه أمسك، كرّرت: هيّا، اقترب، تفضل، كُلْ.
ابتسمتْ تشجّعه، ثم التفتْ نحو الباب الدّاخليّ، ظلّ يحملق بها، حتى اختفتْ ثانية.
ساعده اختفاؤها على أخذ حريّته. سحب الصّينية الصّغيرة إليه، جعلها تلاصق -دشداشته-، كاد يضحك من الفرح. لم يدر كيف أكل، وبأيّ نهم وشغف! أيّ لذّة! لم يأكل طيلة حياته أطيب من تلك الوجبة، لفرط جوعه عضّ لسانه، كاد الألم يقتله، لكنّه لم يتوقّف عن الأكل، حتى عندما أحس باللقمة الأولى تلكُم حنجرته المجروحة من الصّياح استمرّ يأكل. وفي لحظات اكتشف أنّ نصف رغيف الخبز اختفي مع نصف الجبن. حينئذ توقّف عن الأكل. سيأخذ الباقي لأبيه. هو جائع أيضًا مثله.
وضع قطعتي الجبن وما تبقى من الرّيحان فوق الخبز، وشرع يلفّه، لكنّه رآها قادمة إليه، وبيدها كيس من -النّايلون- الشّفاف، قالت وهي تمدّ يدها: دعني أضعه لك في الكيس.
وضع الكيس الصّغير في جيبه الأيسر، ثم أغمض عينيه وهو يرشف الشّاي اللذيذ، ذي الحمرّة الزّاهية، يضع في فمه قطرات قليلة، مرّة بعد مرّة، كي يستمتع به أطول مدّة، وعندما انتهى استكان الشّاي تذكّر أباه، وعطشه.
سيفرح أبوه بالخبز والجبن، لكنه مع الأسف لن يتذوّق الشّاي، لا وجود لمثل هذا الشّاي اللذيذ لا في -صريفتهم- ولا في بغداد كلّها. تمنى لو ملك الجرأة ليطلب ولو نصف هذا الفطور كلّ مرّة يصل إلى سوق الخضار. لكن هذا مستحيل. ما حصل الآن مصادفة. ربما لن تتكرّر مرّة أخرى. لحظ أنّها

جلست على الكرسي، أخذت تدخّن. التفت إليها، ثم نظر إلى الأرض، قبل أن يغادر تجرأ، قال: هل لي بكأس ماء لأبي.

ابتسمتْ، جلبت له كأس زجاج جميل لم يرَ مثله من قبل. أخذه، وهو يقول: سأرجع الكأس بعد قليل.

هزّت رأسها بوداد. لم تقل شيئًا، مشت وراءه، ثم سمع صوت الباب ينسدّ وهو يبتعد في الطّريق. ومن رصيف الشّارع الآخر رأى أباه جالسًّا في مكانه، لم يغيّره، رأى العجوزين صاحبي بسطة السّيكاير في ظلّ حائط دلالة الخليج العربي يستندان إليه، وقربهما الشّابان اللّذان سخرا من أبيه، طفقا الآن يدخنان السّيكاير.

ما زال أبوه يجلس وحيدًا على الرّصيف تحت الشّمس، ساعداه على ركبتيه، جبهته على السّاعدين، قدماه الحافيتان على المسحاة، تساءل مع نفسه لماذا لم ينتقل إلى ظلّ الجدار كالآخرين هربًا من الشّمس؟ جلس قربه إلى اليسار، قال وهو يمدّ يده بالكأس: اشرب هذا كأس ماء نظيف.

لم يرّد عليه أبوه. كان رأسه متكئًا على ساعديه. نقل الكأس إلى يسراه، وهزّه: جئتك بماء وفطور، خذ اشرب.

لكنّ أباه بقي على حاله، لم يرفع رأسه، كأنّه لم يسمعه. هزّه قليلًا، تأرجح تحت يده، أحس أنّه يفقد تماسكه المتواجد في جسده، قال: -بُويا- خذْ اشربْ. ماء بارد صافٍ.

هزّه مرّة أخرى بقوّة أكثر. مال إليه، اصطدم بصدره. كاد ثقله يوقعه أرضًا، انسكب قسم من الماء على الأرض. ابتعد قليلًا عن أبيه، لكن جسد الأب المتكوّر انزلق عليه أكثر من ذي قبل، لولاه لسقط على الأرض. هتف بقوّة: ما بك؟

هزّه من جديد بشدّة: -بُويا- اقعد. ما بك؟
سمع الآخرون صوته العالي، تقدّم الشّابان منهما، تساءلا: ما به. أهو مريض؟ حدّق بهما، لم ينطق أيّ كلمة. اقترب أحدهما، رفع رأسه إلى الأعلى بكلتا كفّيه من ناحية الأذنين. ثم صرخ بقوّة كالملدوغ: مات.
اقترب الآخر، عاين الوجه بدقّة، ثم انفجر يبكي: مات.
هُرع العجوزان نحوهم، هتف أحدهم مضطربًا: لننقله إلى المستشفى.
ثم نظر إلى الصبي بحزن: أعندك فلوس سيّارة أجرة؟
لم يجب يونس، ظلّ ينظر إليه بضياع. قال أحد الشّابين: ليس في جيبه فلس واحد.
- سأتّصل بالإسعاف. قال أحد الشّابين ذلك، وهو يمسح دموعه، ثم ركض إلى بناية مصرف الرّافدين القريبة، على بعد نحو خمسة عشر مترًا. أخذ الثّاني يبكي، يصرخ، تجمّع النّاس حولهم، اختلط الأمر عليه، ناس تتدافع، آخرون يصرخون، فيهم من يحوقل، فيهم من أخرسته الواقعة، تجمّعوا في ظلّ موجة غضب واحتجاج وجودي عارم.
وعندما جاءت سيّارة الإسعاف، أصرّ الشّابان على مرافقة الصبي وأباه، وعيناهما تدمعان.
كانت يد الطّبيب ما تزال جاثمة على كتف الصبي بحنوٍّ، سماعته الطّبية المعلقة على صدره تتأرجح بين الصّدرية البيضاء النّظيفة وبين صدر الصبي، انتزعه صوت الطّبيب من ذكرياته، همس بعطف: أنظر إليّ، لا تضيّع الوقت، الدّنيا حارة، لا بدّ من دفنه اليوم.
غامت عينا الصبي، ترى ما علاقة الحرّ بالدّفن؟ لم يدرِ ماذا عليه أن يفعل. فجأة انفجر باكيًا وبصوت عالٍ أحد الشّابين السّاخرين، هو نفسه بكى في

الصّباح لما علم بوفاة الأب. والآن بعد موت أبيه وانتهاء الفحص الرّوتيني، واستمرار الطّبيب يحثّه من جديد على نقل أبيه لدفنه في هذا الحرّ الشّديد، بدأ النّاس يتجمّعون حولهما كما في الصّباح، مسحاة والده بيده، الشّاب يبكي بصوت عالٍ، الكلّ حزين، البعض يذرف الدّمع، إلا هو وحده ينظر بعينيه الواسعتين الصّفراوين إلى كلّ ذلك معقود اللسان لا يستطيع أن ينبس بحرف واحد، لا يعرف ماذا يقول! ماذا يفعل! كان يريد أن يسألهم كيف يبدأ خطوته الأولى؟ ولكن ما هي الخطوة الأولى قبل كل شيء؟

****

اليشماغ: الكوفية المرقطة.

الصّريفة: بيت من قصب

جرداغ :مستودع

الكوشر: زنبيل كبير

الرّقية: بطيخة حمراء

بُويا: أبي

* * *

الحب والمظاهرة

طُرق الباب، وعندما خرجت. قال لي فجأة وهو يمدّ ذراعية على طولهما: أنا أسعد النّاس منذ هذا اليوم. حققت معها أكبر نصر في حياتي. سنذهب إلى السّينما.

ذلك يعني أنه يدعوني. وعندما قال معها يقصد عنبر التّي جننته، وجعلته يهيم كالمجنون، وينال الضّرب واللكمات، ويغيـّر لأجلها اسمه. أما معنى النّصر فيعني أنه نال شيئًا عظيمًا سيبوح لي به اليوم، وعليّ أن لا أعجل، فخير طريقة مع عبد الوهاب تركه يسترسل على هواه، ويفضي بما في داخله.

ثم التّفت إليّ وهو في غاية الفرح ونحن نتجه شرقًا إلى السّرجخانة حيث دكان أبيه: سأمرّ على أبي لآخذ منه ما يكفي للفلم والعشاء. ما رأيك؟

- لا مانع عندي. لكني لا أستطيع التّأخُر أكثر من الثّامنة مساءً.

- سنرجع قبل ذلك الوقت.

ثم أخرج من جيبه ستين فلسًا قال: هاك. ضعها في جيبك.

-لماذا؟

سيفتشني أبي. أعطاني صباحًا مئة فلس. سيسألني كم بقي معك؟

كان لازم وحيد أبويه. لا أخ ولا أخت. كنت أتحاشى التّدخل في شؤون أصدقائي الشّخصية، لكني كنت أعرف أن أباه لا يردّ له طلبًا قط. ضحكت: أنت محظوظ. ابتسم بزهوٍ. كان يعرف أن يوميّتي عشرين فلسًا فقط.

وضعت الفلوس في جيبي.

وصف عبد الوهاب أجواء الطّريق الذي يقود إلى حيث التقاها. كنت

متشوّقًا لأسمع ماذا قالتّ له. لكنّه مهّد لذلك بوصف السّماء الصّافية، النّسيم العذب. العصافير وزقزقتها. كان حديثه شيّقًا رائعًا، لكنّنا وفي أوّل خطوة من باب لكش حيث يبدأ سوق القصابين الجديد سمعنا هتافات المتظاهرين تشق عنان السّماء أمام مركز الشّرطة العام في باب الطّوب. شاهدنا كتلًا بشريّة لا حصر لها متجمّعة هناك أمامنا على بعد بضع مئات من الأمتار، معظم المحلّات أغلقت أبوابها في الشّارع. توقّفت الحركة، لا عربة خيل، لا سيّارة. بشر فقط يهتفون: يسقط عبد الإله. يسقط نوري السّعيد. تسقط بريطانيا. أوقفوا تدمير حياة الطّلاب. لا حياة من دون تأميم النّفط.

كانت تلك أضخم مظاهرة أراها في حياتي حتى ذلك الوقت، فقد شاركتُ بمظاهرة أخرى صغيرة قبل سنتين وأنا لا أدري لماذا شاركت وكيف! كان عمري آنذاك ثلاث عشرة سنة، وخرجنا من المدرسة ونحن نردد تسقط معاهدة بورت سماوث. ١ يسقط نوري السّعيد، ومعظمنا لا يعرف شيئًا عن المعاهدة، لكنّا كنا نعرف من هو نوري السّعيد، إذ يتناقل الكبار الكثير عن تبعيّته لبريطانيا العظمى. ولم نبتعد سوى مئة متر باتجاه مركز الشّرطة العام حتى رأينا الشّرطة تحيط بنا من كل جانب، وتبدأ بضرب الكبار منا، فمنهم من ولى الأدبار، ومنهم من سِيق بالقوة نحو المدرسة. وعندما رجعنا أبقانا المدير المتجهّم السّاخط علينا وعلى تصرفنا الطّائش. فأهاننا، وهددنا، وضرب بخيزرانته القوية القصيرة ثلاثة طلاب، أدماهم في رؤوسهم. لكنّه اكتفى بشي أيدينا نحن الطّلاب الصّغار أمثالي بضربة خيزرانة قوية

١معاهدة مذلّة فرضتها بريطانيا على العراق.

على راحة يدينا كليهما، فجعلنا نقفز ألمًا، وتدمع أعيننا. وساعده بالضّرب غير واحد من المدرّسين. وعندما دخلنا غرفة الدّرس أوقفنا مدرّس اللغة العربية يعقوب يوسف حنا، وأهاننا مرّة ثانية. وكرّر ضرب كلّ واحد منا بضع ضربات على الراحتين كليهما. وسجل أسماءنا في دفتر صغير أخرجه من جيب سترته القهوائيّة المقحلة. فحزن زميلي بول نيسان المسيحي لذلك حزنًا شديدًا، وعندما سألته عن السّبب قال: إنّ ذلك سيقضي على مستقبله. فسيسلِّم الأستاذ يعقوب يوسف حنا الأسماء إلى شركة النّفط، كي توضع في القائمة السّوداء.

-وليضعوها في القائمة السّوداء! ثم ماذا؟

-أنت لا تعرف مستقبلك قطّ. شركة النّفط تدفع راتبًا للموظف يعادل خمسة أضعاف ما تدفعه الحكومة. يعني أن أيًّا منا لا يستطيع أن يصبح موظفًا في شركة النّفط في العراق بعد الآن.

هتفت به: كيف تعلم ذلك؟

-أراه كل أسبوع يجتمع مع المستر ww doll مسؤول التّوظيف في شركة نفط عين زالة، بعد قداس الأحد.

-ربما صديقه.

-نعم صديقه. لكنّه جنّده للتجسّس. يعرف الكثير ممن يحضرون القداس أنه ينقل الأخبار لصالح الشّركة. لكنّهم يتودّدون له لتعيين أولادهم فيها، لأنّها تدفع راتبًا هائلًا.

لم أهتم لذلك فقد كان التّفكير في العمل بعد التّخرج أبعد من أن يشغل عقلي الصّغير آنذاك.

معظم المتظاهرين رجال، شباب، أكبر منا، لكنّي رأيت من هم في سنّنا ولا يتجاوزون الخامسة عشرة. كان علينا أن نشقّ الجمع الهائل لنذهب إلى

محل والد عبد الوهاب في السّرجخانة. اقترحت عليه طريقًا بديلًا لا يمّر في تجمع المظاهرة الكبير المتزاحم، فمن الصّعب اختراق ذلك الحشد الهائل. لكنّه أصرّ على أن نمرّ من طرف المظاهرة: ماذا عندنا. لنسمع ما يقوله هؤلاء العجايا. هناك متّسع من الوقت. في الأقل نسمع الهتافات.
أزعجني نعته -عجايا- للمتظاهرين، تساءلت متضايقًا: لماذا عجايا؟ يريدون التّغيير.
فردّ بنبرة تحدّ: أيقدرون على الحكومة؟
- لا. لكنهم يعلنون رأيهم.
- إذًا شاركهم.
-لا أعرف معنى الكثير من الشّعارات التّي يطلقونها وإلا شاركتهم.
كان مفهومًا لديّ ما معنى - يسقط عبد الإله. يسقط نوري السّعيد. تسقط بريطانيا. - لكنّي لا أعرف معنى: -أوقفوا تدمير حياة الطّلاب١-. - أما شعار تأميم النّفط فهو غير عمليّ جدًا، وبخاصة بعدما تناقلت الأخبار ما حلّ بمصدّق. وكيف اشتعلت إيران فوضىّ ومذابحًا، وكيف اختلط فيها الحابل بالنّابل، بالرّغم من أنّ الكبار في السّوق يتداولون مقولة صديق شنشل كحقيقة ثابتة: لو يؤمّم النّفط العراقي فسيصيب كلّ فرد منه دينار كامل في الشّهر. كان رفع الشّعار بالنّسبة لي مفاجأة لم أتوقّعها. هذا يعني أن هناك الكثير من الأمور السّياسية يجب عليّ أن أطلع عليها. كل هذا والهتافات تترى بقوّة وعنف وتهزّ الكون: يسقط نور السّعيد، تسقط الوزارة العميلة. تسقط يا تسقط، يا تسقط.

علمت فيما بعد ان كلّيتي الطّب والصّيدلية اتخذتا قرارًا بفصل من - يرسب سنة واحدة فقط.١-

----

ثم سمعنا مكبّر صوت مدوٍ ينبعث من مركز الشّرطة العام. مكبّر قويّ يستطيع أن يوصل الصّوت إلى نحو كيلو متر أو أكثر: رجاءً أخوان. كفى تظاهرًا، هذه فوضى. رجاء انفضّوا، اذهبوا إلى بيوتكم، توقّفوا عن التّظاهر. قطعتم الشّوارع، دعوا النّاس البسيطين يذهبون إلى بيوتهم ليرتاحوا، وليروا أطفالهم.

لكنّ المتظاهرين لم يأبهوا للنّداء. بل اشتد سعار الهتافات. وأخذ بعض المتظاهرين يردّ على رجاء مكبّر الصّوت المدوي بـ-العفط- والسّب المقذع: يا ابن القحبة. يا ابن الحرام. يا ابن قحبة نوري السّعيد. يا ديوث. بينما كان الآخرون يضحكون.

بعد قليل عاد مكبّر الصّوت المدوّي: يا إخوان رجاءً رجاءً رجاءً اسمعوا لصوت العقل. تفرّقوا.

- طيط. . طيط. نوري السّعيد طيط. يسقط نوري السّعيد. طيط.

ولست أدري كيف استطاع أحدهم أن يأتي بمزمار، وأخذ ينفخ ليخرج كلمة: طيط بشكل موسيقيّ. فأخذ قسم من المتظاهرين يقول: نوري السّعيد ويجيبهم صاحب المزمار بـ طيط. يسقط الوصي. طيط. تسقط بريطانيا. طيط. ثم يشتعل الهتاف والزّمر والطّيط، والمرح.

طفق عبد الوهاب يضحك من كلّ قلبه. ربما ساعد النّصر الذي حصل عليه اليوم مع عنبر هذا اليوم على انطلاق مرحه. قال لي: دعنا نغنّي.

-لا نضيع الوقت. لنذهب إلى أبيك. ولنغنِ في طريق الرّجعة.

-لا. سأغنّي الآن.

-ماذا نغنّي؟

-أخذ يقلِّد عبد الوهاب: عندما يأتي المساء ويسقط حبيبي نوري السّعيد.

طيط

-عندما يأتي المساء ويسقط حبيبي الوصي. . طيط. .

-عندما يأتي المساء وتسقط بريطانيا العظمى. . طيط.

ولست أدري كيف سمعه بضعة أشخاص كانوا قربنا فاندفع أحدهم وذهب إلى قلب المظاهرة، ثم جاء ومعه عملاق أشقر مفتول العضلات في الثّلاثين من عمره، هتف به بصوت جهوري: كيف يا رفيقي لم نجدك قبل الآن؟

ثم هجم عليه وحمله على كتفه وابتعد عني، فأصبح عبد الوهاب مرئيًا من قبل عشرات آلاف المشتركين في المظاهرة جميعهم. توقّف العملاق على بعد بضعة أمتار من بوابة مركز الشّرطة العام. بعد ذلك، هتف العملاق بصوته الجهوري: سماع. سماع رجاءً.

صمت الجميع. ثم تكلّم مع عبد الوهاب بضع كلمات لم أسمعها لأني كنت بعيدًا. فأخذ عبد الوهاب يغني بصوته الجميل: عندما يأتي المساء ويسقط حبيبي نوري السّعيد. فأكمل العملاق: يحتفل الشّعب بالنّصر.

أعاد عبد الوهاب: يحتفل الشّعب بالنّصر.

فصفق الحاضرون، ورد صاحب المزمار بمقطع موسيقي يشبه مئة بالمئة طيط.

ثم تعالتّ ردة المئات: طيط.

عندما يأتي المساء ويسقط حبيبي نوري السّعيد.

طيط.

عندما يأتي المساء وتسقط بريطانيا العظمى.

طيط.

أصبحت المظاهرة باكتشاف مواهب عبد الوهاب الغنائيّة الفنيّة ثوريّة

مسليّة ومثيرة، ولربما أصبح عبد الوهاب من دون إرادته، ومن حيث لا يدري أول قائد فنيّ لمظاهرة سياسيّة ممتعة في التّاريخ. لكن مكبّر الصّوت قطع علينا متعتنا: يا إخوان. يا إخوان. سأُنذركم إن لم تتفرّقوا. سنرميكم بالرّصاص. سنعدّ حتى العاشرة. إن لم تتفرّقوا في الرّقم العاشر فسنرميكم بالرّصاص الحيّ. ولقد أعذر من أنذر. لذا أنصحكم بالتّفرّق. رجاء تفرّقوا. رجاءً. لكن ردّ المتظاهرين لم يكن غير: طيط. حبيبي نوري السّعيد طيط.

واحد. طيط.

اثنان. طيط.

ثلاثة. طيط. ....

عشرة طيط.

تفرقوا. طيط.

سنرمي. طيط.

ثم تفجر فجأة في الجو صوت الرّصاص المدّوي. كان أول من سقط وهو يغني عبد الوهاب. أين أصابته الرّصاصة؟ لا أدري. كان ظهره إلي. لكني رأيته يسقط من على كتف العملاق، والعملاق ينحني ويسقط معه. هل قتل أيضًا؟ لا أدري.

ثم احترقت السّاحة بالرّصاص والفوضى والدّم والتّدافع والصّراخ والاستغاثة والسّب والتّوجع. الرّصاص يتفرقع. الأجساد تتساقط. ركض، تدافع، وطء على الأجساد. صراخ. بكاء.

تخاذلت رجلاي والسّاحة تخلو من أمامي، والرّصاص ينهمر لا على التّمييز. وأصواته الرّهيبة تمزق هدوء الكون. ولو بقيت في مكاني لقتلتُ مع عبد الوهاب بالتّأكيد. لكن رجلًا أسمر يبدو من ملابسه الأنيقة، وربطة عنقه

الحمراء أنه مُتعلِّم، كان في نحو الأربعين من عمره، يجري بكل ما تسمح له قواه في الاتجاه الذي أقف فيه مذهولًا مصدومًا لا أعرف كيف أتصرف وأنا أفكّر في عبد الوهاب الذي أسكتته رصاصة قاتلة. مرّ من جانبي. وهوى بكفه على كتفي وبقوة أفقدتني تماسكي، كدت أسقط، أمسك بي من سترتي وسحبني معه وهو يقول: اركض معي. أشدُهتَ؟ أتريد أن تموت؟
فجأة عاد إليّ رشدي. وأخذت أركض وراءه حتى أخفتنا العطفة الضّيقة المجاورة. ثم توقف وهو يلهث ووجهه مصفرٌ كالكركم، قال: اركض بقدر ما تستطيع، فستنتشر الشّرطة وتقبض على كلّ من تجده حتى لو كان فأرًا. إن أمسكوا بك أنهوا مستقبلك. سيعذبونك، سيطلبون منك أن تعترف على من معك أو تموت: اركض.
-ركض، وركضت.
نجوت. لكن صورة عبد الوهاب لم تفارق عيني. أيمكن أن ينتهي هكذا في أحب يوم لديه؟
-أنا أسعد النّاس منذ هذا اليوم. حققت معها أكبر نصر في حياتي. سنذهب إلى السّينما. -
ترى أمات؟ لم أستطع التّفكير في ذلك. أخذت أخادع نفسي. ربما هو جريح. سيشفى. سيتزوج عنبر. سيحقق كل أحلامه. لكن ماذا عليّ أن أفعل؟ هل يجب عليّ أن أخبر أهله بما حدث؟ لم أدرِ. لم أستطع أن أجد حلًّا. لا أستطيع أن أكون ناقل خبر سيئ قط.
وصلت باب لكش، منطقة أمينة. بعيدة عن مسرح الأحداث. النّاس متجمعون، ثلاث ثلاث، أربع أربع، خمس خمس. مذهولون. مصدومون. يلعنون نوري السّعيد. الوصي عبد الإله. صالح جبر. العمري. لكني لم

أستطع أن أصل إلى البيت.
رأيت صبيًا حافيًا أصغر مني بنحو سنتين، يرتدي جلبابًا من الخام الأسمر البالي، ويشدّ حبلًا من القنب الأصفر في وسطه. يركب على حمار صغير أحمر، ويقود حمارًا مماثلًا آخر، فلحقت به وسألته إن كان سيذهب إلى باب الطّوب، فهزّ رأسه بالإيجاب. قلت له: إن أعطيتك عشر فلوس هل تسمح لي بالرّكوب على الحمار الآخر إلى هناك؟
ضحك فجأة: هيا.
أوقف الحمار، وحالما امتطيته وكزه بعصاه فانطلق تحتي. فغمرتني رائحة البصل والخضار، وبدا أن الصّبي ينقل الخضار من المزارع إلى الدّكاكين.
تلك كانت أفضل وسيلة استطاع رأسي الصّغير أن يصل إليها. فالشّرطة لا يمكن أن تعتقل شخصًا لم يشترك في المظاهرة. وإلا ما ركب حمارًا لإيصال الخضرة. كنت أريد أن أرى عبد الوهاب ولو من بعيد، وأعرف ما حلّ به.
التّفت الصّبي إليّ وهو يسأل: أيعجبك ركب الحمار؟
لم أجبه. هززت رأسي فقط. كان الهم قد ألجمّ لساني، وفي بداية سوق قصابي باب لكش، سمعت من يناديني بقوة. التّفت رأيت حازم واقفًا في باب محل النّجارة، تحت الرّقعة الجميلة التّي خطتطها. كان يضحك وهو يشير عليّ أن أذهب إليه. اغتصبت ابتسامة. أشرت له بحركة من يدي: أن يصبر قليلًا، سأرجع. ولما كان معظم النّاس قد توقفوا عن العمل. فقد وقفوا أمام أبواب دكاكينهم والتّعاسة والألم يمزقان سحناتهم على الضّحايا الذين سقطوا برصاص الشّرطة. كان الشّارع أمام مركز الشّرطة خاليًا، ووقف عشرات الشّرطة مدججين بالبنادق الإنكليزية الطّويلة وقد ثبتوا برؤوسها الحراب لتبدو أطول من معظمهم. كانوا يقفون متباعدين،

بين الواحد والآخر بضعة أمتار. وحينما رأوا الحمارين يتجهان نحوهم، استدار أحد عرفاء الشّرطة وكان أدكن البشرة، صرخ ونحن على بعد نحو ثلاثة أمتار: قفوا. أين تتصورون أنفسكم ذاهبين. ممنوع من هنا. ارجعوا. الطّريق مسدود.

لكن الصّبي لم يستطع إيقاف الحمار إلا على بعد متر من الشّرطي، ترجل وترجلت. وحدقت. بالشّارع. كانت هناك بضع سيارات إسعاف. أما إسفلت الشّارع فكان خاليًا من أي جثة.

تأكدت أن عبد الوهاب في واحدة من سيارات الإسعاف تلك، ولما كنا نسير ونحن نحمل معنا دائمًا هوية الطّلاب فسيعرفون من تفتيش جيوب الضّحايا من هو وسينقلون الخبر إلى أهله.

قال لي الصّبي: سأرجع وأذهب من طريق آخر إلى الجسر الحديدي. أتأتي معي؟

-شكرا. هذا كافٍ.

بقي عبد الوهاب في أعماقي مدة طويلة كأي عزيز تنتهي حياته بمأساة، وقاومت ذكراه الطّيبة عفن النّسيان بقوة، لم أستطع نسيان ما طلبه مني مرّة حتى الآن. طلب مني ما رأيته آنذاك مستحيلًا؟ لا أدري متى كان ذلك! ربما في حزيران أو تموز من السّنة الماضية. قال لي وهو يركز عينيه في عيني: أتأتي معي إلى مديرية النّفوس لتغيير اسمي؟

نزل عليّ النّبأ نزول الصّاعقة. جمدت في مكاني.

كنا نجحنا في الصّف الثّاني المتوسط، أي أن أعمارنا لم تكن تتجاوز الأربع عشرة. ولم يدر بخلدي قط أن يحاول امرؤ تغيير اسمه لأي سبب كان.

جمدت في مكاني، حدقت في عينيه: لماذا؟

-يعجبني.
ابتسمت: إلى ماذا؟
-عبد الوهاب؟ أعندك اعتراض؟
فوجئت. ضحكت. صحيح أنه يحب عبد الوهاب، وأنه يجيد تقليده إجادة تامة، لكنه لم يشر إلى ذلك من قبل. لا بل لم يلمح إليه.
ضحكتُ: لا.
-لماذا تضحك إذًا.
- فاجأتني.
كان الزّمن آنئذ زمنًا تنافسيًا. وعندما فكرت في الدّافع لم أجد أي تفسير غير حسم التّنافس لصالح جهة ما. ففي كل حقل من حقول الفن يتربع على قمته اثنان متنافسان، في حقل الشّعر العراقي كان أعظم شاعرين: الرّصافي والزّهاوي. وفي الشّعر المصري أحمد شوقي وحافظ إبراهيم. وفي الغناء المصري كان هناك عبد الوهاب وفريد الأطرش، ومن النّساء أم كلثوم وأسمهان، وفي الغناء العراقي: الكنبنجي وناظم الغزالي. وفي النّساء زكية جورج وسليمة مراد، وفي الرّقص تحية كاريوكا وسامية جمال. وفي التّمثيل العربي عماد حمدي ومحسن سرحان، وفي الأحزاب السّياسية الحزب الوطني الدّيمقراطي، وحزب الاستقلال. وفي الرّموز السّياسية المؤيدة للملكية نوري السّعيد وصالح جبر الخ. وربما كان النّاس في مدينتي مفطورون على الخلاف. فكنت ترى النّقاش دائمًا وأبدًا محتدمًا بين مؤيدي أحد هؤلاء على الآخر. ابن خالتّي عبد السّتار يحب عبد الوهاب، وصديقي غانم يحب فريد الأطرش. صديقي لازم يحب عبد الوهاب وصديقنا مال الله ابن العربنجي يحب فريد الأطرش، وعندما كانا يلتقيان كان النّقاش يحتدم بينهما كل مرّة

حتى يكادا يتعاركان.
ظننت أن لازم أراد تغيير اسمه إلى عبد الوهاب ليثبت عمليًا ترجيح كفة عبد الوهاب، وليلقي ثقلًا على تفضيله، وربما ليكون هو الوحيد الذي يغير اسمه في المدينة بينما لا يوجد من محبي فريد الأطرش من يتنازل عن اسمه ليرجح كفته، لكني كنت مخطئًا فقد كانت القضية أعمق بكثير من ذلك. اعترف لي أن السّبب في التّغيير أنه وقع في حب فتاة جميلة، وأنه طفق يعترض طريقها من لحظة خروجها من البيت وحتى المدرسة، لكنه لا يعاكسها. ولا يلقي بأي كلمة في طريقها. كانت تهمله. تعامله كأنه غير موجود. وبعد بضعة أشهر من التّتبع المضني رمت وهي تسير ورقة مطوية. التّقط الورقة وهو أسعد شخص في الوجود. أخذ يرقص، كان يظن أن في الورقة اعترافًا بحبه، أو كلمة غزل. لكنه وجد فيها هذا السّؤال فقط:
ما اسمك؟
فاتبع الطّريقة نفسها، لكنه خجل أن يذكر أن اسمه لازم. كتب في ورقة رماها أمامها: اسمي عبد الوهاب. وأنت ما اسمك؟
لم تذكر اسمها، قالتّ له في ورقتها الطّائرة في المرة التّالية، إنها فرحت لأن اسمه عبد الوهاب فهي من المعجبين بعبد الوهاب وتفضله على فريد الأطرش كثيرًا.
جاءني فرحًا قال لي: سأغني لها أغاني عبد الوهاب. وظل يمني النّفس بوصول رسالة أخرى، ولم يطل انتظاره فقد علم من الورقة الثّانية التّي رمتها أمامه والتّي طلبت منه ألا يخبر أحدًا بها أن اسمها عنبر.
طوى الورقة وهو يكاد يجن من الفرحة. وجدته ينتظرني بعد الدّوام. أمسك يدي سحبني، قال بفرح: إني أطير. .

- دعني أطير معك.
-أغمض عينيك.
أغمضتهما.
-افتحهما.
فتحتهما، كان أمام عيني ورقة فيها كلمة واحدة: عنبر. بحبر أزرق. وحروف صغيرة، وفهمت أنه اسمها، الاسم جميل جدًا وأسمع به أول مرّة في حياتي كاسم لأنثى، وفاجأني كما حدث لي عندما سمعت اسم سَلَم أول مرة.
قهقه من كل قلبه: هيا. أنت مدعوٌّ إلى فيلم.
- ما زال هناك وقت.
ينتهي الدّوام السّاعة الرّابعة بعد الظهر، ووقت عرض الفلم السّاعة السّادسة والنّصف. جاء معي، وضعت كتبي في البيت ثم ذهب بي إلى حديقة الشّهداء. كان يتمتع بصوت جميل يتيح له تقليد عبد الوهاب بشكل دقيق، وكان يفضل بضعة أغانٍ على غيرها منها الأغنية الرّائعة: عندما يأتي المساء ونجوم الليل تنثر، ثم الجندول، فقصيدة عزيز صدقي الرّقيقة الحزينة:
يا منيةَ النّفس ما نفسي بناجية وقد عصفتِ بها نأيًا وأحزانا.
ثم سجى الليل. ولما أذيعت أغنية جبل التّوباذ حفظها لازم في يوم واحد وأخذ يغنيها لي ونحن راجعان من مدرستنا البعيدة إلى بيتينا. وفي حديقة الشّهداء القريبة إلى السّينما طفق يشنّف أذنيّ ببضع أغانٍ لعبد الوهاب. بعد ذلك ذهبنا إلى سينما الملك فيصل الثّاني في شارع حلب، وكانت تعرض فيلمًا بعنوان لم أعد طفلًا لكريكوري بيك. كانت الأفلام الأمريكية آنذاك مذهلة بإخراجها وبتلوينها الرّائع -تكنيك كلر-

طفق لازم يهرب من المدرسة في فرصة الدّرس الرّابع، ليضع الرّسائل في طريق عنبر. لأن دوام مدرسة عنبر ينتهي قبل مدرستنا بعشر دقائق. ولست أدري كيف استطاع أن يقنع الفراش المراقب بالسّماح له بالخروج قبل حصة كاملة. لكني علمتُ بعدئذ أنه كان يعطي الفراش خلسة في كل فرصة سيجارة. بالرّغم من أنه لم يكن يدخن. كان يشتري السّجاير للفراش. ثم حدثت الكارثة فجأة. نقل الفراش. وجاء آخر، طويل، عملاق، قوي البنية، مفتول العضلات والشّارب، مكفهر الملامح. حاول عبد الوهاب استمالتّه. قدم له سيجارة. تناول الفراش السّجارة، وفركها بأصابعه فتناثر تبغها، ثم رمى ما تبقى منها على الأرض ووطأها بقوة، بعد ذاك حدّق بعبد الوهاب وبتركيز وهو يكزّ على أسنانه: إن حاولت رشوتي مرّة أخرى بسيجارة فسأورثها وأدخلها في عينك اليسرى وأجعلك أعور كنفرتيتي١ ثم أرفعك بيد واحدة وأرميك أمام المدير.

ثم بصق بصرخة قوية رجّت وجه لازم: انقلع.

بعد رفض الفراش العملاق للرشوة نقَلَ لازم نفسه إلى متوسطة مسائية. فأصبح لديه متسع من الوقت لاعتراض عنبر.

ولست أدري كيف جعل الفراش تلك الحسناء الرّائعة نفرتيتي عوراء؟ وفي العين اليسرى بالتّحديد! وبالرّغم من أنني رأيت نسخة من تمثالها الجميل في متحف برلين بعد أربعين سنة كاملة «١٩٩١» ورأيته نسخة ثانية منه في المتحف المصري سنة ١٩٩٦عندما ذهبت لتسلم جائزة نادي القصة، إلا أنني كنت أنسى أن أدقق في عينيها لأكتشف عوارها كما ادعى الفراش أم !لا، وهل كان اعورارها في عينها اليسرى بالذات

ثم تطور الحب بين لازم وعنبر بتطور الرّسائل. وحينما انتهت السّنة وظهرت نتائج امتحانات المتوسطة أخبرته بمشاريعها للمستقبل، قالتّ له إنها نجحت في امتحان الدّراسة المتوسطة، وستقدم أوراقها للانتساب إلى دورة مدتها سنتين تؤهل المتقدمين إليها ليكونوا موظفين في البنوك. وإن كان جادًا فليوطن نفسه لخطبتها بعد انتهاء الدّورة. كاد يجن ثانية من الفرح، وبدأ يعدّ العدة لتغيير اسمه رسميًّا، فمن المستحيل أن تكتشف عنبر أن اسمه لازم وقد ادّعى أنه عبد الوهاب: سأظهر في نظرها كذابًا. لا يمكن أن تحترم المرأة رجلًا كذابًا.

رافقته إلى دائرة الأحوال الشّخصية، وكانت تسمى حينئذ -دار النّفوس- وأنا غير مقتنع تمامًا بالقضية. أنظر أنا إلى الأسماء كلها بحيادية.

كان أمامنا نحو عشرين مراجعًا، وحينما وصلنا الدّور وجدنا موظفًا في نحو الأربعين من عمره، تتكدس على منضدته القديمة مئات المعاملات، والأوراق، ونسخ الكاربون الأسود، والمحابر، والدّنابيس، (ما أزال أتذكر ذلك الموظف إلى حدّ الآن. كان يضع قلم -قوبيا- على أذنه، وبيده قلم ثانٍ، وأصابعه ملطخة بحبر القوبيا. وعندما كان يكتبُ أي وثيقة أو معاملة كان يضع الكاربون تحتها ليستخرج نسخة أخرى من الكتابة. لغرض الحفظ في سجلات إضافية. كان الجو في الغرفة والممر حارًا جدًا، والنّاس يتصببون عرقًا. وكانت هناك مروحة سقفية مزعجة الصّوت فوق رأس الموظف. تدور من غير فائدة، فالهواء الذي تدفعه ساخن جدًا وجاف وغير منعش إطلاقًا. وبعد أكثر من ساعة وصلنا الدّور. فرفع الموظف عينيه المتعبتين إلى عيني لازم مستفسرًا. من دون أن يتكلم، فقال له لازم: أريد تبديل اسمي.

رد الموظف: لازم -تبدلو-؟

-نعم لازم.
-ما اسمك الحالي؟
-لازم.
رمى الموظف قلم القوبيا، وحدّق بلازم، وبدا عليه الضّيق، ربما من تأثير الجو السّاخن الذي لا يحتمل: يا ابني، يا ابني. ما اسمك الحالي؟
-لازم.
زفر الموظف وهو يحاول تهدئة نفسه: لا حول ولا قوة إلا بالله. -لازم- تقول لي ما اسمك؟
فتدخلت أنا: يا -عمّا- اسمه لازم، وهو يريد تغييره.
بُهت الرّجل، جمد لحظة، ظهر على تقاطيعه المرهقة بشدة، أنه بدأ يفكّر في الأمر، ثم ابتسم بعد ثوانٍ، فأدركت أنّه فهم الموضوع: لماذا تريد تغييره؟
-لا يعجبني.
ضحك الموظف، وضحك الواقفون وراءنا كلهم. تمنيت لخجلي أن تبتلعني الأرض.
قال الموظف وهو ما زال يبتسم، ربما رأى الوضع مسلّيًا: ليس هذا بسبب. كثير من النّاس لا تعجبهم أسماؤهم.
توقف لحظة وقد ابتهجت أساريره: يا لازم تغيير الاسم ليس بلازم.
ضحك بعض الواقفين من تركيب العبارة. احتدّ لازم وهو يؤكد على كلمته: لازم.
بدأ الضّحك من جديد: يا ابني -ماكو- لازم؟
أصرّ لازم بشجاعة: نعم أكو لازم، لازم أغيره.
كان لازم أسمر البشرة، ولشدة انفعاله فقد تدفقت الدّماء إلى وجنتيه

فأصبح وجهه بلون الشّوندر الجاف، وضاقت عيناه من الاحتدام، فرّق له الموظف: حسنًا تغيره إلى ماذا؟

- إلى محمد عبد الوهاب.

ضجّ المراجعون من خلفنا ضاحكين وبصخب. أخذ أحدهم يغني: ما قال لي وقلت له.

فرد عليه الثّاني: يا فهيم هذه ليست أغنية عبد الوهاب. إنها أغنية فريد الأطرش.

طفق ثالثٌ يغني: يا وردة الحب الصّافي.

علّق أكثر من واحد: نعم. هذه أغنية عبد الوهاب. ارتفع الهرج، علا غير صوت بغير أغنية لعبد الوهاب. كثرت التّعليقات. الضّحكات.

صرخ الموظف بحدة وهو ينظر إليهم وقد بلغ الغضب به منتهاه: رجاء كفى، قليل من الخجل. هذه دائرة حكومية. دعونا نعمل. .

صمت الجميع، التّفت الموظف إلينا: -لست أدري أيسمح القانون تسجيل اسم من ثلاث كلمات أم لا! ينصُ القانون على كلمتين كحد أعلى.

ما الفرق بين كلمتين أو ثلاث؟

سأل لازم ذلك باقتناع.

-قضية قانونية، ليست قضية منطق. عليّ أن أتأكد.

-متى تتأكد؟

كان الطّابور وراءنا يزداد، وتزداد معه التّعليقات، وعلقّ أحدهم من وراءنا: الموضوع سخيف، ولا يحتاج لإضاعة وقت الموظفين والمراجعين.

أيّده الكثير من الواقفين في الدّور.

نهض الموظف من فوق كرسيه الخيزران المخروقة، وذهب إلى صدر الغرفة،

وأخرج كتابًا. فتحه على ورقة معينة، وأخذ يقرأ لبضع ثوانٍ، ثم جاء بعدئذ.
حدّق بلازم وهو يهزّ رأسه: لا أظن.
-أيوجد في القانون ما يمنع ذلك؟
-ليس عندي وقت كافٍ لقراءته كله. لكن من المؤكد أنه لا مانع من تسجيل اسم من كلمتين فقط.
ضغطت على ساعد لازم ليقبل، فوافق: -مليح-. -عبد الوهاب- فقط.
ابتسم الموظف وهو يتنفّس بارتياح: الآن نعم. لكن تقديم الاسم لا يتم هنا. عليك أن تذهب إلى المحكمة، وتستصحب معك موافقة مكتوبة من والدّك على التّغيير، فأنت ما زلت تحت سن البلوغ.
فقهقه الجميع من وراءنا شامتين بنا، وانسحبنا وأنا أكاد أموت من الخجل.
لكن لازم هتف وهو ينظر إليّ: كيف يعلم أنني دون سن البلوغ؟ أستطيع أن أتزوج عشر نساء.
ثم طلب مني أن أرافقه إلى المحكمة، فرفضت، قلت له: كفى أن يضحك علينا بعض النّاس لا كلهم. لكني غيرت رأيي بعدئذ. فذهبت معه إلى -حلال مشاكل العائلة- ابن عم أمي المحامي جلال القبطان. كنت أعرف مكتبه في الدّواسة، وعندما دخلنا غرفته كان في إغفاءة القيلولة وقد وضع ساقيه على منضدة المكتب فوق الملفات وأوراق الدّعاوى. كان يتصبب عرقًا تحت المروحة السّقفية. قربه صينية صغيرة فيها بقايا بصل وكرافس وسماق، وصحن أكبر قليلًا من صحن الشّاي، فعلمت أنه تغدى كباب.
فتح عينيه حالما دخلنا بينما بقيت رجلاه على المنضدة: خير.
أخبرته بمشكلة لازم. وقلت له إن أباه لا يمانع في تغيير اسمه لكنه لا يستطيع أن يأتي إلى المحكمة لأنه مريض.

قال وهو يدعك وجهه طاردًا للنعاس: عليه أن يجلب استمارة معينة من المحكمة، ويوقع الأب فيها، تحت بند يقول أنه لا مانع لديه من تغيير اسم ابنه، وأنه لا يستطيع حضور المحكمة لأنه مريض.

وطلب بعض الوثائق الأخرى. وحينما خرجنا قال لي: أنت ورطتني وعليك أن تخرجني من الورطة. أبي لا يمكن أن يوقّع. وأنا لا أجيد تقليد التّوقيع. أنت خطاط عليك تقليد توقيع أبي.

لم أناقشه. كان وحيد والديه وكنت أظن أنه لو صارح أمه بطلبه لاستطاعت أن تقنع أباه. لكني لم أطل الكلام. احترمت قراره. خضعت لإرادته وقمت بتزوير أول وثيقة رسمية في حياتي، وقلبي يدّق. وفي المحكمة فاجأتنا مصادفة لو لم يروها كاتب المحكمة، النّحيل. الذي يرتدي سترة مستعملة ذات مربعات واسعة مرقع عكساها بقطعة من الجلد، تباع في سوق -اللنكة أو البالات- وهو يشير إلى الأوراق لما صدقناها قط. قال: أنت ثاني واحد في حياتي أراه يغير اسمه من لازم إلى عبد الوهاب. تناول ملفًا كان أمامه. البارحة فقط عرضنا القضية على الحاكم. -القاضي- ومن اسم أبيه، تمكنت من تشخيصه، فقد كان في نفس عمري وعمر لازم، وكان زميلي في مدرسة الخالدّية قبل أن أُنهي الابتدائية. أعرفه حق المعرفة، وأعرف دكان أبيه في سوق السّراي، وأعرف أخاه مفيد. فدارت بي الدّنيا لحظات لأشياء كثيرة لم أكن أتوقّعها قط.

خرج عبد الوهاب منتصرًا في أول أهم معركة في حياته. بالرّغم من خسارته معركة ثانوية. فقد تسرب نبأ ملاحقة عنبر إلى ابن عمها. ولست أدري أكان تصرفه غيرة محضة موجودة عند جيلنا كله، أم كانت نوعًا من الطّموح في الزّواج منها!

كان يسير وراءها ببضعة أمتار فقط عندما اعترضه شاب أصغر منا بسنة تقريبًا ومعه ثلاثة آخرين. سألوه عن وجهته. وقبل أن يجيب. وجّه له أحدهم لكمة على أنفه، ثم انهالوا عليه جميعًا باللكم والضّرب. فأثار ذلك انتباه عنبر. فهرعت إليهم. وحاولت إنقاذه وهي تصرخ. فعلم أنهم ربما كانوا أقرباء لها. واضطر للذهاب إلى المستوصف. وكان من المعمول به آنذاك أن يمتنع المستوصف أو المستشفى من معالجة أي معتدىً عليه إن لم يأتِ بورقة من الشّرطة تثبت أنه أقام دعوى على من اعتدى عليه. وفي مركز الشّرطة قال عبد الوهاب إن المعتدين كانوا أربعة وسجل دعوىً على مجهولين.

بقي عبد الوهاب في البيت نحو ثلاثة أيام، كانت أمه الحزينة تعتني به. خرج إلى الشّارع بعدئذ وقبل أن تزول جروح وأورام الضّربة لأنه لم يتحمل عدم رؤيتها. طفق يتصرف بحذر شديد. ما إن يرى أي شخص في العطفة حتى يشلع -يهرب-، وكنت أرى حزنه الشّديد عندما يفشل في رؤيتها، وأثرَّ ذلك على دراسته وصحته كثيرًا فقد هزل من التّفكير والقلق وخوف أن يعتدي عليه شخص ما مرّة أخرى. كاد يقتله الأرق لأن صورتها تملأ عليه ليله وفضاءه وأحلامه. باتت تلك الفترة أسوأ فترة في حياته. وكنت أحزن عليه كثيرًا. وفي مرّة قلت له: حاول أن تصبِّر نفسك وإلا ستموت.

قال وهو يتألم: أموت إن لم أرها.

ثم أخذني مرّة لأراها. وقفنا في ظل عطفة، وكان يتلفت يمينًا وشمالًا كل ثانية، لا تستقر عيناه على شيء، ولشدة قلقه وطنت نفسي على -علقة- ممتازة.

ردّد غير مرّة: قف ورائي، لا تدعها تشوفك. لا أريد أن تكتشف أنني أفرّج

النّاس عليها. لعلها تظن أني أفضحها. وشُفْ إن جاء أحد من الخلف ليغدر بنا.

وعندما لاحت من بعيد كانت تلتف بعباءتها حتى لا يكاد المرء يرى سوى عينيها. قلت له بعدئذ من دون شعور: ماذا ترى منها لتذوب حبًا.

لم يردّ عليّ. أغمض عينيه وفتحهما وكأنه يقول: انتظر!

كان الوقت نهاية الخريف. أول الدّوام.

ما أعظم الحب! ما أعظم التّغيير الذي يحدثه في الإنسان!

هلّت عنبر من بعيد فزقزقت العصافير في وجدانه. تفجّرت احتفالات ومهرجانات هائلة. دماء تتدفق في كلّ خلية من خلايا وجهه. عينان تلمعان فتضيئان الدّنيا. برزت أمامي الأعين المتوهجة بالحياة والعنفوان لسَلَم وسميّة والمرحومة الحسناء مادلين.

لم تعد الدّنيا نفس الدّنيا. أصبحت جنّة. لم يعد عبد الوهاب عبد الوهاب. من أمامي ذاب. لم يعد له وجود. تلاشى. انتصب مكانه كائن أرق من النّسيم وأصفى من عين الدّيك. لم تعد الكائنات نفس الكائنات أصبحت ذات ألوان سحريّة. كلّ ما في الدّنيا تغيّر انقلب إلى فردوس.

طفق يغني بصوت وطيء: الميّة تروي العطشان.

وحينما اقتربتْ. أصبحتْ على بعد نحو مترين فرّجت العباءة في أعلى وجهها فسطعت عينان حوراوان واسعتان ساحرتان رائعتان قادرتان لا على إغراق عبد الوهاب في سحرها بل الدّنيا كلّها بما فيها.

أغمض عبد الوهاب عينيه، لم أر نفَسًا يصعد وينزل. لم أر ملامح بشرية. استحال من أمامي إلى تمثال جامد لا يتحرّك. ثم فتحهما بعد ثوانٍ، قال بصوت وطيء كأنه الأنين: أرأيت؟

- نعم.
لم أتنبّه إلى أنها رمت شيئًا. لكنه وقد اعتاد أسلوبها، قال لي بعد نحو دقيقة إذ تأكد أنها لابد رمت ورقة في مسارها: تعال.
مشيت معه. وبالفعل وجدنا ورقة صغيرة ملفوفة لا تزيد على طول إنج، خطفها وقال لي: أسرع.
ركض. فشاركته الرّكض. حتى إذ وصلنا شارعًا عامًا.
انتظرته ليقول لي ما في الورقة التّي تكلمتْ عنها عنبر، لكنه لم يخبرني آنذاك. ربما لأنه كان منفعلًا بشكل لا يمكنه من السّيطرة على كلماته. كشف لي الأمر عندما رأيته بعد يومين.
طلبت منه أن تراه حيث كانت محاضرات الدّورة تجري بعد الدّوام العادي في الثّانوية الشّرقية في محلة النّبي شيث قبل أن تنقل إلى مكانها الجديد مقابل النّادي العسكري. عندئذ قاده طلبها للخطبة إلى تلمس طريقه نحو المستقبل: ماذا سأكون. كيف سأتقدم لها إن لم أضمن مستقبلي؟ هل سأعيش عالة على أهلي؟ لا. ليس مثلي من يفعل ذلك.
ذهب إلى الثّانوية. قابل المسؤول عن الدّورة قبل أن يأتي الطّلاب. وبعد أن سمع بفوائد العمل في البنوك رأى اختيارها موفقًا. فالبنوك موجودة في المدن الكبيرة، وهذا يعني أن لا -بهذلة- في القرى والأرياف كالمعلم والعسكري. وهي تدفع ثلاثة عشر راتبًا لا اثني عشر. والدّوام فيها جيد للتبريد التّي توفره في الصّيف والتّدفئة المناسبة في الشّتاء. لذا جاء قراره بالانتساب لدورة موظفي المصارف باتًا. إضافة إلى أنه سيتمكن من رؤية عنبر كما هي من دون عباءة على رحلات الصّف.
-سأملأ عيني منها قدر استطاعتي. سنجد طريقة للتحاور. سأتقدم

لخطبتها رسميًا. سنتزوج بعد التّعيين مباشرة. وعدني أبي. أيوجد أكبر من هذا النّصر؟-

-لا.

ثم أمسك بزيقي: انتبه إليّ؟

ضحكت: أنا منتبه قل.

-كم طفلًا تتمنى أن يولد لك إن تزوجت؟

-لقد جننت!

-لا، لم أجن. مسألة طبيعية. قل لي كم طفلًا؟

ابتسمت: لم أفكّر في الأمر.

-حسنًا فكّر في الأمر الآن.

-ولا طفل. لا أحب أن يكون لي أطفال.

-لماذا؟

- أنا مع المعري. الحياة بلا أطفال أمر أكثر إنسانيّة. لم أحدثّك كيف يعذبني المكلوب؟ أخشى أن يكون ابني فقيرًا يرى أشياء لا يستطيع أن يتمتع بها. لا أريد لابني أن يصبح مثل المكلوب يسرق النّاس ويعتدي عليهم بشتى الوسائل، ولا أريد أن يعتدي عليه الآخرون. أحبّ الأطفال. لا أريد أن أقذفهم إلى دنيا لا أمان لها.

فعبس بوجهي، صرخ: أنت غير طبيعي. القراءة أفسدتك. كفى فلسفة.

ابتسمت: أنت طلبت مني رأيي.

-حسنًا. دعنا منك. أنا أريد اثني عشر طفلًا بالتّمام والكمال.

ضحكت بقوة: اثنا عشر طفلًا. لماذا؟

- أنا وحيد أبويّ. إن متّ انقطع نسلهما من الدّنيا. لو كان عندهم ولد

آخر فسيخفّف ذلك من مصيبتهم.
فتضايقت: أوه. . كم أنت متشائم! من أين تأتي بهذه الأفكار التّافهة. لو كل النّاس فكروا مثلك. ما عاشوا. -
أرقت في ليلة المظاهرة طويلًا. لم أستطع النّوم بسهولة. ترى هل كان يتوقع موته؟ لست أدري متى غفوت، لكني استيقظت مضعضع الحواس.
وعندما انتهى دوام المدرسة في اليوم التّالي ذهبت إلى السّرجخانة فرأيت دكان والدّه مغلقًا. جاره في الثّلاثين، يبيع لوازم خياطة، ونقش، وشرائط حريرية من الإبريسم، وأنواعًا كثيرة من النّمنم، وبكرات الخيوط وأشياء أخرى كثيرة، ويضع أمام عينيه عدسات ثخينة، يبدو في داخل زجاجها غير دائرة مختلفة الأحجام. قال: لا أدري. لم يفتح اليوم. فعلمت أنّهم عرفوا بالحادثة.
اندفعت الدّموع إلى عيني. وأردت أن أتأكد فسرت إلى محلة النّبي جرجيس وحينما دلفت إلى العطفة سمعت صوت الحافظ صلاح الدّين يتلو القرآن بصوته الحزين العذب. فأجهشت بالبكاء. لكني لم أجرؤ على دخول مجلس الفاتحة. بل رجعت إلى البيت.
أنبني ضميري كثيرًا بعد انقضاء الفاتحة. فهرعت إلى بيت عبد الوهاب. رأيت الباب مغلقًا. لم أتجرأ على طرقه. رأيت صبيًا بنفس عمري. سألته إن كان يعرف في أي مقبرة دفن عبد الوهاب؟ فأكّد: أنه دفن في مقبرة العائلة في باب سنجار. شكرته وتوجهت باتجاه المقبرة. لكنه استوقفني سألني: أتعرف في أي ناحية من المقبرة؟
-لا.
- المقبرة كبيرة. لن تتعرف وحدك على القبر.

-أتعرفه أنت؟
فتح عينيه: كيف؟ أنا شاركت بحمل التّابوت؟
-أهو صديقك؟
-قريبه. وأنت؟
- صديقي.
-لكني لم أرك في الفاتحة
دمعت عيناي: لو حضرت لبكيت أمام الجميع، إنّه أقرب أصدقائي.
تهدّج صوتي، لم أستطيع السّيطرة على نفسي.
- لا عليك. أنا كذلك أبكي بسرعة.
مسح دموعه: أنا مُعْتِب ابن خالتّه.
سار بالقرب مني: أتعرف صديقه الخطاط؟
-لماذا؟
-كثيرًا ما حدّثني عنه إنه يحبّه. أنا أيضًا أخط.
-أتريد أن تتعرف إلى صديقه؟
-يا ليت! أتوق لأريه ما أخطه لأنه كما يقول المرحوم أحسن خطاط ممتاز لعله يوجهني.
-أنا هو.
- أنت؟
توقف، عانقني، شدّ على يدي.
- لقد حزرت أنك هو. لأنك بكيت. كنت أتوقع مجيئك.
-لا أستطيع أن أسيطر على نفسي.
زرنا المقبرة، وكان من المستحيل عليّ لو لم يكن متعب معي أن أعرف القبر،

بالرّغم من اختلاف ترابه عن القبور الأخرى لأنه أكثر رطوبة منها.
أضاف عبد الوهاب جرحًا آخر يكلم مشاعري ويصيبني بكآبة عميقة لم أستطع التّخلص منها إلا بعد مدة طويلة.
في سنة ١٩٨١ بعد نحو عشرين سنة من ذلك التاريخ دخلت مصرف الرّشيد المقابل لسوق الشّورجة في بغداد، وكنت أعتزم السّفر، ولا بد من تحويل بعض النّقود إلى عملة صعبة أجنبية، وكان لا بدّ من توقيع مدير التّحويل.
وقفت بالدّور. أمامي بضعة أشخاص. وكانت هناك منضدة عليها رقعة نحاسية مكتوب فوقها بخط نسخي جميل اسم مدير التّحويل: عنبر عبد المنعم. لم يعنِ الاسم لي أيّ شيء أوّل الأمر. لكنّ شيئًا ما أشبه بشعاع كهربي انتشله بعد ثوانٍ من الأعماق. ربما لندرة مستعمليه! هناك شيء ما. من؟ متى؟ كيف؟ لا أدري. خرجتُ من الصّف، حدقت بالسّيدة المدير، فلم أر إلا سترة خضراء بلون الفستق من القطيفة الفاخرة، وشعرًا قهوائيًا عميقًا خاليًا يحجب الملامح، كانت منحنية تقرأ كل معاملة بدقّة ثم توقّع بعدئذ.
وعندما جاء دوري ورفعتْ إليّ عينيها عاد بي الزّمن أكثر من عقدين لأرى لا عيني المديرة بل عيني عنبر التّي كان عبد الوهاب ينتظرها في ذلك اليوم، عينان حوراوان واسعتان ساحرتان رائعتان تسعان الدّنيا بما فيها، فتفجّر بشيء من اللهيب ذلك الشّعاع الذي ضرب أعماقي قبل دقائق ليضيء زاوية ألم قديمة قابعة في ثنايا النّسيان. نعم هي نفسها لا غيرها؟ أنا متأكد الآن.
هل تزوجت؟ ألها أولاد؟ هل أسألها؟ لا. كيف أسألها؟ ماذا أقول لها، أأقول: أنا صديق عبد الوهاب؟ أنا الوحيد الذي رآها معه في يوم ما. الوحيد الذي سرّه عبد الوهاب بأدق أسراره! أأستطيع أن ألقي عليها هذا السّؤال: أما زلتِ تحبين المطرب عبد الوهاب؟ لا إنه سؤال تافه. ولا شك أنها لاحظت

احتدام مشاعري مرسومة على تقاطيعي فتلألأت نظرتان حادتان في مقلتيها برهة كومض بريق في ليل خريفي منذر بالصواعق، وكأنها تسألني أيوجد شيء؟ لكن مهنيّة العمل تغلّبت أخيرًا، فمدّت يدها بالأوراق بعد أن وقعتها مع ابتسامة مجاملة جميلة كان عبد الوهاب على استعداد للتضحية بالغالي والنفيس كي يراها مطبوعة على ملامحها.

خرجت وأنا أغوص في الذكرى فومض في ذهني أن أسأل أيّ موظف في البنك إن كانت من الموصل أم لا؟ فهو سؤال لا يثير شبهة. رجعت إلى المصرف فلمحت شابًا في العشرينات يقف وحده خلف الحاجز المرمر. ويكتب في دفتر ما، توقفت قربه وأنا أشير إلى غرفة مدير التّحويل عما خطر في بالي، فهزّ رأسه وهو ينظر إلي: نعم. من الموصل. نُقلت قبل أشهر. إنها سيدة رائعة عظيمة. شكرته وأنا أغادر المصرف وأئِد أسئلة أخرى حاولت الخروج من قمقم النّسيان المهجور. لكني لم أهدأ ذلك اليوم ولا اليوم الذي تلاه، كنت أشبه بمن أصابته دُمَّلة مزعجة في ذقنه تجبره على حكّها باستمرار. فقد خطر ببالي أنه من الواجب أن تعرفَ، وهو حبها الأول، كل شيء عنه. عن عذابه في الحبّ. عن الصّعوبات التّي عاناها في الخروج من المدرسة، وانتقاله إلى الدّراسة المسائية، ورغبته في التّقديم إلى الدّورة نفسها. عن رغبته باثني عشر ولدًا، عن. عن. عن. كلّ الأشياء التّي لا تعرفها عنه. لكنّي لم أتوصل إلى وسيلة، حتى أنني قررت وأنا تحت تأثير الشّراب أن أكتب لها رسالة غفل من العنوان ثمّ استبعدت الأمر. برزت إلى السّطح بضع أفكار أخرى لاقت المصير نفسه، لكن الدّمَّلة مهما كبرت تشفى بمرور الزّمن، ولا يبقى منها سوى الذكرى.

****

مزامير شاطئ اندلسي

التفت إلى اليمين. من خلال النّظارات الشّمسية رأى التّاريخ. رقعة بخط يد أرجواني. فسفوريّ كبير:
(نهائي كأس العالم اليوم. ١١ تموز. ٢٠١٠) حتى على الشّاطئ يطفح الفرح بمتعة مشاهدة اللعبة. أينما يلتفت. يرى رقعة مشابهة. يأتي المستحمّون. يغادرون. ينظرون إلى الرّقعة. يبتسمون. يتكلمون اللّغة التي لم يفكّ مغاليقها بعد. لكنّه يفهم معنى ابتساماتهم. وأي متعة تنتظرهم. نعم هذا اليوم. في الثّامنة مساءً ستكون اللعبة الأخيرة لكأس العالم. يستمتعون. يرقصون. يستحمون. تجري الحياة. لا يسطيع أحدٌ إيقاف دواليبها قطّ. مشرب. ملهىً. صداقات. عرب. أجانب. شاشة تلفزيون. كتب. سينما. مقاهٍ. أجمل ما في حياة الهارب من جحيم العراق مقهىً منعزل على شاطئ بحر مزدحم. نظارات شمسيّة. سروال قصير. قميص مشجر. قبّعة قش. تنكّر هائل. يستحيل على أحدٍ اكتشافه. قنينة جعة باردة. يبكّر كي يهرب من الكوابيس. يوقظ صفاء. يعدّ له فطورًا كيفما اتفق. يضع صفاء مستلزمات العوم:
نفاختا الذّراعين، نفاخة الصّدر، الكرة، السّطلين الصّغيرين، مجرفة البلاستيك في حقيبة الظّهر.
يساعده على تثبيتها. يخرجان من الشّقة. يقضم صفاء فطوره وهو يسير. يختار الجلوس تحت الشّجرة الوارفة العملاقة. يركض صفاء نحو البحر. يأتيه أرنان بكيس الشّعير، يضعه في جانبه الأيسر. في الصّباح تأتيه زقزقة

العصافير. تعيد له طفولته. يمدّ يده إلى كيس الشّعير. يرمي حفنة على الرّمال السّمر. تنزل العصافير فجأة. تحدث عاصفة صغيرة. يشعر بأجنحتها الرّقيقة تغمره بنسائم الهواء. تلتقط بنهم حبات الشّعير. تهجم فوقها موجة حمام كبيرة. تغتصب الحبّ. تهرب العصافير. ينتشر الحمام في كلّ مكان. تحت المنضدة. فوق المنضدة. يقف على فخذه. رأسه. بين رجليه في الفراغ بين المناضد. تنتهي حبات الشّعير. يختفي الحمام.

طفلة في العاشرة، ذات كسوة بحر حمراء مشجّرة بالأخضر، تنحني على الرّمال حين ينحسر الموج. تلتقط المحّارات الجميلة المغسولة بماء البحر. يتبعها صفاء ليرى ماذا يثير انتباهها. تنظر إليه بازدراء. ربما لأنه في الخامسة فقط، أو ربما لأنه يتكلّم معها العربية. يبتعد عنها. يجلس على حافة ارتداد الموج. يخرج عدّته. يبدأ الحفر. تضع الطّفلة المحارات في كيس نايلون. فجأة ينهض أخوها ذو الثّامنة من قرب أمّه تحت المظلّة البنفسجيّة. الأم على ظهرها. فخذاها بضان عاريان مثيران ملتصقان بفتنة تنافس حوريات البحر. ثدياها مضغوطان على الصدر. على عينيها نظاراتان سودواوان. يركض الطّفل بسرعة شديدة كسهم منفلت. يضرب أخته على يدها. يسقط الكيس. تتناثر المحارات الجميلة. تصرخ. تقع محارتان في الحفرة التي خلقها صفاء. تطلق الفتاة دفقة كلمات غاضبة وبصراخ. تلمع أسنانها الصغيرة. تمنى لو يعرف اللغة ليفهم ما قالت. ينظر إليها صفاء. يضحك بتشفٍّ.

يغلي جو الشّاطئ تحت سياط الشّمس. لكنّ الماء بارد. بيضاء تجاوز خصرها بإنج واحد حدّ المعدّل. ثدياها ممتلئان عاريان. تلمع حلمتاها الدكناوان. تمسكها يداه السّوداوان من ساقيها البضين النّازلين على صدره.

أما كفاها فتمسكان رأسه ذي الشعر الملفلف القصير. يجتاز المظلّات. يمرّ من أمامه. يقطع المسافة من المتكآت حتى بدء الموج بهدوء كي لا تسقط من فوق كتفيه. تدفع صدرها إلى الأمام بانتشاء وهي تقترب من البحر. تفتح ساعديها على وسعيهما. تقهقه بصوت عالٍ. يدخل الماء. يسير فيه. تغطس قدماها في هبّة الموجة. تستند على رأسه وهي تنهض فوق كتفيه. تتأرجح قليلًا وهي تشدّ على رأسه. تنتصب ثابتة على كتفيه. تتنفّس. تلقي نفسها في الماء، ترتفع موجة رذاذ دائريّة قويّة، تختفي لحظات. تظهر على شكل كرة صفراء فوق سطح الماء. تنفض شعرها. ترتجف كمن لذعتها البرودة. تهجم عليه. تضربه على صدره بقوّة. يرفع يده ليردّ الضربة. تغطس في الماء. يمسك بها من خصرها وأذرعها تتأرجح كضفدعة شقراء، يرفعها إلى مستوى صدره. يسقطها. تنهض. تهزّ رأسها. تتطاير خصل شعرها الأصفر. تنثر رذاذ الماء في الجهات كلها. تزيح خصل الذّهب عن عينيها. يغطس. يظهر. يتنفّس بعمق. شعر رأسه كثيف. يرجعه بيديه إلى الخلف. يعدّله. يفاجأها بدفعة أخرى. يسقطها على ظهرها في الماء. تصرخ بقوّة. تعتدل. تتراجع لتهرب. يغطس. يوقفها. تقهقه من كلّ قلبها. تمدّ يديها نحو وسطها لتبعده عنها وهو تحت الماء. يظهر. يتنفّس. يعدّل شعره مرّة أخرى. يهجم عليها بعنفوان شديد. يروحان في قبلة عميقة وهما يغطسان كليهما في الماء.

مغربيّة كاعب سمراء، تفترش منشفة زرقاء، تضع زندها على عينيها اتقاء أشعة الشّمس. اقترب منها كلب صغير لا يتجاوز طوله قدم واحد، في سلسلة فضيّة تمسك بها عجوز سبعينية ضئيلة، قبعة قش وارفة. خصل شعر الكلب حرير تتدلى حتى الأرض، تلمع في ضوء الشّمس. خصل عسليّة.

بيضاء. كستنائية. عينا الكلب تلمعان. وقف. حفر الرّمل بمخلب قدمه الخلفي. ضربات سريعة متتالية. تناثر الرّمل فوق صدر المغربية العاري، غطى الرّمل نهدًا تفتّح للتّو. فزّت مرتعبة. صرخت، هتفتْ: -سنيورة. - وكلمتين اثنتين، وكلمة عجوز بالعربية. تنبّه رفيقها صرخ على العجوز بصوت عالٍ، ردّد الكلمتين كلتيهما، سبّ بالعربية. التفتت صاحبة الكلب المسنّة، صرخت على الكلب بكلتمتين أيضًا. هرب الكلب. سبق صاحبته. بدأ يشمّم ما أمامه بهدوء ودون اكتراث. كأنه لم يفعل شيئًا. أخذت الشّابة تنفض الرّمل عن نهدها الأيسر بمسّ رفيق هادئ. كأنها تخشى عليه من لمسة هواء تجرحه. بينما أخذ رفيقها ينفخ عليه ويضحك. سألها: هل فعل الكلب ذلك ببراءة؟

يتوقف شاب وشابة في بداية عشريناتهما. الفتاة عارية الصّدر، بيضاء لوّحتها الشّمس، رشيقة. ينظران إلى كلب بإعجاب شديد. يرميهما الكلب بنظرة عميقة أنيسة. يشدّ أحدهما الآخر من خصره باستمتاع. الكلب صغير رشيق جميل بطول خمسة وعشرين سنتيمترًا فقط. ينبح نباحًا خافتًا كأنه يغازل الفتاة. يحرّك ذيله بسعادة. يقهقه الفتى. يتكلّم معه. ينبح الكلب ثانيةً بصوت هامس، كأنه يغني. ينظر إلى الفتاة فقط. يتكلّم الشاب معه ويشير إلى الفتاة. سأله: هل أحببت صديقتي؟ يلوي الكلب رأسه بتفهّم. نظرته العميقة ما زالت تضيع في مفاتن الفتاة. ماذا يريد أن يخبرهما؟ صاحبة الكلب أربعينية سمراء محروقة بلهيب الشّمس. تضع نظارة كبيرة سوداء. تمنى لو رأى عينيها. أكانت تنظر إلى الشابين أم إلى البحر أم إلى لا شيء؟

يسرع كهل بحبتي -آيس كريم- مغلفتين بال-شيكولاتا- إلى حبيبته الثلاثينة الشقراء. تفرش له خدّها. يقبّلها وهو منحنٍ. تفسح له مجالًا على المتّكأ الخشبي تحت المظلّة الكبيرة. يجلس. يلّف يسراه حول خصرها النّحيل. يقدّم لها الآيس كريم. تضحك. تعتدل. يبدآن بقضم الآيس كريم. يقبلان بعضهما بطعم الآيس كريم، تمنى لو لم تقتل زوجته في بغداد، لو كانت معه هنا، إذن لجرّب القبل بطعم الآيس كريم.

ينطلق صوت أغنية جميلة خلفه في إيقاع راقص من مذياع المقهى على بعد عشرة أمتار. ينتشر اللحن في الفضاء، يطغى على الضّوضاء وأصوات أمواج البحر. تبدأ طفلتان بالرّقص على النّغم على بعد خطوتين من خطّ الموج فوق الرّمل. تركض الطّفلة ذات الكسوة الحمراء، نحو أمها، تضع كيس القواقع على صدرها. تهرع نحو الفتاتين الرّاقصتين. تتلوى مع النّغم. يتكاثر الجمع. يضع صفاء مجرفة الرّمل فوق السّطل. ينظم إلى المجموعة هو وبضعة أطفال. تختار كل طفلة من تراقصه. بقيتْ صاحبة الكسوة الحمراء وحدها. انتقلت أمام صفاء. أخذا يرقصان معًا، تتمايل ضاحكة. كفّها فوق شعر صفاء الأسود الكثيف، أهي معجبة به أم تسخر منه لأنه أصغر الراقصين؟

تتكلم التي وراءه بعصبية وسرعة. ترفع صوتها. مرة أخرى آه، وألف آه لو يعرف اللغة! أهي تتشاحن مع مرافقها الشاب؟ يلتفت وراءه، كانت عارية الصدر. نهداها صخرتان بارزتان منتصبتان. سمراء. عيناها نجلاوان. شعرها أسود. تصرخ وتشير إلى صدرها. بينما يدير صديقها لها ظهره. يتكلّم بهدوء. يستلقي على المتكأ. وجهه نحو البحر. ترفع حمالة صدرها من فوق السرير، ترميه بها. تسقط على عنقه. يضحك. يضع الحمالة على

وجهه، يخفي تجويفاهما عينيه. تصرخ. تهجم عليه. تضربه على كتفيه. صدره. يثب على الأرض بقفزة رياضية، يعانقها من ساعديها، يهصرها. يندعس النّهدان في العناق. يقبلّها بحميمية. تذوب بين يديه.
السّاعة قبل العاشرة بدقيقتين. امتلأ الفضاء أمامه بالمستحمين. بدأوا بوضع الزّيت المشقّر على أجسادهم. تنـزع فتاة في الخامسة والعشرين حمالة صدرها. يبدو نهداها القويان بحلمتيهما الكستنائيتين مثيران. رمانتان يدويّتان توشكان على التفجّر. تمسح صدرها، فخذيها. تتكلم مع صديقها. يبدأ بمسح ظهرها. تضحك. لم تذق زوجته مثل هذه المتعة. أسيعجبها لو كانت معه هنا؟ تصل يدُ صديق الفتاة إلى جيدها. كان شعرها مرفوعًا فوق رأسها ككرة شقراء. قبّل جيدها، نزل بشفتيه إلى أعلى كتفها. بغتةً انتفضت، التفتْ إليه تعصر جسده بوحشيّة.
يغمض عينيه برهة. يفتحهما. تشتدّ حرارة الشّمس. يتوقّف النّسيم كلّية. يبدأ العرق ينزّ من جسده. يقهقه شابان وفتاة في الثّانية والعشرين عارية الصدر. يلعبون الكرة. يرمونها بالتّناوب. يبدو مثلث أبيض ناصع يحدد جزءًا من نهدين صغيرين ذي حلمة صغيرة بحجم العدسة في صدر الفتاة. عندما تقفز لا يترجرج نهدها. يقفز معها كلب أشمط غزير الشعر بحجم قدم ونصف. تنزل ذؤوابات من الشعر على عينيه. كيف يستطيع النّظر؟ يتوقف الشابان والفتاة عن اللعب بالكرة، يتجهون نحو البحر بعد أن يضع آخرهم الكرة تحت المظلّة. يتبع الكلب الأشمط الفتاة، ينبح بشدّة. يعيق قدميها من الحركة. تحمله على نهديها. يلطعهما. تقهقه. ينظر إليه أحد الشابين. يضحك.
تقف كهلة في الخمسين. تعرّي صدرها. نهداها صغيران جدًا. لكنّهما

منتصبان. تزيتهما بملامح فخورة، ثم تبدأ بمسح مؤخرتها بالزيت بعد أن تنتهي من مسح ثدييها.
تجلس الكهلة بعد مسح مؤخرتها على متكأ، تخرج نظارتيها السوداوين، تضعهما على عينيها، تتمدد، تفرج ما بين ساقيها للريح.
تأتي شابة قصيرة ممتلئة جميلة احتلت قطرات العرق جبينها كله. نزلت إلى عينيها. زوتهما. مسحتهما. تحمل كيسًا فيه -ساندويجات-. تجلس قرب ثنتين يلعبان الورق تحت المظلّة. تهلّلان. ترميان الورق. يتناولان الكيس حالًا. وهما تقهقهان.
تبدأ الشابات الثلاث بأكل السندويشات بنهم. يقطر الخردل الأصفر على نهد أبيض مكوّر ضخم منتصب لإحداهنّ. يضحكن. تمدّ صدرها إلى الأمام نحو الفتاة الجميلة التي جاءت بالسّندويشات. تبدأ هذه بلطع الخردل. يضحكن ملأ أفواههنّ ويأكلن.
متّكآت لا حصر لها أمام شاطئ البحر. يتّسع المتّكأ لواحد فقط، كلّ مجموعة متّكآت بلون يخصّ محلًّا. تحجب مظلّة من قش دكناء أشعة الشّمس.
وقفت شابة في السّابعة عشرة مع صديقها. نظرت إلى المتّكأ، فكّرت كيف سيرتاحان كلاهما بهذا الحيّز الضّيق. أشارت له. ابتسم. تمدّد على يمينه. رفع ساقه الأيسر. تمدّدت على يسارها، رفعت ساقها الأيمن، أدخلته بين ساقيه. أنزلت ساقها الثاني عليه. تعانقا. اتسّع المتكأ الضّيّق لهما كليهما. أغمضا أعينهما. فعل الشّيء نفسه صديقاهما. بعد دقائق نعس الفتى. نام. تركت الفتاة المتكأ له. راقبت صديقيها المتعانقين. ابتسمت برضًا. مضت ثوانٍ، شاهدت العرق ينقعها وينقعهما. ركضت نحو البحر. هرعا في إثرها، ظلّ صديقها في مكانه نائمًا.

أين أنت يا صفاء؟ بعد ثوانٍ رآه يلعب مع فتاة القواقع. ابتسم، جاء أرنان، قال -قدّموا الرّقصة إلى السّادسة، سيكون لقاء نهائي كأس العالم في الثّامنة. - أي نعيم يتمتّع به النّاس هنا. بحر. رقص. شرب. ضحك. حرية. كهرباء. ماء. لا شيء مثل هذا في العراق؟ سأل أرنان: لماذا وجد البحر؟
-وجد البحر لتبريد النّاس في الصّيف-.
يا ليت للعراقيين بحرًا! يحترقون بالرّصاص أنى توجهوا، مِن الأمريكان، من المليشيات، من الجيش. ومن السّماء أشعة جهنم. أيّ رحلةٍ من سعير كانت حتى وصل إلى هذه الجنّة؟

أيّ شاطئ؟ عشرات آلاف الأجساد عارية وشبه عارية. أوّل مرة يرى فيها أجسادًا لنساء في مثل ذلك العدد في البكيني، ومن دون حمّالات صدر. منذ أسبوع وذلك البدين يتمدّد على ظهره. هكذا هم السّياح. لا يغيّرون مكانهم. الشّمس شديدة. تسلق البشرة. الماء بارد. جسده ضخم أبيض. حمّرته أشعة الشّمس. صديقته نحيفة سمراء. في الخامسة والعشرين، ثدياها مدّوران منتصبان، برتقالتان ناضجتان شهيّتان. تسحبه. يرفض. تركض نحو البحر. تختفي. يرفع ذراعاه إلى الأعلى. يفرد سبابتيه. يبقي يديه هكذا حتى يتعب. ينزلهما. يرتاح. يعود يرفعهما مرّة أخرى. لماذا يفعل ذلك؟ تُقبل صديقته من البحر راكضة والرّذاذ يتطاير من خصل شعرها الكستنائي الطّويل بعبثيّة. ترمي نفسها عليه. تدفن وجهها في رقبته كأنها هاربة من وحش. يعانقها. ينهض قليلًا. يستقرّ فوقها. يمنع أشعة

الشّمس عنها. يغمض عينيه. لا يظهر من رأسيهما سوى قمة جبل صغير أسود يجلل أرضيّة كستنائيّة.
ينحني أرنان. تتدلى على كتفه الأيمن ضفيرته الخلفيّة الشّقراء. يضع صينيّة الفطور على منضدة صغيرة قربه. يهمس بالإنكليزيّة: -فطور. - يغادر مسرعًا. ينظر إلى الصّينيّة. بيضة. جبن. فطيرة سبانخ. مربّى. خبزة صغيرة. قهوة بالحليب. يعتدل. يمدّ يده. فجأة يرفع بصره جهة البحر. ابتسامة تملأ الكون. مراهقة شقراء في السّادسة عشرة. لوّحتها الشّمس. طويلة. بدايّة الامتلاء. بدأ خصرها للتوّ ثورته على الطّفولة. تفتح رجليها في الوقوف. تجسّم الوقفة الجسد يقذف حِمم رغبة تلهب الكون. يغطّي حلمتيها قطعتا حرير ورديتان، بحجم دراقة متوسطة فقط، بدل مثلّث الوسط قطعة دائرية أكبر باللون الوردي نفسه. وقفت تنظر إلى الصينيّة بجوع. مدّ يده نحو الفطور. هرعت نحوه. جلست لصقه. حرارتها لاسعة. تضحك. تندلع الكلمات من فمها. لا يفهم الكلمات. يفهم من الإشارات أن نارين تحرقانها، أشعة الشّمس ورغبة الجسد. تأكلّ بنهم. تتعمد الالتصاق به بين لحظة وأخرى. تقفز مغادرة. يعود إلى متكئه الخشبي، يسند ظهره بارتياح. يرى الجسد الضخم الأبيض المحمّر رافعًا ساعديه من جديد، فاردًا سبابتيه. لا يرى صديقته قربه. يشمّ أصابعه. زنخة البيض. ينهض. يغسل يديه في المطعم. يرجع. يرى المراهقة الشقراء متمدّدة في مكانه. شعّت ابتسامتها باستفاضة. نهضت. رجع إلى مكانه. التصقت به. داعبت شعر صدره. قبلته غير قبلة. لم يتحرّك. أغفتْ. ترك مكانه لها. نظر إلى أرنان. جاء مسرعًا وضفيرته الخلفيّة تهتزّ. أشار إليه أن يجيئه بمتكأ آخر.

جلب أرنان لأول مرّة متكأً بلاستيكيًا متحركًا على عجلات. أي اختراع عظيم! مقعد كامل. يتسع امتداد الساقين. هلّل شاب أسمر متين ذو عضلات متناسقة. جلس عليه. احتجت صديقته. علا صوتها. جادلته بغضب! ابتسم. هزّ رأسه. مدّ ساعديه. جلست على فخذيه لحظة. حاولت أن تستقر. نهضت كالملدوغة. احتجت من جديد. أشارت إلى المتكآت الخشبيّة. ثم هرعت غاضبة نحو البحر. البحر واسع يمتصّ انفجارات العواطف. قهقه. فقز. تبعها راكضا نحو البحر. أدركها قبل أن تعوم. عانقها. راحا في قبلة طويلة.

عجوز أصلع نحيف في السّتينات. يجلس على الرّمل. تزيت شريكته ظهره المشعر. يستسلم لها. فجأة تسقط كرة على يديها. يطير أنبوب الزيت بعيدًا. تبتسم. يقهقه. يأتي مراهق طويل نحيف خجل ينحني على أنبوب الزيت. يأتي به. يفتح ساعديه يمينًا وشمالًا. يرجع بالكرة.

بعد الحاديّة عشرة تبدأ الزوارق بأنواعها في ترصيع البحر الأزرق. زوارق بخاريّة. زوارق شراعيّة. زوارق بلاستيكيّة عريضة تتحرك بالأرجل تذهب بعيدًا أكثر من كيلومترين. ألوانها مبهجة. يسهل على العينين تتبعها. تحمل أشخاصًا متعددين يغنون. يرقصون. يستهترون. تعمّد أحد الزوراق صدم آخر. سقطت فتاة في البحر. قفز غير واحد لينقذها. فجأة جاءت طيارة مروحيّة. حامت فوقهم. نقلت الفتاة إلى السّاحل.

صفاء يركض نحوه، يرمي نفسه عليه، يضع رأسه المليء بالرّمل على صدره: -جائع. - قال حسين: -الحنفية وراءنا، أزل الرّمل من شعرك، اذهب إلى أرنان، قل له ماذا تريد أن تأكل. - قفز صفاء، التفت حسين. رآه ينتظر دوره أمام مرش الماء. ابتسم. يرى العجوز دائمًا في مكانه، لا يغيّره. يرخي

قبعته المتهرئة على عينيه تفاديًا لأشعة الشّمس المحرقة، جالسًا على حافة ستارة فويق الحنفية، الستارة على ارتفاع مترين. رشاش الماء الخفيف ينزل على أجساد المستحمين يزيل ماء البحر والرّمل، دائمًا يبتسم العجوز ابتسامة خفيفة مفعمة بالسّعادة. تقف شابة فارعة جميلة بيضاء حليبيّة، ذات شعر أسود فحميّ، تنزل حمالة الصدر. يبدو نهداها الصلبان بلون أنصع من باقي جسدها الذي لونته الشّمس. تغسل الثّديين الممتلئين تحته. تفرك حلمتيها الدّكناوين البارزتين. تزيل الرّمل من التقاء النّهد بالجسد من الأسفل. يرى العجوز كلّ ذلك بسعادة. تبعد الشّابة مثلث البكيني الملّون عن وسطها، تلمع في الأعلى نواة تمرة ساطعة، تفركها جيّدًا، تغمض عينيها باستمتاع. يبتسم العجوز. يغمض عينيه. تمدّ يديها إلى الخلف، تنزل البكيني، يسقط رذاذ الماء على مؤخّرتها. تبدو إليتاها ناصعتي البياض. تحرّك أصابعها بينهما باتجاه سقوط الماء. تزداد ابتسامة العجوز فوق الستارة. قبل أن تعطي الدور لصديقها، تدفع نهديها إلى الأمام تحت رشاش الماء. تستنشق الهواء بسعادة، ترفع حمالة البكيني الملوّنة من وسطها إلى مكانها في الخلف والأمام. يدّق العجوز قدميه فوق رصيف الشّارع بإيقاع مرح.

كجندي مستعدّ للمعركة يأتي طفل في الثّامنة مع أمّه وأبيه. كما يفعل صفاء وغيره. على ظهره حقيبة مليئة بمستلزمات قضاء الوقت على الشّاطئ: جاروف. حفّار. ملعقة كبيرة. سطول. نفّاختان تلتّفان على السّاعد. نفّاخة صدريّة تمنع الغرق. نظارات لا يخترقها الماء إلى العينين. قصبة تنفس. كلّ ذلك من البلاستيك. وضع الحقيبة تحت المظلّة. بدا هزيلًا صغيرًا جدًا بملابس السّباحة. أطول من صفاء قليلًا. لحظ صفاء يبني نفقًا

بين حفرتين، ركض نحوه، جلس قربه ليرى كيف ينهي النّفق، كان صفاء يحفر الرّمل بالملعقة بهدوء، قال له بضع كلمات، أجابه صفاء بالعربية، لم يفهم ما قال صفاء، ركض إلى حقيبته، تناول منها ملعقته الكبيرة، رجع إلى صفاء، جلس قربه، أخذ يحفر بسرعة، نظر صفاء إليه، تكلّم بالعربية، لم يلتفت إليه، استمرّ في عمله، انهار النّفق. نهض صفاء، ضربه على وجهه بكفّه. دفع صفاء أوقعه على ظهره، نبعثْ من تحت الأرض صديقة صفاء ذات كسوة البحر الحمراء المشجّرة بالأخضر، دفعته، صرخت بوجهه، أخذت تتكلم معه بعصبية، تلاحما، نهض صفاء ليعاون صديقته، كانت أمّ الطّفل تراقب، هُرعت، سحبت ابنها قبل أن يؤذيه صفاء وصديقته. عنّفته بشدّة وهي تشير إلى حقيبه الممتلئة. بدا مكسور الخاطر. مدّ يده ليخرج عدّته سمع من يناديه. التفت رأى صديقه وشقيقته ابتهج. هُرع إليهما. تبادلوا بضع جمل. ثم بدآ يركضان ويضحكان. تركض الطفلة وراءهما وتضحك. اختفوا. لم يرجع الطّفل إلا بعد ساعتين. وجد أباه نائمًا على المتكأ، أمه تقرأ. تكلّم معها. أشارت إلى الحقيبة. أخرج لفّة جبن وطماطة وخس. بدأ يقضم، ثم نام على الرّمل إلى جانب عدة العوم.

ما إن تخلو بضعة أمتار من الشّاطئ حتى يحتلّها لاعبو الكرة. أكانوا يراقبون الشّاطئ؟ مضرب الرّيشة نفسه. لكن لا وجود للرّيشة. كرة بلاستيك صغيرة ملونة بدلها. فتاة وصديقها يلعبان بكرة بنفسجيّة. زوج آخر يلعبان بكرة حمراء. تجاوزت الكرتان مجاليهما. اختلطت الضربات. امتلأ الجو ضجيجًا، ضحكات. رموا المضارب والكرات على الأرض. تعانقوا جميعًا وهم يقفزون فوق الموجات.

نهض من جانب صديقته الشّابة ناصعة البياض. تركها تغفو في ظلّ المظلّة.

جلس قرب الشّاطئ. وضع الرّمل النّاعم الأسود على وجهه. طلا جسده كلّه. بات تمثال رمل لولا عينان زرقاوان. سار بهدوء. جلس قرب صديقته. دغدغها في سرتها المبعوجة العميقة. ابتسمت وهي مغمضة العينين. مدّت يدها. لامست الرّمل فوق ركبته. فتحت عينيها. رأت رجلًا آخر. ارتعبت. صرخت. ضحك. ضحكت. نهضت ويدها بيده إلى البحر.

الشّاطئ فيلم مفاجآت، واحدة بعد الأخرى. ما هذه؟ سيقان مثيرة تخرج من تحت البحر، كرتا قدم خفيفتان، صفراء وزرقاء من البلاستيك. فتاتان في الماء. فتَيَان خارج الماء. يظهر الساقان حدّ البكيني الأحمر المنقط بالأصفر والبرتقالي. تحركان سيقانهما برقصة منعشة. يرمي الفتيان الكرة نحو وسطي الفتاتين. يخطئان. تقف الفتاتان في الماء. تنفضان شعريهما، تتطاير قطرات الماء في دائرتين، تدفعان خصلات الشعر إلى الوراء، تضحكان. ترميان الكرة نحو الفتيان. تغوصان مرّة أخرى، يظهر البكيني المرقط مثيرًا، ترقص السيقان بتماثل وهي مفتوحة نحو السّماء. تخطئ الكرتان الهدف مرّة أخرى. ثالثة. رابعة. أخيرًا يترك الفتيان الكرتين، يهجمان على البحر. يختفي الأربعة تحت الماء. يظهر بعدئذ كيانان إثنان من شقين ملتحمين، يدوران حول نفسيهما. تتناثر المياه في الجهات كلّها.

أقل من أربع سنوات. تركض من دون اتّجاه. تسرع أمها العشرينيّة الشّقراء وراءها. تنفلت من ذراعي أمها. تصرخ مقهقهة. تدور حول المتكآت. تمسك بها أمها أخيرًا، تحملها. تدخل بها المرافق. بعد دقيقتين ينفتح الباب. تفلت يد أمّها تجري بقوّة. تلتفت الأم إلى الدّاخل. تجلب حقيبتها. تخرج. لم ترَ الطّفلة. تنظر يمينًا. جهة البحر الواسعة. تغربل المتكآت بنظراتها. تنظر يسارًا. لم ترها. ترتعب. تتقلّص عضلات وجهها.

تكاد تبكي. تلتفت خلفها ترى الطّفلة خلف كوخ المرافق. تدرك أنها لعبت على أمها. تضحك من كلّ قلبها. تهرب من جديد.
لم تتركه المراهقة الشّقراء، ذات السّادسة عشرة، طيلة اليوم كانت قريبة منه، تجلس على متّكئه عندما يأكل. تشاركه، على الرّمل قربه، تسند جسدها على متّكئه، يدها تربت على فخذه، صدره، ساقه. ابتعدت عنه عندما أغفى بعد الغداء. رجعت ما إن صحا. أكانت تراقبه؟ لا يدري. تغيب بعض الوقت بين الحين والحين، لكنّها ترجع. فجأة حلّت السّادسة. جاء أرنان جلس على كرسيّ قربه. عندما سمع الرّقصة أول يوم، سأل أرنان عن معناها، لم يعرف، قال له إنها بالبرتغالية، أغنية برازيلية مشهورة منذ سنين. انطلقت تمهيدات الرّقصة السّبع بموسيقى قويّة ضخمة أشبه بالصّافرة، خرج الجميع من الماء، وقفت الفتيات بانتظار الأغنية. رفعت المراهقة الشّقراء يدها عن فخذه. وقفت أمامه على بعد متر، التفت إليه، لم ترَ عينيه. لكنها كانت متأكّدة أنه يراها، ابتسمت. نزعت حمالة الصّدرين. رمتها على صدره. ثم نزعت البكيني. رمته على وسطه. بدأت موسيقى الأغنية. وقفت معظم الفتيات. ينتظرن رائدة تقتحم السّاحة، تشجعهنّ، ليتبعنها. التفت إليه، مدّت يدها إلى نهدها الممتلئ. مسحته، غمزت عينها انطلقت إلى السّاحة مع أول كلمات الأغنية، اشتعل الجو تصفيقًا، هجمت الفتيات نحوها، كنّ يرمين بالبكيني على متكآتهن، في طريقهن، على أحبائهن، على الرّمل. صدح الجو. (ديكو باورا. أسو. ريا. دبا. يودوتو. دكن. جاجن. ديور. بورا. باشي. باشي. ما جيا. ليسي. ليسي.). كن يتمايلن إلى الأمام. الخلف، يرفعن سيقانهن. ينحنين. الموسيقى بإيقاعها الرّاقص الجميل تزداد قوّة وعنفوانًا والفتيات يزددن حركةً ذوبانًا جنونًا. كنّ يتحرّكن وكأنّهنّ جسد واحد، روح

واحد. يالقوة الموسيقى عندما تحلّ بالجسد فتسكنه باللحن والإيقاع! كم أصبح عددهن؟ مئة، مئتين، خمسمئة؟ لا يستطيع أن يخمّن. ما استطاع أن يلاحظه جمالهن الأخاذ. كنّ خليطًا من البيض، السمر، السود، قصيرات، طويلات، متوسطات، لكنهن كن جميعًا فاتنات، ساحرات، ليس في الحياة أجمل من شابة عاريّة تسفح حيويتها على الشّاطئ برقصة متميّزة!

بدأ صفاء وغيره من الأطفال يرقصون في دائرة أخرى على بعد بضعة أمتار من الرّاقصات الفاتنات، عندئذ أخذت الطفلة صديقة صفاء ذات البكيني الأحمر تتعرى. لحقت أمها بها حالًا، أمسكتها من يدها، أجبرتها على ارتداء كسوتها، أعادتها إلى المتكأ. تكلمت معها بعصبيّة. جلست، جاء أخوها وصفاء، جلسوا قربها وهما يلهثان من الرّقص السّريع. وإذ انتهت الموسيقى انفضت الرّاقصات وهن يعانقن بعضهن وسط تصفيق الرّجال، حملت كل منهن كسوة البكيني، نفضنها، وقفن في صفّ طويل أمام مرشات الماء. كان العجوز ذي القبعة المتهرئة في مكانه يراقبهن من جلسته على السّتارة، ينتظرهن ليتمع بنضارة أجسادهن واحدة واحدة. تُرى كم واحدةً رأى في حياته من مكانه هذا؟

****

أحيّ أنا أم ميّت؟

لكي يستلم أهلي راتبي التّقاعديّ في العراق -ما يعادل مئة وسبعة وستين دولارًا وثلاثة عشر سنتًا- يتوجّب عليّ استخراج وثيقة إثبات حياة، مصدّقة من وزارة الخارجيّة الأمريكيّة في شيكاغو. كنت في السّنوات السّابقة أذهب إلى السّيد إيشو مدير الجمعيّة الآثوريّة، في شارع بيترسون مع ويسترن القريب إلى بيتي.

يستقبلني السّيد إيشو بابتسامة حلوة، يشدّ على يدي بحرارة. يضيّفني بفنجان قهوة، ثم بقدح شاي عراقيّ جيّد، وأحيانًا يقدّم لي كعكة، أو قطعة كيك لذيذ. يضع صورتي على الاستمارة المعتمدة. يطمغ العريضة في ختم الجمعيّة الخاصّ المعترف به من قبل الجهات الرّسميّة. بعد أن ينتهي يرافقني باحترام حتى الباب. أشعر بامتنان لهذه المعاملة الكريمة إلى آخر حدّ.

تتمّ العمليّة في خلال وقت لا يزيد على ساعة بما فيه مسافة الطّريق ذهابًا، وإيابًا. عندما حاولتُ في كانون الأول سنة ٢٠٠٩ استخراج وثيقة إثبات الحياة المعتادة أخبرني السّيد إيشو متأسفًا أنّني يجب أن أذهب إلى ديترويت -٤٥٠ كم- لأنّ الحكومة العراقيّة انتزعت هذه الصلاحية منهم مع غيرها.

أردت أن أعرف موقع القنصليّة بوساطة الهاتف لكنّي فشلت. لا يجيب على مكالمتي رجل حيّ. أكره آلات التّسجيل. يأتي الكلام من خلال الهاتف بصورة متشنّجة، يردد بصوت مزعج: اذكر اسم الموظف، أو رقم تسلسله

بالقنصليّة.
ذلك مستحيل. لا أعرف اسم أيّ موظف، ولا رقم تسلسله. أنا بعيد عن القنصليّة مئات الأميال. ما العمل؟ يتوجب عليّ أن أنتظر حتى ينتهي الحديث المسجّل الطويل. ربما في النهاية يتضح الأمر. الحمد لله. جاء شيء واضح بعد تلك التعمية، أمر آخر: ضع رقم هاتفك واسمك الكامل. سنتّصل بك بعد قليل.
انتظرت، لم يتصل أحد.
بحثت عمن مرّ بالتجربة نفسها في شيكاغو، قال لي حال عرف ما أنويه:
-لا فائدة من الاتصال. يجب عليك الذهاب إلى ديترويت، التّليفون حيلة للتخلص من المراجعين-. هناك المئات مثلك هنا وفي كل ولاية أمريكية. ولكي لا يزعجوا أنفسهم، يتركون العمل يتكدس، ثم يقومون بمثل هذه الحيلة لركل المراجعين على قفاهم.
شعرت بالإحباط، سألته: -كم انتظرت مكالمتهم؟-.
-لا تسأل. -. قال ذلك لأنّه رأى ألمي. ثم ابتسمَ ساخرا: لا يحترمون الناس.
-كيف؟-
كاد يضحك: عليك أن تدرك أنهم عندما وضعوا في التسجيل -سنتّصل بك بعد قليل-. يعني مدّة غير محدودة. وأن النظر في معاملات المواطنين يمر من خلال مزاج موظفي القنصلية لا من خلال القوانين. فالقضية التي يعهد بها إلى موظف معيّن، لا يعني أن عليه إنجازها حالًا، بل متى يروق له العمل بها. عليه أن يعمل وفق راحته النفسية. ربما أجاب بعد بضع دقائق فعلًا، أو ربما في نفس اليوم، وإن كان مشغول البال. أو مزاجه- بنفسجيًّا أو برتقاليًّا- يعني أنه كان محبطًا لسبب ما، فلا إجابة ولا هم يحزنون.

ابتسمت بدوري والألم يحزّ في صدري وأنا أسمع بعد أكثر من عشرين سنة تعبير -المزاج البنفسجي أو البرتقالي-. كنا نردده دائمًا لنصف ما هو سيىء الخلق.
فجأة لمع ضوء في آخر النّفق. تذكّرت، أن -ميغ- وهي طالبة درّستها قبل سنتين. ذكرت لي أنّها تعمل في مقر الإدارة الأمريكيّة المحليّة هنا في شيكاغو، وأن معاملات القنصليّة الرسمية التي تتعلق بالموظفين والعاملين بالقنصلية تتم لا في واشنطن بل في شيكاغو. كونها احدى المراكز القليلة التي تدير شؤون القنصليات المتعددة في الوطن كله.
-ميغ- مسؤولة عن تصديق معاملات موظفي قنصليّتنا المحترمين الأنيقين -المؤدبين- في ديترويت، وأن موظفي القنصلية، -شديدي التهذيب- دائمًا يعرضون عليها أن تلجأ إليهم إن احتاجت شيئًا من العراق.
اتصلت بـ -ميغ-. يبهجني صوتها، فيه لكنة لذيذة تضفي على جمالها ألقًا يبهج النفس. تخيلتها أمامي تعدّل شعرها الذهب. شرحت لها المشكلة.
-لا بأس، انتظرني، سأحدّثك بعد قليل-.
تمشيّت إلى أقرب محل -آيس كريم-. لم أدخل. ضحكت على نفسي. الثلج بارتفاع قدم وأنا أذهب إلى محل -آيس كريم-؟ أيّ غباء! حتى أني لم اشتهيه. إذًا لماذا ذهبت؟
رن الهاتف بعد نصف ساعة تقريبًا، جاء صوت -ميغ-، فرحًا يبشرني: اتّصل بالقنصليّة الآن. أطلب أن تتكلم مع السّيد -س-، هذا هو رقم تسلسله في القنصلية: -٥٥٧-. أخبره أنّك من طرفي. ثم ضحكت ضحكة قصيرة: -سيسافر جيمي إلى واشنطون، لإجراء مقابلة في وزارة الدّاخلية، يريد أن يعمل ضابط شرطة. أتصدّق؟-.

ضحكت بدوري: -أصدّق ما دمت قلت ذلك، لكن احذري-.
-لماذا؟-.
-ستخطفه منك شرطية حسناء-.
قهقهتْ: لا تبقى حسناء في ذلك السلك، تتمسخ خلال أسبوع.
زرقتني ملاحظتها بمصل مرح أشاع الحبور إلى نفسي. اتصلت بالقنصليّة وأنا في مزاج رائق. طلبت السيد -س-. بدا أنه ينتظرني. أجاب ما إن ذكرت اسمه وتسلسله في القنصليّة، والغريب أنّ لهجته كانت كما وصفته -ميغ- شديدة التّهذيب. ثم أضاف، بلهجة ناصحة واضحة مؤدّبة: تعال غدًا إلى ديترويت واجلب معك كل ما تملك من وثائق عراقيّة رسميّة تخصّ الموضوع.
الثّلج في ديترويت بارتفاع قدم كما هو في شيكاغو، والرياح قارسة قارصة تحت الصّفر بعشرين درجة، تهبّ بشدّة تكاد تقتلع قبعتي، وأنا أسير.
المسافة بين محطة القطار والقنصليّة تأخذ نحو نصف ساعة بسيارة الإجرة.
لم أذهب إلى -موتيل- بل توجّهت وحقيبتي إلى القنصليّة مفعمًا بأمل أن يساعدني السيّد -س- وأنهي المعاملة في اليوم نفسه، كما في الأوقات الخوالي، لأرجع إلى شقتي وأقوم بتحضير دروسي.
مبنى القنصلية دافئ، مريح. توجّهت نحو الاستعلامات، رجل في نحو الستين، له لحية قصيرة سوداء شابها البياض، حدّق بي بجمود. سألت عن السيد -س-.
قدّم لي ورقة: -اكتب اسمك هنا-.
سجلت أسمي، اضفت: إنه ينتظرني، رجاء أبلغه ذلك.
هزّ رأسه. يبدو أن -س- مهمّ جدًا، لأن الموظف نهض حالًا، أسرع في تلبية

طلبي، اختفى في الغرف الدّاخلية.

يخدعني الصوت في الهاتف دائمًا، يخيّب توقعاتي فعندما كلمت السيد -س- جسمته لي خيالاتي بجسد شخص طويل نحيف أعرج. لماذا أعرج؟ لا أدري. بعض الأحيان توغل خيالاتي في الأوهام. توقّعت أنه سيتّجه إليّ في الممر الطّويل ورأسه يترنح، بسبب عرجه كبندول الساعة يمينًا وشمالًا فيصطدم بهذا الحائط أو ذاك. وأنه ما إن يصلني حتى يتهاوى على المنصة الفاصلة بين المراجعين والموظفين، وسيحتاج إلى ثلاثة أشخاص ليرفعوه، وشخص رابع يمسك رأسه بكلتا يديه ليفتح عينيه ليستطيع أن يراني. لكن كلّ هذا لم يحدث لأن الموظّف رجع وحده. نظر إليّ معتذرًا: -السيّد -س- في إجازة.

-كم يومًا؟-

-لن يأتي قبل أسبوع-. عقصت ما بين عيني وأنا أنظر إليه بحدّة: أنت تعرف أنه هنا وإلّا ما ذهبت إليه.

أحس بحرج شديد، أدرك أنه كشف نفسه بشكل فاضح، احمرّ وجهه وقال لي وعيناه مكسورتان، وبصوت مهزوم خافت، لا يمكن أن يمحو كذبته الفاقعة: عفوًا، ظننته هنا.

أخرجت أوراقي، وقلت له إن السّيد -س- قال لي في الهاتف أن أجلب معي هذه الأوراق.

أمسك الموظف بوثائقي، فردها ورقة ورقة، نظر فيها جميعًا، ثم رفع عينيه، لكن نظراته الآن طبيعية، فقد تجاوزت سقطته، لا بل حلّ فيها شيء من مراوغة شديدة، قال بما يشبه الهمس وكأنه يكلّم نفسه: التّعليمات تغيّرت.

شهقت، لكنّي تمالكت نفسي: -تغيّرت؟.

هزّ رأسه: -نعم. -.

-تغيّرت خلال يوم واحد؟-.
ضحك: ثم ماذا؟ اليوم صباحًا، وصلت التعليمات الجديدة، هل هناك غريب في الأمر؟-. قال ذلك وارتسمت على وجهه ملامح سخرية مؤلمة.
ضاق صدري، كدت أنفجر، لكنّي ضبطت أعصابي، قلت بهدوء: -لا، لا يمكن أن تتغير بهذه السرعة. هو نفسه البارحة طلب مني أن أجلب هذه الوثائق، إن تغيّرت فعلًا فهاتها لأرى التاريخ-.
ازدادت ملامحه سخرية: لا يمكن أن نطلع أيًا كان على وثائق رسميّة. هذه فوضى يعاقب عليها القانون، للقنصليّة أسرارها.
-لكني أطلب إنهاء معاملتي، أنا مواطن ومن حقي أن احصل على وثيقة الاستمرار بالحياة، ما دمت حيًّا، حياتي ليست من أسرار الدولة، أو القنصلية، تعليمات أي سفارة أو قنصلية في العالم كله لتسهيل أمور المواطنين العراقيين-.
هزّ رأسه بعناد: -ليس عندي ما أضيف-.
أذعنت بوجهة نظره الخاطئة، قلت له وأنا أستسلم: -حسنًا، أعطني قائمة بالوثائق المطلوبة لأجلبها، وحدّد لي موعدًا-.
زفر بارتياح، نجح أسلوبه في التخلص مني، زفر: -هات صورة إثبات الحياة السّابقة، مع هذه الوثائق، لعل الأمور تسير بشكل أفضل-.
توقفت، هتفت: قلت: -لعل! يعني غير متأكّد-.
ضاعت عيناه في فضاء القنصلية، ثمّ هزّ رأسه جادًا: مؤكّد.
لم أكن واثقًا أنّني أمتلك نسخة منها. ظللت طيلة الطريق أفكر كيف أستعيدها إن كنت فقدتها. رجعت إلى شيكاغو. لم أجدها فعلًا. اتّصلت بأهلي وطلبت منهم أن يرسلوا لي بواسطة -السّكانر أو الفاكس- صورة

اثبات الحياة السّابق.
بعد بضعة أيام توجّهت إلى ديترويت مرّة أخرى. وصلت القنصليّة في العاشرة صباحًا بعد سياقة ست ساعات كاملة، مع بعض الوقفات. اتجهت إلى المرافق لأغسل وجهي. وجدت ورق المرافق ورديًّا فاتحًا. ارتعبت. خرجت. لا بدّ أن هذه غرفة مراحيض السيدات. لا، لم يكن الأمر كذلك. مكتوب على الباب -حمام- من دون تعيين. إذًا لماذا ورق ورديّ؟ يبدو أن أشياء كثيرة تتغيّر في القنصليّة، ليس ورق الحمام فقط. فوجئت. موظف الاستعلامات رجل ثانٍ.
لماذا؟ بدل الشيخ الستيني رأيت رجلًا في الخمسين، نصف ملتحٍ، ذا عينين صفراوين، وملامح سمحة. كانت القاعة مليئة بمواطنين آثوريين جالسّين ينتظرون دورهم. سألتّ أحدهم كم دقيقة وأنتم تنتظرون؟ كاد يضحك: قل كم ساعةً؟ أدركت أنّني لن أرجع اليوم إلى شيكاغو بل سأبقى في ديترويت. كتبت اسمي في سجل المراجعين. كان الشيء الجيد أنني جلبت كتابًا، أقضي به على مرارة المعاملة. جلست قرب السيّد الأثوري الذي تكلّمت معه من قبل.
يبدو أن الموظّف قرأ اسمي وعرف أّنني لست آثوريًا، فنظر إليّ وغمز عينه بشكل تواطئي. حدست أنه يريد أن يتكلّم معي لسبب معيّن. توجّهت إليه. بادرني: -أعطني أوراقك-.
هذه اللفتة جعلتني أحس أنّه قام بخدمة كبيرة لي حين جعلني أتجاوز الدور. هناك العشرات ينتظرون. فلماذا قدّمني؟ ربما أشفق عليّ كوني جئت من مدينة أخرى، لكني مع ذلك لم يعجبني أن يميزني أحد على غيري. تصفّح الوثائق، وضعها واحدة فوق الأخرى، بينما كان زميله المتشنّج

السّابق يناولني إياها واحدة واحدة. رفع رأسه: قال لي وهو يبتسم بتحدٍ: تغيّرت التعليمات. باتت صورة اثبات الحياة السّابق غير مهمّة. هل جلبت معك نسخًا ملوّنة لهويّة الأحوال المدنيّة وشهادة الجنسيّة وهويّة التّقاعد؟
فوجئت: ولماذا ملوّنة؟
لمعت عيناه وكأني استفززته، أو كأني كشفت جهلًا مخزيًا، لكن لم يكن في نظراته ما اعتبرته سخرية، أضاف بلهجة تعليمية واضحة: لا يظهر التّزييف في الأسود والأبيض، أما في الملوّنة فهو واضح وضوح الشّمس.
ثم أعطاني وريقة مطبوعة فيها قائمة بالوثائق الملوّنة التّي يجب أن أجلب معي.
قلت له: يا أخي، كنا في السّابق نستخرج الوثيقة ببضع دقائق، وها أنذا جئت من شيكاغو مرّتين، وقطعت أكثر من ألفي كيلومتر، وصرفت أكثر مما أتحمّل ولم أنجزها، فلماذا تعذبون الناس؟
عندئذ فقد أعصابه، هتف بعصبيّة ليسمع الجميع: صدام حسين مسؤول عن هذا كلّه، دمّر كلّ شيء، علينا أن نبني من جديد.
حدّقت به جادًّا: رجاء اهدأ، لا تصرخ بي. أنا أريد حلًّا لمشكلتي. لماذا تضعون المأساة برأس شخص انتهى قبل ست سنوات؟
-لكنها مشكلته-.
-سنة واحدة كافية لتصححي أخطاء في مسار معاملات الناس لا ست سنين.
لماذا تعقّدون الأمور، لماذا لا تعيدون بناء أسس بشكل إنساني؟ أيجب أن يصاحب البناء تعذيب الناس؟ هل تستمتعون بوضع العراقيل أمام الناس؟ أريد وثيقة حياة فقط!-.
سكت ولم يجبني. لكنّه بدا محتدمًا. فوّضت أمري لله. رجعت إلى

شيكاغو. طلبت من أهلي أن يرسلوا لي نسخًا ملوّنة. ولحسن الحظ زوّدوني بها بسرعة. بعد أسبوع توجّهت إلى ديترويت من جديد وكان الجوّ صحوًا مع وجود الثلج والبرد الزمهرير. عدد الآثوريّين والآثوريات قليل، في قاعة انتظار القنصليّة هذه المرّة، بضعة عشر آثوريًا وآثورية. لست أدري لماذا لم أرَ سوى آثوريين فقط! لم أجلس مع المنتظرين، لم أسأل أيّ واحد منهم كم ظلّ ينتظر! لا فائدة من توقع ما سيجري. توجّهت إلى منضدة الاستعلامات. وجدتها خالية. لا أحد. وقفت أنتظر. أحدّق بالممرّ. أين ذهب الموظّفون؟ أحسست بغضب شديد. لم يظهر أحد طيلة بضع دقائق. كتبت اسمي في سجل الحضور مع ساعة وصولي.

جلست أنتظر، وبعد نحو خمس عشرة دقيقة، أطلّ شاب قصير في عشريناته، أنيق. رفع رأسه نحو المنتظرين. صوت حاد انطلق من فمه وهو ينطق باسم أحد الموجودين، لم أصدّق أنّه يخرج منه. كان أشبه بسعال. بعد نحو نصف ساعة جاء دوري. عرضت -بضاعتي- بتفاصيلها وبهدوء.

حدّق بي وهو يهزّ رأسه: هذه كلها غير مهمّة، عليك أن تجلب نسخًا أصليّة غير مصورّة. فأخرجت وريقة زميله السّابق، ووضعتها أمامه: هذا ما أعطانيه موظفكم قبل عشرة أيام. أنظر إلى القائمة. لم يذكر نسخًا أصليّة. تجهّم وجهه لكن وجّه إليّ نظرات استنكار عدوانية، وهو يفتح عينيه على وسعهما: قلت لك نسخ أصليّة.

حدّقت فيه: لا يمكن أن تتغيّر كلّ يوم.

ردّد بآلية: تبدّلت الأمور. لم يبقِ الأكراد لنا شيئًا.

- وما علاقة الأكراد؟-.

- زيّفوا كلّ الوثائق. علينا تبديل المتطلّبات بين مدّة وأخرى. قال تلك

الكلمات كلمة بعد أخرى، وكأنه يلقيها على طفل-.
-وما الحلّ؟-.
-لا بدّ من جلب أصليّات-.
حاولت أن أهدأ، قلت: لا أمتلكها.
عليك أن تذهب إلى العراق وتستخرج نسخًا بدل الضّائعة.
- أتدري كم يكلّف الذّهاب إلى العراق؟-.
-ليست مشكلتي. -
ماذا أفعل؟ لم أسيطر على نفسي، أدرت له ظهري، واجهت المواطنين الآثوريين، سالتّهم: أيها الإخوان، يا ناس، رجاء قولوا لي: أأنا ميت أم حيّ؟
ضحك معظمهم، قال واحد: لا. أنت حيّ.
- هل تشهدون أنني حيّ؟-.
ابتسموا جميعًا، قال غير واحد: نعم. نشهد.
التفتُ إلى الموظّف: انظر، شاهدان يسوقان المتّهم إلى الإعدام، وهنا أكثر من عشرة يشهدون أنّني حيّ، آكل وأشرب وأذهب إلى المرافق، وإن أردت فسأثبت لك أنّني أستطيع ممارسة الجنس هنا، من دون فياغرا إن أتيت لي بواحدة. فلماذا لا تكتب وثيقة تستند إلى هؤلاء العراقيّين الشّهود بأني حيّ؟
انفجر الجميع ضاحكين. نكّس رأسه. لم يجب، ازدادت تقاطيعه ظلمة وتجهّمًا. ثم أعدت عبارتي بأنّني كنت استخرجها بخمس دقائق، ومن دون خسائر، فلماذا تعرقلون الأمور؟ قال كمن هرب إلى صيغة من القول تؤمن له هدوءً مزقته أنا بوجودي: لا بد من وثائق أصليّة لا تتعب نفسك.
أردت أن أرجع إلى شيكاغو، لكني طلبت منه أن يضع قائمة بالمستمسكات

الأصلية التي يريد أن أجلبها، فأخذ يعددها، وكانت موجودة عندي، إلّا هويّة الأحوال المدنية، وعندي نسخة مصورة لها فقط.
أشار إليها مؤكّدًا، قال لي: حاول في العراق أن تستخرج مثل هذه أصلية. عندئذ تنتهي القضيّة.
انكفأت على نفسي في شيكاغو. أفكّر وأجمع وأطرح، وأضع مصالح عائلتي ومدخراتي، وقابليتي على تجاوز الأزمة التي يخلقها النظام لسحقي وسحق غيري، ثم توصّلت إلى احتمالين لا ثالث لهما: ترك راتبي التقاعدي لهم. لتسرقه عصابات النظام، أو الكفاح لانتزاعه من أنيابهم السامة. ففضلت الاحتمال الثاني. قطعت تذكرة جوية إلى أربيل. حينما وصلت إلى ضابط الجوازات ورأى جواز سفري أمريكيًّا، سألني وهو يبتسم: -لماذا تريد أن تتعس قلبك؟-
حدّقت فيه، ابتسمت: -لم أفهم-.
-ماذا في العراق لترجع؟-.
كدت أضحك.
كان علينا أن نمشي نحو ربع ميل نسحب حقائبنا حتى نصل إلى سيارات الأجرة التي تنقلنا إلى مركز المدينة، ليتسنى لنا بعدئذ الذهاب إلى المدن التي نقصدها.
الحر على أشده في الموصل، نحو مئة وخمس وعشرون درجة فهرنهايت. في اليوم الأول من رمضان وجدت نفسي في دائرة الأحوال المدنية أكاد أذوب من الحر. بينما كنت واقفًا بالدّور وجسدي ينضح عرقًا سمعت أحدهم يقول: عفا الله العراقيّين من نار جهنم مهما فعلوا، لأن عدالته قضت ألا يدخلها المرء مرّتين. أحسست بشيء من المرح، هذا إنسان مثلي قهر جهنّم

والرّوتين الغبيّ بالمرح.
معظم مسؤولو الدّائرة كإخوتهم في ديترويت تمامًا، متجهّمين غاضبين ساخطين على البشر والبشريّة، مترفّعين عن -الحشرات- التي تراجعهم. أحدهم عملاق بشارب ثخين -رقم ثمانية- وجه عبوس -قمطرير-، جسد ديك مزهوٍ منفوش الرّيش، ذكّرني بملابس القوات الخاصّة الزّيتونية في النّظام السّابق. كنت أتبع تعليمات الموظفين. بعد ثلاث ساعات من دخول غرفة وأختها وجارتها وبنات عماتها وخالاتها سُئلتّ عن بطاقة التّموين، ووثيقة السّكن. وعندما استفسرت عن علاقة الهويّة الشّخصية بهاتين الوثيقتين، قالوا لي لا بدّ من جلبهما لتحديد مكان سكناك في الموصل. فاحتججت بإنّني لا سكن لي في الموصل لأنّي غادرت العراق منذ ربع قرن. قالوا إذن لا بد من الذّهاب إلى دائرة الهجرة والمهجّرين.
الموظف المسؤول في نحو الثّالثة والثلاثين، قلت له بصوت حاولت أن يكون مقنعًا: إنني أريد فقط شهادة إثبات أنّني حي. أنا هنا في العراق. في وطني. أنا حيّ أمامك. فقط دلّني كيف أثبت ذلك.
ردّد وهو ينظر إلى أوراق في المنضدة، وكأنّه يحاول أن يقنعني بأنه غير معني برأيي: لا بد من مراجعة دائرة الهجرة والمهجرين.
ما العلاقة بين شهادة إثبات الحياة أو الهوية الشخصية بالهجرة والمهجرين؟
-لم يردّ-.
خرج. ترك لي الغرفة. حدّقت بالحيطان الدكناء. بالخزانات الحديد، بالشعارات الطنانة التي تبثها أجهزة الدعاية الحكومية.
بدأت أخطو خارجًا، وأنا أتساءل مع نفسي أيدركون أنّهم يتعبون المواطنين، ويذلونهم أم يتصرفون معهم بغباء، ألا يعلمون أنهم يسحقون شعبهم،

ويذلونه، لماذا يستخدم ذرائع شتى. يدفعونه إلى كره الحياة، والحقد على السلطة والانتقام منها بأيّ وسيلة؟

قرّرت أن أتوقّف. وأقرأ على راتبي التّقاعدي السّلام، لكنّ شابًا في الخامسة والثلاثين. عرف نفسه لي وهو يصافحني: - صباح قدّو-.

كان يقف قربي، قال لي: لا تيأس، يحاولون إتعابك وإتعابي والآخرين. أنا لا أتنازل عن تقاعد أبي. أنا أراجع مثلك منذ ستة أشهر، صرفت أضعاف التقاعد، لكني لا أستسلم، إن توقفنا فسيأتي من يزيف هويّات لنا، يتسلم التقاعد باسمنا. يتقاسم به مع المسؤولين. هناك مئات الآلاف مثلي ومثلك. ملايين الدولارات تدخل جيوبهم كل شهر.

في الواحدة بعد الظّهر وصلت مع صباح قدّو دائرة الهجرة والمهجرين، فرأيناها مليئة كالعادة بالمراجعين، لكن الجديد فيها حيطانها، فهي مملوءة ببوسترات جذّابة ملوّنة تلفت العين، على مستوىً راقٍ من الإخراج مطبوعة في بلد مجاور. فيها شعارات تحارب الفساد والمفسدين، ومستغلّي الشّعب، وتصوّر كلًّا من الرّاشي والمرتشي غارقين في بحر لا قرارة له، وأيديهما مكبّلة بالحديد من الخلف، مع عبارات قرآنيّة، وتحذيرات عقابيّة وفق القوانين الصّارمة.

أما لماذا في هذه الدائرة فقط؟ فلا أدري. نظرت إلى صباح قدّو، فأدرك ما أقصد، قال بازدراء: -إنّهم يلقون آثامهم على الوافدين المهاجرين. يحذرونهم من إفساد الشّعب العراقيّ؟

ضحكت ضحكة قصيرة: هذا يعني أن العراق بلد في قمة النّظافة السّياسية والمالية، كسويسرا أو السّويد، فلماذا أنزلوه إلى أسفل دركة في العالم سبع سنين متواليات؟ لماذا عُرف واشتُهر بأنّه يحوي أتعس زمرة من اللصوص

الدّوليين؟
كان هناك معنا في الغرفة من يتكلم بصراح، وبصوت عالٍ. عدد أحدهم أسماء شخصيًات في مركز الحكم، تكدّست في جيوبها عشرات الملايين، بل عشرات مليارات الدّولارات، بدا الحاضرون يعرفونها، تختلط مع أسماء كثيرة معروفة لدى من يعيش في الخارج. أشار مراجع آخر إلى حرية سرقة الوزراء والمتنفذين للمال العام. بينما سخر آخر منه وهو يقهقه بصوت عال: من سرق العراق والعراقيّن ليسوا أبناءه.
ضحكت: من أي قطر؟
-شياطين نزلوا من السّماء وسيعودون إليها قريبًا-.
ضحك غير واحد. ثم جاء من استدعانا إلى ان نتحول إلى غرفة أخرى، كانت هي مقرّ -الخبير-، وبعد نحو ربع ساعة من الاستجواب شبه -الأمنيّ-، أجراه معنا بخبرة فائقة وذكاء عميق، بدا فيه يتّخذ سلوك شاب دمث سمح طيّب. حاول أن يقنعني بأنني يجب أن أرجع إلى أمريكا لجلب وثيقة مصدّقة تثبت لجوئي السّياسي فيها.
ابتسمت بكل تقاطيعي: -وإذا جلبت الوثيقة من واشنطن، ماذا ستكون النتيجة؟-.
-ترجع ثانية إلى هنا، فنزودك بالأوراق اللازمة؟-.
اندفعت أقهقه، وشاركني في القهقهة صباح قدّو، مما جعل عيني الخبير تلمعان خبثًا. لم أستطع الردّ حالًا، فكّرت قليلًا، حدّقت فيه: أتظنّ أن الذّهاب إلى أمريكا والرّجوع منها يتمّ خلال نصف ساعة باستعمال سيارة إجرة؟
دماثته المصطنعة دفعته إلى الابتسام ليستمر في خداعي، كما خدعني قبل

قليل: كيف إذن نثبت أنّك لاجئ في أمريكا.
أخرجت جواز سفري الأمريكيّ: -ألا يكفي إبراز جواز سفري-.
هزّ رأسه: -جواز سفرك أمريكي. صحيح-.
-أتقبلون به؟-.
-بالطبع-.
تجسم أمام عينيّ دليل يسكته، ابتسمتُ قلت: -الجواز يثبت أنّني عراقي وأمريكي معا-.
ابتسم، أجابني بذكاء نادر: -أنت على حقّ، جوازك يثبت أنك عراقي وأمريكي كما قلت، لكنا نريد وثيقة أمريكية رسمية خاصة بك تثبت أنك كنت عراقيًّا عندما لجأت، وأنهم قبلوا لجوءك في أراضيهم-.
تساءلت مع نفسي وأنا غارق بالألم، كيف؟ يهيّئون ويعدون أشخاصًا أذكياء مثل هذا الشاب، ويستخدمون ذكاءه، ومنطقه، ومناوراته، وألاعيبه لخدمة أغراض تسيء لا إلى المواطن بل إلى السلطة أيضًا؟
قلت: -حسنًا، لماذا لا تطلب دائرة الهجرة في الوطن، إلى وزارة الخارجية، كي تزوّد القنصليّة من يراجعها بالتّعليمات كاملة ليوفّر المواطن تكاليف رحلتين إلى الوطن، كل رحلة تثقل كاهل صاحبها بما يقلّ عن ألفي دولار لبطاقة الطّائرة فقط ذهابًا وإيابًا.
هزّ رأسه وهو يبتسم: هذه ليست مشكلتنا، لقد عقّدنا الرّوتين لأن الأكراد والمسيحيّين زوّروا المستندات وحصلوا على حقوق غيرهم. فأخذت أضحك.
-لماذا تضحك-.
-هذا تمييز عنصري ضد المواطنين الأكراد والمسيحيين. يجب ألا تردده. اعتدنا نحن العراقيين لوم غيرنا وسبّهم لنغطي تقصيرنا ونفاقنا. نحن نبدد

مياه دجلة والفرات ولا نقوم بأيّ جهد لخزنها والحفاظ عليها لكنّ لساننا أطول من ذراعنا في اتهام الأتراك ودول الجوار، ونحن نسمح لدول الجوار أن تقضم وطننا جزءًا جزءًا ولا نقف بوجههما لكننا نتباكى ونصرخ في أجهزة الإعلام والصّحف ونسبّها. نحن نغطس في الرّشوة واللصوصية والفساد والقتل العشوائي حتى القعر ونسب من يتعاطاها، لكننا لا نقدم المرتشين، اللصوص، القتلة، المليشيات، إلى المحاكمة، نحن نسب الإرهابيين والمخربين كل ساعة ودقيقة ولحظة، لكننا ندع الحدود مفتوحة مع دول الجوار لتدخل شاحنات المتفجّرات بحريّة، بعدئذ نقوم بسبّ تلك الدول صراحة، ونتهمها بالتآمر علينا ثم لا نفعل شيئًا، لا نهاية لقائمة النفاق والكذب والدجل. موظفوا القنصليّة في ديترويت يضعون مسؤولية تعقيد الرّوتين على عاتق الأكراد، وأنتم تضعونها على عاتق الأكراد والمسيحيين، بينما هي مسؤوليّتكم أنتم وليس أحد سواكم، لو خفّفتم إجراءات المعاملات لنال كلّ حقه.

امتقع وجهه، أصبح كالحًا، لم يجب. نهض، غادر الغرفة. خرجت تعبًا يسحقني الحرّ والعطش، وتضبب أشعة الشمس رؤاي.

في رحلة الرجوع إلى شيكاغو حلّت عليّ لعنة التأخيرات. تأجلت الطائرة في مطار أربيل اثنتي عشرة ساعة. ساعتان ونصف في مطار أتاتورك في إسطنبول. ثلاث ساعات في مطار زيروخ. حينما وصلت إلى شيكاغو، ثم إلى واشنطن، كان كل ما ادّخرته قد تبخّر. لم يبق عندي سوى مئتي دولار. لجأت إلى صديقي أحمد ليسعفني.

كان من المستحيل لي أن أصل إلى السفارة العراقيّة في واشنطون لولا اتصالي بتلميذتي السابقة -ميغ- مرة أخرى. وضعت لي خطة ممتازة، نفّذتها

بحذافيرها. لكنّ السفارة العراقية لم تزودني بوثيقة اللجوء حالًا، بل طلبت ترجمتها إلى العربية أولًا، بعد ذلك كان عليّ أن أصدّقها في شعبة تصديق الوثائق في واشنطن. نصحني موظف صغير السن في السفارة تعاطف معي بعد أن اطّلع على ما عانيته من عذاب، أن أذهب قبل السابعة صباحًا.
فززت. كدت أضحك وأنا أردّد: -لماذا في السابعة؟-
-لأن الازدحام شديد-.
-ازدحام شديد في واشنطن؟-
ضحك وهو يهزّ رأسه: -لا تصدق؟ حسنًا اذهب لترى!-
لم أحفل به، وصلت في السابعة والنصف صباحًا. فوجدت دورًا يمتدّ نحو مئتي متر. السيدة التي أمامي في نحو الخمسين من عمرها. يداها الاثنتان مشغولتان، اليمنى تحمل أكثر من أربعين معاملة، وتتعلق باليسرى حقيبة جلدية منفوخة حمراء، سألتها: لماذا هذا الازدحام؟
ضحكتْ ضحكة خافتة، كأنها تسرّني: ألا تدري؟
-لا.
-انظر إلى وجوه المراجعين-. قالت ذلك وعيناها الصفراوان تلمعان، وهي تهزّ رأسها كي لا تسقط خصلات شعرها الذهب على عينيها، لانشغال كلتي يديها.
التفت إلى الخلف، حدّقت بالوجوه، لم أرَ سوى بضعة أشخاص يبدون كمواطنين أمريكان، كان على وجوه الآخرين سمات من العالم كله، بدءًا من اليابان فالصين حتى السكان الأصليين في الآمازون.
اختنقت. أغمضت عيني، أدركت أنني لن انتهي اليوم.
حدثت المفاجأة على غير توقّع. في الرابعة والنصف عصرًا. حصلت على

وثيقة جميلة، مصدّقة، ممهورة بشكل أثري، لا أحلم به. وثيقة أشبه بالوثائق التي كانت تصدر من بلاط هنري الثامن ملك بريطانيا. حين نظرت إليها قرأت ملخّصًا لسجل تاريخي فريد. شمع برتقالي لا أحمر. ختم دائري جميل. أوراق صفراء رسميّة عليها صورة علم الولايات المتحدة ملوّنا. الوثيقة في غلاف أصفر جيد أنيق. لكني لم أتسلمها إلا بعد أن دفعت رسما تجاوز خمسة وأربعين دولارًا.

لم يكن هناك بدّ من الرجوع إلى العراق. وجدت نفسي في الموصل. ساعدني صديق لي للحصول على بطاقة سكن في بيته، وعلى بطاقة تموين على عائلته. انشغل معي، قضينا نحو أسبوع نعمل بجد لإنجاز الوثيقتين. كنت متفائلًا جدًا في إنهاء المعاملة. قدّمت كل ما عندي إلى مديرية الأحوال المدينة مع شهاداتي القديمة الأصليّة، والوثيقة التاريخية الصادرة من واشنطون.

لم أتذكر من الموظفين سوى الطويل المتجهم. طلبوا مني أن أرجع بعد يوم واحد، ثم تكرر التأجيل مرة أخرى، ثم ثالثة، حتى اضطررت إلى الاتصال هاتفيًا بالسيد صباح قدّو الذي التقيته قبل شهرين هنا في الموصل.

قال لي، وهو يضحك: ماذا تفعل إن كنت تقف قرب نار تحرقك؟

ابتسمت: رجاء لا تمزح.

-لا أمزح، أجبني-.

-أبتعد وأنجو-.

-افعل.

-أأترك إكمال المعاملة بعد كل هذا التعب؟-.

-لا. فكر-.

لم أدر ماذا أقول؟ سألته: ماذا تعني؟

-قلت فكر، تأجيلهم المتكرر أشبه بالنار. سيتكرر مرة وأخرى ربما يطول إلى مدة سنة أو سنتين حتى تؤدّي رشوة. إن دفعتها اليوم، تتسلم هوية الأحوال المدنية غدًا. فلماذا لا تنهي عذابك؟
-هل أنت متأكد؟-
ضحك ثانية: -لو لم أكن متأكدًا لما نصحتك، ادفع وتوكّل على الله؟-.
كرهت نفسي وأنا أدفع ثمانمئة دولار. ثم تسلمت هويّة الأحوال المدنية العراقية، الجديدة، ورجعت في اليوم التالي إلى أربيل. كانت السنة الجديدة ٢٠١٠ قذ بدأت قبل أيام.
دخلت مبنى القنصلية العراقية في شيكاغو وجدت نفسي أمام الموظف الأول الستينيّ، الذي تكحلت بمرآة عيناي أول مرّة دخلت القنصلية ابتسم ابتسامة كبيرة. شجعني.
حينما وضعت أوراقي على المنضدة، وضع يده عليها بتعاطف. فرحت. ابتسم، وهو يزوي عينيه ويضع فوقها ورقة فيها عنوانان. ثم أعطاني التعليمات بصوت دافئ مع ابتسامة: اذهب إلى هنا.
أشار إلى العنوان الأوّل. أضاف -هذا عنوان مصوّر، تأخذ أربع صور، هو يعرف الحجم المطلوب. -
ثم أشار إلى العنوان الثاني: -هذا مكتب لطبع الوثائق. أعطه شهادة الجنسيّة العراقيّة وسيقوم بطبع وثيقة كاملة، يملؤها بالمعلومات المطلوبة، يضع عليها صورك، بعدئذ تجلبها إلى القنصلية-.
وقفت في باب القنصلية. ديترويت غريبة عليّ، العنوان لا يكفي. احترت أي اتجاه أذهب! هممت بالرجوع للسؤال/ رأيت شابًا ضخمًا في الثلاثين يخرج. أريته العنوانين، سألته أيّ اتجاه، قال لي: -تعال معي، أنا مراجع

مثلك-.
كان يعرف أكثر مني، ظل صامتًا حتى تسلمنا الصور، واتجهنا إلى مكتب الطباعة الصغير، الخالي من أي كرسي يجلس عليه المراجع. لم يكن يتسع إلّا إلى سيدة محتشمة في أربعيناتها بنظارات كبيرة، وشعر كستنائي، كانت تطبع الوثائق، بجدية. مكتوب على لوحة أعلى رأسها: -٣٠ دولار لطباعة الاستمارة-
آنذاك ابتسم، وهو ينظر إليّ ويشير إلى اللوحة: -أعطينا المصور عشرين دولارًا، وسنعطي هذه ثلاثين دولارًا، اليس كذلك-.
-نعم-.
-ألف مراجع في اليوم-.
حدّقت به، لم أفهم: -ماذا تعني-؟
هزّني من كتفي: -فكّر، ألف شخص يراجع القنصلية في اليوم في الأقل، يأتون من بضع ولايات، ومئات المدن، فكّر-.
ابتعدت عنه: قل لي من دون أسئلة.
-عندك حق، ألف شخص يدفع كل منهم خمسين دولارًا، يعطون المكتب خمس دولارات فقط، ويعطون المصور خمسًا أخرى، هذا هو الاتفاق مع المكتبين، يبقى أربعين دولارًا، في نهاية الدوام يتجمع لدى القنصلية أربعين ألف دولار يوميًا يقتسمها الكبار-.
قال ذلك وأخذ يرقص، ويغني بصوت عالٍ: -بغداد مبنية بتمر، التقط وكل خستاوي-.
طفقت السيدة تضحك وهي تطبع.
قدّمت أوراقي مع الاستمارات الجديدة كاملة، تسلمها الرجل الستيني

بجدية واضحة. استدار. اختفى في ممرات المبنى. ثم رجع بعد بضع دقائق. وضع الأوراق كلها أمامي كما هي. قال لي وهو يبتسم وينظر إليّ نظرة ذات معنى: كم مرة جئت إلى شيكاغو؟

-لماذا؟-

هزّ رأسه: أجبني. لا تخشى شيئًا.

-أربع مرات-.

-كم مرة ذهبت إلى واشنطون؟ وإلى العراق؟-.

-مرتان لكل منهما-.

-كم صرفت؟-.

-٦٨٠٠- دولار.

قال ذلك ثم انتزع هوية الأحوال المدنية الجديدة من الأوراق بيمينه، هزّها أمام عينيّ، ثم هتف: -هذه الهوية لا قيمة لها، كتبوا اسم أمك مع اسم أبيها في سطر واحد، بينما كان يجب أن يكتبوه بسطرين. كما هو موجود في شهادة الجنسية العراقية وهوية الأحوال المدنية القديمة، هذا يعني أنها غير معترف بها.

-وما العمل؟

-لا أدري!-

-أتعني أنني لا أستطيع أن أثبت أنني حيّ؟

الساحر

محمود سعيد

أسمعُ حديثه الغريب، وأنا أدفع الكلب فائق الجمال، بجسده الضئيل، وشكله الذي يشبه دبًا وارف بياض ناصع. أمامي على النّقالة. وهما يتحدّثان. لم أصدّق أذنيّ. أهذا معقول؟ هززت رأسي مذهولًا، كمن أصيب بصعقة كهربية. لا. هذا مستحيل! إذًا فما تفسير هذه الظّاهرة؟ هل يستعمل هذا الرّجل جهازًا غريبًا متطّورًا يسمح له بالكلام مع من يشاء أينما كان؟ ووقتما يشاء؟ لكن لا. لا يوجد جهاز كهذا. لا أستطيع أن أخدع حواسي، لا. لا أستطيع تضليل عقلي، أنا أسمعهما بأذنيّ هاتين اللتين في رأسي. كدت أنفجر. لا، لا يوجد احتمال حتى ولو بنسبة واحد بالألف.

اسندت مرفقي على ذراع النّقالة، وتوقّفتُ عن دفعها، منتظرًا انتهاء العمليّة الثّالثة. كان اهتمامي بالسّيّدة الحسناء، يزداد لحظة بعد لحظة منذ أن رأيتها في الصّباح. شعر أصفر، ذهب، صافٍ، ينتشر حول كتفيها، بفتنة تخلب الّلب، أسلاك حرير نادر لا يقدّر بثمن، أستنشق العطر النّادر يفوح منها بسخاء. لا بل تخيّلت نفسي وأنا أستلقي على ساحل -البهاماز- تحت أشعة شمس ساخنة وأستظلّ بخيوط حرير صفر تنسدل من شعر هذه الحسناء وهي تحنو عليّ لتحجب سهام نيران الشّمس التي تستهدف حدقتيّ لتحرقهما. ما أسعد مريضها وهو يراها تعطف عليه! تسبغ عليه مثل هذا الحبّ الهائل. هكذا هي الحياة، على المرء أن يرضى بقدره. يوجد من يولد على بساط من حرير، يحيطه الحبّ والحنان طيلة حياته كمريض

هذه الفاتنة، وهناك من يكافح منذ أن تلده أمّه حتى مماته من دون أن يجد من يشفق، أو يحنو عليه بنظرة واحدة مثلي أنا.

لا بدّ أنّها فاحشة الثّراء، أبسط عمليّة في مستشفانا الصّغير تكلّف عشرة آلاف دولار. كانت تبكي، لم يتيسّر لي النّظر إلى عينيها، لأتبيّن لونهما، قدّرت أنّهما زرقاوان، كمياه بحيرة -متشغن- العظمى التي تقع إلى اليسار، على بعد أقلّ من كيلومتر واحد، شرق المستشفى التي أعمل بها. البارحة فقط سقط الثّلج مبكّرًا، مازلنا في الأسبوع الأول من كانون الأول، ديسمبر، غمر الثّلج كلّ ما تقع عليه العين، هبت الرياح شديدة قارسة، انخفضت درجة الحرارة إلى ما تحت خمس عشرة مئوية تحت الصّفر. ابتأستُ، انقبضت روحي، أستختفي الشّمس؟ أسيجتمع زمهرير لاذع مقيت وذلك اللّون الرّمادي المقرف؟ لا هذا كثير! لكنّي فوجئت صباح هذا اليوم بأشعّة الشّمس تزغرد، بالضّوء يغمر الكائنات، يعطي الثّلج صفاءً لا يحلم به. من يصدّق؟ شمس مشرقة مع درجة حرارة متدنّية كهذه؟ وجدت متّسعًا من الوقت عندي، نحو نصف ساعة قبل بدء العمل. رنّ بقوّة هاتف داخليّ -أسرع. انتهز الفرصة، إنّها قليلًا ما تحدث-. ارتديت ملابسي على عجل. خرجت من الشّقّة وكوب القهوة السّاخن بيدي، وألسنة بخارها الأبيض تلتف على بعضها مشبّعة بأرومة مذاقها الدّفئ اللّذيذ تخترق خياشمي، تنزل إلى أعماقي.

تمشّيت إلى ساحل البحيرة. كان الهواء باردًا لكنّه ساكنًا، وهذا ما يجعل برودته محتملة. لولا الشّمس لما تمشّيت، كنت أتمتّع بأشعّتها الوفيرة تضيء مياه البحيرة المتجمّدة القريبة إليّ، ينتشر ثلج بسمك نحو إنج واحد على سطحها الجليديّ، فيفقده لمعانه، لكنّه لم يستطع التّأثير على أعماقها

البعيدة، فقد ظلّت زرقاء لازوردية.
ثم تركت البحيرة أسرعت إلى المستشفى قبل أن يبدأ الدّوام. لفت انتباهي وأنا ادلف إلى شارع كلارك ذلك الخطّ الطّويل الّذي ينظّم نحو مئة شخص يقفون واحدًا بعد واحد، ينتظرون دورهم للولوج إلى برتقالة، بالرّغم من الثّلج والبرد. ما إن شممت رائحة الفطائر النفّاذة حتى هجم الجوع إلى معدتي فجأة. يحدث هذا لي كلّ يوم منذ أن بدأت بالعمل في المستشفى الملاصق لبرتقالة، لكن مشكلتي هي أنّني لا أستطيع الذّهاب إلى مطعم وحدي، إمّا أن أعدّ طعامي في شقّتي، أو أدعو أحدًا ما ليشاركني متعة مرافقته أولًا، والتلذّذ بالطّعام ثانيًا.
بعد استعراض جميع المعارف دعوت الشّقراء سو هي وزوجها ماكدونالد لمشاركتي وجبة الإفطار في برتقالة. لم تكن وجبات المطعم مميّزة عن غيرها مطلقًا لتبرّر وجود المئات ينتظرون من السّابعة صباحًا في دور طويل، شتاءً، صيفًا، في البرد، الزّمهرير، الرّيح العاتية، المطر، الشّمس الحارقة إلخ. ما يميّز المطعم هو عصير برتقال طبيعيّ يعصر أمامهم فقط.
ثم غمرتني أعباء المستشفى، العمليّات، أوامر الطّبيب الصّيني، التّعقيمات التي تسبق العلميّات، روائح المطهرات النّفاذة، استقبال الجرحى، الاعتناء بهم، طبيبة التّخدير البدينة، التي تُثير عنوستها رثائي، ألمي. يا لجمال تقاطيعها! وجه حليبي صافٍ، خدان أسيلان مع انتفاخة غير ناشزة، عينان سوداوان كبيرتان لامعتان، شعر أبنوسي سرح ينزل حتى أعلى صدرها. يا لطيبتها. يا لرقّة نبرات صوتها! يا لكلماتها المؤدّبة السّاحرة! لكن مع الأسف. أين الزّوج؟ أين الخليل؟ من يقبل بجبل من اللّحم في فراشه؟ مرّة حلمت بها تنام قربي ثم انقلبت عليّ، ضاق نفسي، أردتُ أن أقول لها دعيني

أتنفّس، لكنّها نفخت نفسها، أصبحت كبالون كبير يسدّ فراغ غرفة النّوم كلّه، حاولت أن أنساب من تحتها، لكنّي فشلت، فتحت فمي لأصرخ لكنّ صوتي رفض أن يطاوعني. لست أدري كم استمرّ ذلك الكابوس اللعين. منذ تلك اللحظة أخذت أبعدها من ذهني كي لا يقتلني كابوس آخر.

لم أدرِ كيف مضى الوقت! خمس ساعات كاملات مرّت كدقيقة واحدة، لم أشعر بها قطّ. تنفّست بارتياح. هذه هي ميزة العمل في خدمة المرضى. ما إن تتعاطف معهم، ترأف بهم، تساعدهم حتى يصبحوا مخلوقات رائعة تلتهم وقتك، تبعد الملل عنك، تغمرك بعواطف إنسانيّة رقيقة.

وإذ وجدت دقيقة خالية، استيقظ عندي هاجس قويّ، بدأت أتلهّف لرؤية عيني الشّقراء، لتكتمل الصّورة أمامي، سروال أبيض، صدريّة من الأوركنـزا السماويّة، -بلوزة- من نفس النّوع واللّون، يندمجان، يغلّفان صدرًا، لا، لم يكن صدرًا، بل عالم فريد لمعجزة تمشي على الأرض.

كانت تبكي بمرارة، تمسح عينيها بين الفينة والأخرى بهدوء ودقّة محسوبة كي لا تفسد زينة جمال عينيها، اللتين تخفيهما بانحنائها على مريضها المحبوب العزيز. لم أشاهدها ترفع رأسها قطّ.

لولا اضطراري لدفع النّقالة إلى غرفة العمليّات لتوسّلتُ بألف حيلة، وحيلة للتّقرب إليها. قبل أكثر من سنة، قدّمتُ علبة محارم ورقيّة لفاتنة ثانية، كانت تبكي هي الأخرى، وعيناها مختفيتان في تنكيسة تشبه حركة هذه. مددت يدي بالعلبة، قلت: رجاءً، تناولته مني. ردّت وكأنّها تناجي حبيبها: كم أنت رقيق! اختطفت نظرة إلى عينيها، كانتا رائعتين. صفراوان واسعتان، محاطتان بخطّ أسود في حدقتين صافيتين كعيني الدّيك.

تجاذبنا حديثًا طويلًا، وأنا أهيم بموسيقى صوتها الرّنان. لكنّي وأنا أفكر

في هذه التي تقف الآن مع مريضها بجانبي دوّمتني الحيرة. لا أدري كيف أخترق عالمها. ثمّ حدث ما رجني بعنف. أشبه بهزّة أرضيّة زلزلت وجودي. اقتلعتني موجة سحر. كأنّي سقطت من طائرة في المحيط العارم الهائج، فتلقفني دردور هائل أغرقني في سحر فاتن، في حديث لطيف غريب، سمعتُ الحديث بالعربيّة تارة، وبالانكليزيّة تارة أخرى. من يصدّق!
إنّها معجزة بحقّ، كان صوت الرّجل وهو يخاطب مريضه عميقًا هادئًا قويًّا: كم مرّة قلت لك: يا معتوق، يا معتوق لا تركض وراء شهواتك؟ لماذا لا تتعظْ! لا أستطيع أن أذهب بك كلّ يوم إلى طبيب! أحمد الله أنّك لم تصب بالإيدز! أكّدوا لي، العمليّة بسيطة، ليست غير خمس دقائق فقط. تصوّر، تخدير موضعي. ثم ماذا تريد؟ أطفالًا؟ أنسيت نفسك؟ أنت مثليّ الجنس! لماذا الأطفال؟ أيّ مثقف يريد أطفالًا؟ المجنون فقط. ما لك ووجع القلب؟ أنت شاعر مرموق، فزت بجائزة كبيرة وتريد أطفالًا؟ تريد صداعًا لا ينتهي؟ كم كنتَ معجبًا بالمعريّ؟ كم كنت تمتدحه في مضارب الشيخ رشيد؟ أتستحقّ الحياة أن نعذّب بها الآخرين؟ لماذا لم أتزوّج أنا؟ أنت تعرف؟ ألم تتّفق آراؤنا على أن الحياة هباء ولا معنى لها كالموت سواء بسواء؟ ألم نتّفق على أن الإخصاء خير للحيوان والإنسان كليهما، كي لا يزيدا عذاب الأبرياء! لا تبتئس، الخطأ خطؤك، لست بصغير؟ كم مرّة نصحتك، لم تستجب، أنت في الخامسة والأربعين. ثم بعد كلّ هذا أنت أحرجتني كثيرًا، ما إن ترى ضيفًا وسيما عندي حتى تأتي وتحكّ مؤخّرتك به، جعلتني في موقف عصيب غير مرّة عندما نتمشى في الشّارع، وأنت تريد أن تعرض مواهبك أمام أيّ رجل يعجبك! هذا إحراج مؤذٍ خطير تحملته عشر سنين، وآن أن ينتهي.
ماذا أسمع؟ المعري، الشّعر، الفلسفة هنا معي في مستشفانا، في شيكاغو؟

إنّه السّحر.
حينئذ حدّقت بالرّجل. نحو ستة أقدام ممتلئ، مع كرش صغير. ملابس أنيقة، بذلة زرقاء غامقة، رباط أحمر، شعر كليّ البياض في جبهة عريضة أقرب إلى الصلع، عينان زرقاوان كبيرتان، مع ملامح تميل إلى التّجهم، نظرات جادة.
ثم استفقت من الهزة، حدّقت بهما، وأسئلة لا حدّ لها تتدفّق في رأسي، سؤال ينطح آخر، يزاحمه: كيف يُقتلع شاعر عظيم من هناك ليستقرّ مريضًا فويق نقّالة هنا في مستشفانا في شيكاغو، على بعد عشرات آلاف الأميال؟ من هو؟ متى حدثت الحادثة؟ كيف جرت؟ من هو هذا الرّجل المرافق؟
آنئذ التفتِ الشّقراء، قالت للرّجل، وهي تشير إلى مريضه: أهو نبيل؟ أله شجرة عائلة؟
الحمد لله، رأيت عينيها بالرّغم من تأثير الدّموع، ليست بزرقاوين، ولا خضراوين، ولا صفراوين، فيهما من كلّ لون شعاع خفيف، تتألّقان كنافذتين ساحرتين رغم البكاء الطّويل الذي مزّقني، ولا شكّ أنّه مزّق مريضها.
بصعوبة سحبت نظراتي، اكتشفتُ أنّني حدّقت فيها أكثر من اللازم. ملامحها آسرة، تقاطيع تتناسق في وجه ملائكيّ، لم يفهم الرّجل، ولا أنا، وربما حتى المريض، ماذا كانت تقصد؟ بسؤالها: أهو نبيل؟ أله شجرة عائلة؟
ابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم كرّرت سؤالها الغامض وهي تنظر نحو الرّجل باهتمام وتلتفتُ نحوه: أهو نبيل؟ أله شجرة عائلة؟
لم يدرك الرّجل قصدها، خـمّنتُ لجمالها الفائق ومن سؤالها أنّها ربما تنحدر من أسرة اسكتلنديّة الأصل. اسكتلندا تنفرد عن باقي بريطانيا وأروبا حسبما قالت لي البروفيسورة المرموقة د. جاكلين سبنر. هناك لكلّ عائلة

علم، وطراز لباس تقليديّ، وشجرة عائلة، وو، ثم أدركتْ أنّها لم تستطع أن توصّل الفكرة الّتي كانت تفكّر فيها. صمتتْ برهة، وهي تنظر عبر زجاج الشّباك إلى شارع كلارك حيث تتطاير حبّات الملح الزّرق تحت عجلات السّيّارات فترتطم في الحيطان القريبة. نبرت موضّحةً: كيف يكون عمره خمس وأربعون سنة ولا يكون من عائلة متميّزة؟

شعرتْ بارتياح لأنّها عبّرت عما في صدرها، بوضوح كافٍ. أبعدها الاهتمام بالمريض عن آلامها. ابتسمتْ وهي تهزّ رأسها وتحرّك يديها: كيف؟

تنبّه الرّجل، ثم تسمّرت نظراته في وسط الشارع، كأنّه يسترجع أمرًا مهمًّا في داخله، التفت إليها بعدئذ، ابتسم: هه، أنت صادقة، هذه النّقطة لم أفكّر فيها، لكنّها ضمن القصة.

لم أفهم ما عنى، ثم انطلقتْ منه ضحكة قصيرة، كأنّه وقع على مفارقة لطيفة، لكنّ نظراته عادت جامدة أقرب إلى التّجهم. قال وهو يشير إلى المريض، فتعلّقت نظراتنا فيه: لا. إنّه من أصل وضيع، لكنّه شاعر.

وبدا جليّاَ أنّ المرأة ابتعدتْ كليّة عن أشجانها، ابتسمتْ، لا بل قتلتْ ضحكة خافتة، وهي تنظر إلى مريضها، وكأنّه سيغضب إن ضبطها تمرح وهو سيواجه عمليّة مهمّة.

التفتَ الرّجل إلى المريض، ثم انحنى فبدت نظّارته ذات الإطار الأسود العريض في جيب قميصه الأبيض النّاصع، خاطب المريض بالعربيّة: معتوق، عزيزي، لا (تزعلْ)، أبوك رجل مغمور، كان بيته ماخورًا في الكويت.

صمتَ، انطبعتْ ابتسامة ماكرة بعض الشّيء على شفتيه، ثم أردف: كانت أمّكَ الموقّرة تديره بخبرة عريقة موروثة، لا حاجة للكلام عنها لـ

وإذ رأى نظرة المريض المتعكّرة، استقام جسده ثانية، زرّر سترته، عادت

نظراته جامدةً. التفتَ إلى الشّقراء، كانت متحفّزة للسّماع: في الحقيقة لا أعرف بالضّبط، أنا لم ألتقِ أباه سوى دقائق، دقائق معدودة، ربما كان من عائلة مرموقة، لكنّ اللّغط عن مهنته الوضيعة كان ظاهرًا للعيان.

رافق كلامه بهزّة رأس، وبطريقة عكست عدم وثوقه بالقضيّة، أردف وهو يحيل الأمور إلى قوىً غيبيّة، كمعظم سكان الشّرق الأوسط: كما يقولون هناك، الله أعلم.

- ما اسمه؟

- معتوق؟

ردّت المرأة: متوك.

- لا معتوق.

- يا له من اسم صعب، مااتوك؟

- لا.

- مفتوك؟

- لا.

اختفى حزنُها كليّة انفرجت ملامحها بشكل مرح، ثم ضحكتْ وهي تضع يدها على فمها، كمن تستنكر فعلها، أخذت تردد: -مفتوك-.

وإذ صمتتْ، بدتْ كمن تحاول أن تتغلّب على صعوبة لفظ العين في داخلها، قال الرجل بهدوء: اسم عربي؟ فيه حرف يصعب علينا نطقه.

- لكنّك تنطقه.

ابتسم، مدّ كلتا يديه إلى الأمام، كمن يدفع شيئًا أمامه: لأنّي قضيت أكثر من ربع قرن هناك، أتكلّم، أكتب، أقرأ العربيّة بطلاقة، دائمًا أتردّد على الكثير من الدّول العربيّة، مصر، سوريا، العراق إلخ، لكنّي في البداية كنت أجد

صعوبة كبرى في نطق الكثير من الحروف مثلك.
لفظ الرّجل كلمة -معتوق- جيدًا، لم أستغرب، رأيت الكثير من المستعربين، والذين يعرفون العربيّة.
- كم سنة وهو معك؟
- أكثر من عشر سنوات، منذ حرب الخليج الثّانية، أقصد بعد تحرير الكويت، هناك التقيته.
ثم نظر إليه: أليس كذلك؟
أغمض المريض عينيه مؤيّدًا. عادت المرأة إلى النّقطة نفسها: إذن كيف يكون عمره خمس وأربعون سنة ولا يكون من سلالة نبيلة معروفة، معمرّة؟
- إنّها قصّة طويلة، كتبتها آنذاك في شيكاغو تريبيون.
صعقتْ المرأة فجأة، هتفتْ بقوّة: إذن أنت صاحب الكلب! أنت مسؤول الـCIA؟ مستر كوكلند ميلر! يا للمصادفة! أيّ ريح طيبة!
استمرّت تقهقه، ثم ضربت قبضة يمينها براحة يسارها، فأخرجت صوتًا ملفتًا: يا لها من مصادفة!
هزّ رأسه غير مرّة: نعم، أنا هو.
زال حزنها عن مريضها تمامًا، انفرجت أساريرها، بدت فائقة الجمال وفي قمّة المرح: منذ أن رأيتُكَ أخذت أتساءل مع نفسي: أين رأيت هذا الوجه؟ أين رأيت هذا الوجه؟ من المستحيل أن يتذكّر المرء الملامح بعد أكثر من عشر سنوات!
ابتسم الرّجل، حاول أن يكون مقنعًا: أتّفق معك. إن الذّكرة لتعجز أحيانًا.
- لكنّي ما زلت لا أصدّق.
- حتى أنا.

تذكّرتُ أنا أيضًا القصّة الغريبة في اللقاء التّلفازي، وأنا أراقبهما، وأنصت إلى حديثهما، لكنّي مثلها لم أتذكّر وجه الرّجل.

كان محاوره في البرنامج التّلفازيّ مشهورًا في الأوساط الدّعائية، متفرّدًا، نوعيًّا، يقدّم عروضًا شيّقة، مع شخصيات سطعت وخبت، أو ظلّت في بؤرة الأضواء. كنت وما زلت معجبًا بسعة اطلّاعه، وطريقة استوجاباته، وانتقائه الأسئلة. كان في رأيي هو الأفضل بين مقدّمي البرامج، رغم أنّ هناك عروضًا أخرى شهيرة كثيرة تنافس عرضه لكنّها سطحيّة، تخلو تمامًا من العمق والفكر والثّقافة. أسئلته منتقاة ذكيّة، تصل إلى قلب الحقيقة بلمحة سريعة. عندما يطرح السّؤال يدع الضّيف يتكلّم، لا يقاطعه مطلقًا إلا إن رآه ابتعد عن الموضوع، فإن قرّر تنبيهه، تدّخل وبشكل لائق وبمنتهى الأدب. مما بقي في ذاكرتي عن السيد كوكلند ميلر في المقابلة، أنّه كان آنئذ رشيقًا، أنيقًا، بدا في السّبعين من عمره. فأخذت أدقّق النّظر فيه من دون أن يشعر، وللمفاجأة لم أرّه قد كبر عما قدّرته في تلك المقابلة التّلفازية كثيرًا. بدا الآن في السّبعين أيضًا. لم يظهر في ملامحه شيء من أمراض الشّيخوخة. صافي الذّهن أصغر عمره الحقيقي بعشر سنوات، حسبما تكشف عنه معلومات الشّبكة العنكبوتيّة.

تلك الحلقة من ذلك البرنامج الشهير الذي ظهر فيه السيد كوكلند ميلر كانت أكثر من ناجحة، أثارت أسئلة لا حصر لكل من شاهدها، من مثقّفين وغير المثقفين، فأصبحت حديث الصّحافة، ونشرات الأخبار، وكتاب الأعمدة المهمّة في مئات الصّحف في الولايات المتّحدة، وفي بعض الصّحف الأوربيّة. اعتبرت تلك الحلقة علامة فريدة في الإعلام الأمريكيّ. وقرّرت عشرات القنوات التّلفزيونّة إعادة نشر الحلقة، وفي نهاية ذلك العام أشارتْ إليها

الإحصاءات كقفزة متطوّرة استثنائيّة في الإعلام التلفازيّ، وأُطلق على معتوق -المعجزة المحيّرة- بالرّغم من غموض الظّاهرة، وغرابة الحوادث التي رافقتها. والتي خلت من أيّ تفسير لها إطلاقًا. ثم وَضعت أشهر مجلّة في الولايات المتّحدة صورة السّيد كوكلند ميلر ومعتوق على الغلاف الأول، ووضعتْ في زاوية الغلاف الأيمن صورة الكرامافون القديم، علامة -صوت سيده- من دون أيّ تعليق.

كان يزاحم ذلك الخبر أخبار أخرى تتعلق بوطني، أخبار خدّرتني، أثر الأحداث العاصفة التي اجتاحت مدن العراق: قصف، دمار، مذابح، مآسي.

ولولا أن ذكرت الحسناء التي تقف أمامي اسم كوكلند ميلر لما قدحت ذكرياتي. كوكلند ميلر بطل قصة أطفال، في قراءة المدارس الابتدائيّة في بلدي، ما زالت عالقة بأذني، من هنا ارتبط الاسم الجديد بالقديم في الذاكرة، تصورت لحظة المقابلة معه أنّها قصة مزيّفة من أحابيل السّياسة، لإبعاد الرأيّ العام عن مآسي الحرب.

آنذاك فُتح باب غرفة العمليات، فاندفعت الشّقراء إلى النّقالة الخارجة، وعليه مريضها، هتفت بجنون، وهي تنظر إلى الممرّضة: أهو بخير؟

لم يجبها مساعد الطّبيب كيم كين سو الذي خرج من غرفة العمليات ووقف إلى جانب الممرّضة، بأيّ كلّمة، ساهم بدفع النّقالة إلى الأمام، وتقاطيعه جامدة، وعيناه ساهمتان في اللا مكان. هجمتْ الحسناء على المريض، أشبعته تقبيلًا. كان ما يزال تحت تأثير البنج. انحنى كوكلند ميلر قليلًا نحوها، سأل: ما به؟

التفت إليه والحزن ما زال يعتم عينيها: اِلْتهاب رئوي، سحبوا منه ماءً في الرئة.

ثمّ ظهر في لهجتها شيء من المرارة مع كراهيّة واضحة أشبه بالحقد: جوّ شيكاغو المتقلّب، التعس، سيكون بخير، أكدّ الطّبيب ذلك، إنّه أمير من سلالة ملكيّة، عندي شجرة العائلة، أصله من فرنسا، سيعمّر من دون شك.
كنت أراقب الضّوء الأخضر، فوق باب العمليّات، لأدخل بالتّالي، لكن نباح ثلاثة كلاب ارتفع في الشارع، خارج المستشفى، وتوقّعت أن يأتي الدّكتور واجنر ليطلب مني أن أذهب لأتكلّم مع أصحابها، لكنّي لم أره، لا هو ولا مساعده، وإذ اطمأنّت المرأة على مريضها، ابتسمت من جديد. فظهرت تقاطيعها الجميلة الجذّابة لولا احمرار بسيط في عينيها من أثر البكاء.
يتنفس مريضها الخارج من العملية مغمضًا عينيه بهدوء وعمق، كأيّ حيّ تحت تأثير المخدّر، بينما لاح شيء من الفزع في عيني المريض الراقد على محفّتي، وهو يتوقّع أن أدفعه بين لحظة وأخرى إلى غرفة العمليّات.
تركتْ الحسناء مريضها، ربتت على وجه معتوق، قالت: إنّه خائف.
ردّ كوكلند ميلر: جبان.
- لا، ليس بالضّرورة أن يكون جبانًا، شُف هذه الصّور، كلّ من ينظر إليها يرتعب.
الشقراء على حق، الممرّ حتى غرفة العمليّات مليء بصور تشريحيّة ملوّنة: القلب، الرئة، الأمعاء، الكليتان، بقية الأحشاء الدّاخلية. انتقدت ذلك أمام الدكتور واجنر، وطبيب العمليات لينوردو، من يرى هذه الرّسوم وهو سليم يرتعب، فما بال المريض؟ لكنّهم لم يلتفتوا إليّ، قالوا لي: لا يربط المريض بين الصّورة والعمليّة قطّ. تناول كيم كين سو، النّقالة مني، لم يكن يظهر من وجهه سوى عينيه، وأذنيه الحمراوين، إذ كانت الكِمامَة تغطّي فمه، وحنكه، بينما احتلت القبعة البيضاء جبهته حتى حاجبيه، لكنّه عاد وتركها

قربي ثم اختفى، فظللت واقفًا أراقب المريض.
نظرتِ الْمرأة نحو السّيّد كوكلند ميلر: حاولت الاتّصال بك حينئذ، لكنّ شيكاغو تريبيون لم تعطني الرّقم، قلتُ: قضايا أمنيّة، رجل مهمّ مثلك يجب أن يحموه.
ثم رفعت صوتها وأضافت بحميمية وبلهجة صادقة، كما لو كان يعاتبها، وابتسامة واسعة تحتلّ وجهها: كما أنّ اسمك لم يكن في دليل التّليفون.
هزّ ميلر رأسه، لم يعقّب، كان عليَّ أن أسحب النّقالة التي يرقد عليها الأمير، إلى غرفة الاستراحة، فقد تعهّدت الحسناء، أن تعتني به في البيت، بعد أن يفيق من تأثير المخدّر.
تعمّدت أن أسير ببطء، لأستمّع لحديثهما. غمرتني من جديد لذّة الغرابة في الحديث، وحينما اقترب صوتها منّي، بدأت رغمًا عني أهيم سابحًا في بحر عطرها الفوّاح. ثم توقفا فجأة ورائي. آنئذ كانت أذناي متفتّحتان لاستقبال أيّ حرف يصدر عن أيّ منهما: ماذا كنتِ تريدين أن تعرفي بالضّبط؟
من دون شعور التفتُ إليها، رأيتها محرجة، يتدفّق الدّم من وجنتيها الشّهيتين: أصحيح؟
لم تزد. اختلجت تقاطيع كوكلند ميلر، بدا شبه محرج، زمّ شفتيه، ربما كانت تلك الحركة طبيعيّة لديه. كان بالتّأكيد يصبغ شعره بين الحين والحين، إذ بدا معظم شعره أبيض ناصعًا، إلا أن نهاياته في القذال كانت بلون أشقر.
ثم عاد إلى طبيعته. ربما استبعد تأثير السّؤال: أتصدّقين؟ حتى أنا إلى حدّ الآن لا أعرف. معتوق مستهتر بشذوذه، لكنّه كان مفيدًا لي جدًّا، يستطيع أن يأتيني بما أطلب، يزودني بأخبار دقيقة موثوقة، لهذا أبقيته معي.
كنّا في مخيّم الشّيخ رشيد في عمق الصّحراء، نحو أربع ساعات عن أقرب

مدينة، وكنا نعتزم قضاء أسبوع في ذلك المكان، وكان التّوقيت مثاليًّا لأن تلك المنطقة كانت يبابًا لا نبت فيها، ولم أسأل إن كانت تلك الحالة دائمة فيها أم لا، لكنّي عندما دعاني شيخ القبيلة رشيد لضيافته -أسبوعًا- في مخيّمه، كدت أرفض، لكنّه شرح لي أنّ المنطقة التي يخيم فيها وقعت تحت تأثير أمطار غزيرة لمدة ثلاثة أيام، وكانت المياه وفيرة، قادرة لملءِ أخاديد كثيرة جعلت منها بحيرات صغيرة تنتشر هنا وهناك، وأنها باتت خضراء فاتنة، استهوت رعاة الماشية، والجمال، وبغمضة عين انتشرت آلاف الخيم لتحتلّ مئات الكيلومترات الخضراء.

أردت أن أعرف من الشّيخ رشيد، فيما إذا كان تجمّع عشائر تمتلك قطعان ماشية كثيرة في منطقة واحدة ربما يثير نزاعات بينها حول المراعي فيجعل من وجودي نقطة إحراج للحكومة الأمريكيّة. قال: لا، لأن ذلك المكان لم يكن عائدًا لأيّ منها أولًا، ثم إن المياه كثيرة لا خوف من شحتها إلى نهاية الربيع وبداية الصيف، ولو كان هناك بضع نخلات لأصبحت واحة.

كانت لدى أولئك الشّيوخ حدس عميق أن المؤثر الحالي الأكبر في المنطقة هو أمريكا، وأن تأثيرها سيبقى كما هو في الأمد المنظور. ولهذا كنت أتلقى دعوات وافرة، لكني لم أكن ألبي سوى القليل منها. كان لديّ مبادئ ألتزم بها، جعلتني أدرك الشّرور المستقبليّة التي تترتب على مثل تلك الدّعوات، فلا يمكن للمرء أن يرفض مناشدة من دعاه وأكرمه وفضله على الآخرين إن احتاج إلى المساعدة يومًا ما.

- هل زرت المنطقة؟

هزّ رأسه مؤكّدًا: نعم.

- لماذا تخليت عن التزامك بمبادئك؟

سهمت عيناه إلى رصيف شارع كلارك، كانت شابة صغيرة تحمل حقيبة حمراء، تحتضن شابا نحيفًا أطول منها بقدم في الأقل. بينما تعلقت عينا الحسناء بشفتيه.

- أأردت زيارة منطقة جديدة لم تتوقعها؟

نبر بهدوء بعد بضعة ثوانٍ: لا. بل كنت أريد توثيق علاقتي بالشّيخ رشيد، لأنّي سمعت أنه هو الأشهر والأقوى في المنطقة، لهذا ذهبت.

- هل كانت المنطقة جميلة كما وصفها الشيخ؟

مطّ شفتيه إلى الأمام، هزّ رأسه: نعم. بل أكثر مما أتخيل، قطعة من الفردوس.

ثمّ فتح عينيه كمن يريد أن يفضي بشيء مهمّ: رأيت هناك ثلاثة أشياء شديدة الجمال، أولها هي تلك البقعة، لم أجد طيلة حياتي منطقة أجمل منها، كنت قرأت عن الشعر العربيّ القديم، المتخم ببلاغة رائعة فاتنة، وكنت أسأل نفسي كيف برع أولئك الشعراء في خلق شعر عذب رقيق وهم يعيشون في صحراء قاحلة، ثم تبين لي بعد رؤية المنطقة أن فصول السّنة المختلفة تخلق من الجمال ما يكفي لإلهامهم، حتى لو كانت الفترة قصيرة.

ابتسمتْ، شعرتُ أنّها تقترب منه متعمّدة إغراءه: وما الثّانية؟

ابتسم، كاد يضحك: غروب الشمس في الغسق، لا يمكن أن تتعرفي إلى حقيقة الشّمس ما لم ترينها في الصّحراء. أستطيع أن أقول إن الشّمس ابنة الصّحراء، لا لحرارتها الشّديدة في النّهار وبخاصة في الصّيف، بل لجمالها وقت الغروب.

هزت رأسها تستحثه: والثالثة؟

- السّماء في الليل. قطعة من سواد عارم يحترق فيها اللؤلؤ والماس. سماء

واسعة سوداء. مليئة بالشّهب، تجذب نظرك مواقع النّجوم المختلفة حيث تختلف الفراغات بين نجم وآخر، وحيث تزدحم بقعة وتخلو أخرى. كثيرًا ما سألت نفسي لماذا أبدعتْ تلك البقعة من الصّحراء الأديان؟ لم يدرس هذا الموضوع أي ّكان، كلّ ما جاء من الماضي أن الله اختار تلك المنطقة على غيرها فأرسل إليها الأنبياء. لكنّي اكتشفتُ أن صفاء المنطقة من الغيوم يظهر النّجوم في الليل في وضوح ويدفع إلى التّفكير في الوجود، بينما لم يكن ذلك متوافرًا في أوروبا حيث الغيوم والأمطار تضطر النّاس إلى العيش في بيوت مغلقة تحرمهم من رؤية السّماء.

ثم ابتسم بمرح: كانت أجمل أوقاتي هي ساعة ما قبل المغيب، أقضيها على تل يبعد نحو ساعة من المشي على القدمين من مضارب الشّيخ رشيد، كان معتوق يرافقني، آنذاك ترجع قطعان الماشية من المراعي، يا له من منظر فريد، لا يمكن أن ينسى.

- لماذا؟

بدا حائرًا في اختيار الكلمات، وبعد بضع ثواني قضاها مفكّرًا التفت إليها، قال بحماس: حسنًا سأصف لك ما شاهدته، أينما تلتفتين وقت مغيب الشّمس ترين آلاف القطعان تنطلق من عمق الصّحراء متّجهة نحو مضارب أصحابها، لكنّ الفريد في الصّورة أن الأغنام تذهب وترجع بانتظام، من دون اضطراب، يسير في البداية كبش ضخم، يتبعه كبشان أو ثلاثة، ثم أربع أو خمس نعاج، ثم ستة إلى عشر وهكذا يزدادون، وعندما ترينهم من بعيد لا ترين فوجًا يتجه نحو هدفه كيفما اتفق، بل مثلّثًا ضخمًا من بضع مئات، إن لم يكن من بضعة آلاف، يزحف المثلّث كما لو كان جيشًا منظّمًا على شكل مثلثات ضخمة. وإن تلفتتِ يمنة أو يسرة رأيتِ عشرات القطعان المثلّثة،

تسير بتؤدة نحو هدفها. ذلك منظر لا يمكن للمرء أن ينساه قط.
- كم كنت تقضي على التّل كلّ يوم؟
- نحو ساعتين.
- تراقب القطعان؟
- أراقب القطعان نحو نصف ساعة فقط، أراقب غروب الشّمس، أسمع معتوق يلقي عليّ أشعاره، وأشعار الآخرين المشهورين.
أشارت إلى معتوق.
- أهو شاعر جيد.
- نعم.
قال ذلك وابتسم، ثم غمز بعينيه. كادت تضحك، لكنّه وضع سبابته على فمه، وانسحب إلى الوراء، فانسحبتْ معه. قرّب فمه من أذنها، فاضطررتُ أن أقترب منهما من الخلف بحيث لا يرايانى، همس: حسبما قال لي ناقد أدبيّ، أنّ شعره من الدّرجة المئة تحت الصّفر، وأن النّقاد الجادين يزدرونه ويستخفون به.
كادت تضحك لكنها بلعت ضحكتها، لكنها لم تسيطر على صدرها فأخذت تنتفض وهي تكبتُ ضحكها.
همستْ بمرح: قلت في المقابلة آنذاك، أنّه كتب رواية أيضًا.
هزّ رأسه: نعم.
حينئذ قدم مساعد الطبيب كيم، وانتزع النقالة من يدي بقوّة، ثم اختفى في الممرّ المؤدي إلى غرفة العمليّات. فأحس السيد كوكلند ميلر بارتياح، أخذ نفسًا عميقًا، قال بتهكّم: نعم، رواية.
ثم انفجر يقهقه من كلّ قلبه.

- لماذا تضحك؟
حسب قول ذلك الناقد: رواية خرائيّة.
لم تستطعْ كتم الضّحكة، فانفجرت بغتة، لكنّها سيطرت على نفسها وتظاهرت بالكحّة والسّعال.
ابتسم وهو يركّز نظراته على عينيها السّحرتين، وبصوت عاديّ خال من الهمس: أراكِ ما زلت مهتمة به.
هزّت رأسها بمرح: لا يمكن نسيان القصّة قط. لكن هل كنت تحبّ سماعه.
- تقصدين شعره؟
- نعم.
- لكنك قلت أن النقاد يستسخفون عمله!
- يجب عليّ أن أُكثر من السّماع، من الكلام، من القراءة، حسب الظّروف، حسبما تيسّر لي. وبمرافقتي معتوقًا ضمنت ذلك.
اقتربتْ منه أكثر مما يجب، حتى لكأني لحظت أن فخذها لامس سرواله، هل وقعت في غرامه بالرّغم من صغرها مقارنة به؟ لم تكن تتجاوز الخمسين بأيّ حال، بينما كان هو في ثمانيناته، ابتسمتْ بانشراح: في مقابلتك تكلّمت عن قضيّة جوهريّة، مجيء ساحر معروف.
انتقل الانشراح إليه، فابتسم بمرح: تلك هي القضيّة المهمّة.
نظر في عينيها الصّافيتين بعمق، فأفرحني ذلك، توقّعت أن سحر عينيها، والاقتراب منه سيدفعه لسفح المزيد من الذّكريات المثيرة حول معتوق، وكنت ألوم نفسي لقبولي مثل هذا العمل البليد في مستشفى لكنّي في تلك اللحظة حسدت نفسي على السّعادة الفجائيّة التي منحنيها الحظّ من دون أن أحتسب هذا اليوم.

جاء صوته هادئًا: في اليوم التّالي لحلولي في مضارب الشّيخ رشيد، أخذوا يتحدثون بشكل مثير عن السّاحر، كانوا يروون أخباره المدهشة، ويترقبون وصوله بشوق عظيم، وكانوا يحذرون بعضهم من إثارة غضبه، ويحضّون على احترامه، لكن الشّيخ رشيد كان أكثرهم تعقّلًا. كنت في مجلسه عندما روى أحد الحضور قصة، نقلًا عن أفراد وصفهم بأنهم ثقة، كشفوا ما حدث لقبيلة في ليبيا، أن القبيلة استدعته ليخلّصهم من شرور أحد أكبر السّاقطين -سالم سليمان-، وكان هو أحد أفراد تلك القبيلة، لكنّه نشأ دءوبًا على خيانة قومه، وتسريب أخبارهم إلى أعدائهم، واختلاق أحاديث مفبركة عنهم، ولّدت مصادمات أودت بحياة نخبة منهم، وألحقتْ بنسائهم سمعة سيئة.
كان بإمكان القبيلة التّخلص منه، لكن ذلك يؤدي إلى نزاع لا تحمد عقباه، مع قبيلة أخرى تزوج سالم سليمان إحدى بناتها، لكن السّاحر رفض، ثم أغروه بمبالغ طائلة، فغادر القبيلة ليلًا، ثم اكتشفوا في النّهار أن سالم سليمان مسخ قردًا، بمؤخرة حمراء. كان يفهم كلّ شيء، لكنّه لا يستطيع الكلام. عندئذ طفق معظم الحاضرين بالتّعليق على الخبر، وكنت أسمع حديثهم وأرى ردود أقولهم على القصّة. حينئذ سأل الشّيخ رشيد راوي الخبر: هل رأيت الحوادث بعينيك؟ بوغت الرّجل بالسّؤال، قال: لا. قال الشّيخ. إن رأيته بعينيك فالخبر أكيد، وإن سمعته ولم تره فيحتمل الصّدق أو الكذب، كأيّ خبر آخر. أنا أيضًا لا أصدق مقدرته على مسخ النّاس.
هزّت رأسها: أنا لا أؤمن بالسّحر.
- أنا أيضًا.
- هل رأيت السّاحر؟
- نعم.

- هل يبدو رجلًا موثوقًا؟
- نعم، كان شديد الاتّزان، لم أره يضحك قط، أقصى ما رأيته منه ابتسامة خفيفة. ما لفت النظر عندي، عمامته الكبيرة، البيضاء، أتذكّر أنّه دخل السّرادق الضّخم، منتصب القامة، معتدًّا بنفسه، قال عبد الله ابن الشّيخ رشيد، بعدئذ أنّه لم يدخل السّرادق إلا بعد أن توضّأ، وقرأ آية من القرآن الكريم بصوت وطيء، وحين دخل السّرادق، لم يصافحنا جميعًا على عادة العرب. صافح الشّيخ رشيد فقط. ثم جلس قرب الشّيخ. كان في حدود الخمسينات من عمره، بشرته حنطيّة، وعينان كستنائيتان نفاذتان. أقامت له القبيلة وليمة كبيرة، حضرها عشرات الشّيوخ والأمراء. وبعد العشاء شارك الكثير في إنشاد شعر الفخر بالقبيلة وبالشّيخ، وشعر الغزل، ورواية القصص الطّريفة والنّكات. لكنّه لم يتكلّم قط إلّا إن سأله أحدهم سؤالًا. عندئذ يجيب باختصار شديد. في اليوم التّالي دعوته إلى خيمتي. قدّمت له هديّة ثمينة -نصب الحرية-، من الفضّة الخالصة.
- لماذا؟
نظر إليها بتمعّن وهو يبتسم ويفكّر في عمق لإيجاد الكلمات المناسبة: في الحقيقة لا أدري. لم يخطر لي تقديم هدايا لأحد مطلقًا، لكنّي وجدت نفسي مدفوعًا من الدّاخل للتّقرب منه لمعرفة الحقيقة. سمعت الكثير عن السّحرة، حيلهم، خفّة يدهم. رأيت الكثير من العروض الحيّة في مناسبات كثيرة في الولايات المتحدة وخارجها، بحيث باتت مخيلتي لا تقبل أيّ جديد في هذا الشأن. لكنّ شخصيّة ذلك الرّجل كانت طاغية، نظرات عميقة، نفّاذة، وشموخ طبيعيّ، وابتسامة خفيفة يشتبك بها اعتداد شديد بالنّفس مع اتزان محسوب، بالإضافة إلى أنّي كنت أوّد أن أرى عن كثب السّاحر، ربما

لاكتشاف حقيقة ما لم أكن أؤمن به.
كنا نحن الثّلاثة في الخيمة وحدنا، وكان ثاني بن حميد يخدمنا، إذ أنّني ما إن توجهتُ إلى خيمتي في اليوم الأوّل وجدت ذلك الكهل أدكن البشرة، يبادرني بالسّلام، وابتسامة تملأ وجهه: أهلا بالصاحب.
ذلك اللقب يطلقه العرب هناك على أيّ أوروبيّ، وهو لقب يعني الصداقة والتقدير. كان قد أعدّ العدة لاستقبالنا. وبالرّغم من أنّني ومعتوق تناولنا عشاءنا اللّذيذ بضيافة الشّيخ رشيد، إلا أنّه قدّم لنا طبقًا مليئًا بنبق عمانيّ ضخم، طول الواحدة منه بطول إصبع، وكانت تلك أول مرة أتناول نبقًا لذيذًا إلى حد لا يوصف.
- نبق؟ تساءلت السيدة وهي تبتسم.
- نعم. فاكهة غير موجودة في أمريكا.
- ثم قدّم لنا القهوة. وهو شراب لا بدّ منه عدّة مرات في اليوم.
- هل أراكم شيئًا من سحره؟
ابتسم، ثم قهقه بصوت مرتفع: لا، لم يدعه معتوق، بدأ ينتقد السّحر، أعتبره خرافة، خداعًا، تضليلًا. وصفه بكلمات ثقيلة. حاولت أن أثنيه عن عزمه، أحوّل موضوع الحديث، لكنّه لم يأبه بي مطلقًا. تجاوز الأدب على السّاحر. والسّاحر لم ينجرف للرّد عليه، احتفظ بوقاره. ثم وصل سوء الأدب بمعتوق إلى ذروته، تحدى السّاحر أن يمسخه كلبًا.
انفعلت الحسناء، وتقلصت تقاطيعها كما لو بدأت تبكي: لماذا؟
فرج عن ساعديه كمن أراد أن يكشف دخيلة صدره لمحدثه: لا أدري ماذا أصابه، أوّل مرّة يغيظني، أوّل مرة يتردى سوءًا هكذا، ربما من أثر الحشيشة، أو الخمر. معتوق مولع بكل الممنوعات والتّهتك، يقول إنّها تستجلب

شيطان الشّعر. لم ينجر السّاحر إلى التّحدي. قال: حرام أن أمسخك كلبًا. طفق معتوق يسخر منه، وبشدة: حرام! أأنت تعرف الحرام؟ يدعي السّحر، يكذب، يغطي أكاذيبه بالتّدين، يقول حرام، هه، هه.
أكد الّساحر: نعم حرام.
قال له معتوق: أنت وسحرك في قفاي.
أدار له مؤخّرته، وضرب عليها بقوّة. لا بل كشف عن مؤخرته عارية في وجه السّاحر. رأيت السّاحر يمتعض، لكنّه ابتلع الإهانة بنوبة سعال مفتعلة، مصحوبة ببسمة.
أخذ معتوق يرقص بشكل مستهتر، ويهزّ مؤخرته ويغني أغانيَ مهووسة شاذّة، لم يستمع لرأيي، ولم يحترم السّاحر، فنهض هذا غاضبًا وخرج من الخيمة. خجلت من تصرّف معتوق إلى أخر حدّ، لحقت بالسّاحر، اعتذرت منه، قال لي: إنك غير مسؤول منه، هو حرّ. لكنّي لن أبقى دقيقة واحدة.
تفرّقنا، أخذت أتمشى تحت ضوء القمر، بقي معتوق وحده في الخيمة، وحينما رجعت في السّاعة الواحدة بعد منتصف الّليل، كان معتوق نائمًا، يغط في أحلامه. لكنّي سمعت صوتًا غريبًا في داخل الخيمة فجرًا، فتحت عيني، رأيت الكلب في سرير معتوق، حاولت طرده، مانع، تركته، لم أرد إيقاظ ثاني بن حميد، ليطرده. عدت إلى النوم.
في الصّباح نسيت القصّة، لم أر معتوقًا في الخيمة أو في أيّ مكان طيلة النّهار، قلت ذهب لحاجة ما. بدأت أقلق عندما حلّ المساء ولم يعد. كان الكلب يجلس في الأمكنة التي كان معتوق يجلس فيها، وعندما ينام ينطرح على سرير معتوق، ولا يأكل ما يرمى إليه، بل يأتي، ويجلس مكان معتوق على المائدة، كما لو كان هو. انتهت عبثًا محاولات ثاني بن حميد لطرده. كان

يعود باستمرار. جاء أبوه، أمّه، عمّه، عائلته، معارفه، عرفهم كلهم، كان يتمسّح بهم، يقبّلهم، وهم ينفرون منه، لا عربيّ يقبّل كلبًا مثلنًا، أو يتركه يلطع فمه أو خدّه، تشكّلت فرق للبحث عنه، انتشرت شتى الأرجاء، لم نعثر على شيء، تركتُ الصّحراء بعد أسبوع، وبعد ثلاثة أشهر، رجعت إلى الولايات المتحدة.

- والكلب؟

- ظلّ ملازمًا لي، كما كان معتوق

ردّدت: ٤٥ سنة.

هز كوكلند ميلر رأسه: نعم. تجاوز عمره الـ ٤٥. معجزة أليس كذلك! كما قلتِ، مستحيل في عالم الكلاب وصول ٤٥. أنت محقّة عندما ظننت أنّه سليل سلالة متميّزة.

تنهدتْ: قرأتُ القصة في الجرائد، رأيتُ المقابلات معك. لكنّي الآن صدّقت.

ضحك الرّجل: لكنّي لم أزل أشكّ.

أخذت ذاكرتي تسترجع بعض التّفصيلات، كيف وُصف معتوق في الجرائد آنذاك: كلب يفهم كلّ ما يقال له، وعندما يُطلب منه أن يلقي قصيدة له، كان يجلس على مؤخرته، ويحرّك يديه كأيّ شاعر، ويهمهمُ همهمةً نغميّة، لم يكن ينبح قط، عدّد كوكلند ميلر مئات الأعمال التي كان معتوق -الكلب- يقوم بها، والتي لا يستطيعها غيره! وعاداته البشريّة، ومقدرته على الكتابة باللغتين العربيّة والإنكليزيّة، وو. . .

- ألم يأتكم شيء ما عن أخبار معتوق الأصليّ؟ ألم تعثروا عليه؟

قالت ذلك ثم صمتتْ، ربما خجلت لسؤالها، ربما أحست هي أيضًا بتفاهة السؤال، قال: لا. لم يجد جديد. لو حدث لنشرت وسائل الإعلام الخبر.

- والسّاحر؟

فتح كوكلند ميلر عينيه في حركة لا إرادية صادقة تكشف دخائله بصراحة: اختفى في صبيحة اليوم التّالي، لم يره حتى الذين جاؤوا معه، أحد قصاصي الأثر قال إن آثار قدميّ السّاحر وجدت على بعد مسيرة عشرة أيام، مرفقة بآثار أقدام مجهولة، ما كان بإمكانه أن يرى آثار قدميّ معتوق، لأن إعصارًا مرّ من فوقنا، دام أقل من دقيقة محا الآثار كلّها في منطقة المخيّم.

ضحكتِ الحسناء: وأنت؟ أتصدّق؟

- قلت لك قبل قليل: ما زال الشّك يلعب في.

أشار إلى صدره. ثم حدّق بها وابتسم، بدا وكأنه يحاول أن يعثر على الكلمات المناسبة بصعوبة: بيني وبينك لا. حسنًا. لا غير مضبوطة. نصف نعم، مات أبوه بعد رؤيته له بقليل، في السّتينات من عمره، أمّه ما زالت حيّة، هي الآن في السّبعين. إن بلغ ذلك المستوى فربما يكون هو معتوق، لننتظر، من يدري؟ لكنّي لا أعرف هل سأعيش أنا إلى ذاك الوقت.

- أيمكن أن تقدم لي معروفًا؟

- ماذا؟

- أحبّ أن أصور له لقطة فيديو وهو يقرأ إحدى قصائده.

قهقه الرجل من كلّ قلبه: لا بأس.

ناولته بطاقتها، الفرحة لا تسعها، هممتُ أنا أيضًا أن أطلب منه أن يسمح لي بالحضور، لكنّ قوانين مستشفى الحيوانات الدّاجنة التي أعمل بها تحرّم الاتصال بالزّبائن منعتني.

* * *

أشلاءٌ في دجلة

مع أوّل شعاع للشمس صباحًا، وضع شاب في السّادسة عشرة من عمره قارورة ماء، وكيسًا صغيرًا فيه قرص خبز وقطعة صغيرة من الجبن وسط زورقه، تمتم مع نفسه: -يا الله زرقك. - جدّف منسابًا مع التّيار حتى وصل بعد نحو نصف ساعة، إلى حيث يتفرع دجلة فرعين ضيّقين، تبرز بينهما جزيرة الخنازير الضخمة، يحتضنها ماء هادر سريع في فرعي النّهر، مكوّنًا تّيارًا قويًّا. ألقى مرساة قاربه هناك. كان تّيار الماء شديدًا بحيث يجعل قاربه يتحرّك يمينًا وشمالًا، حتى ليكاد جداراه يوازيان سطح الماء، لكنّه كان مطمئنًا إلى أن الماء لن يتدّفق إلى القارب أوّلًا، وأنّ المرسى ثقيل لا يستطيع التّيار زحزحته وسحبه نحو الجنوب. أبوه قبل وفاته المبكرة، وباقي الصيّادين يحذّرون المتبتدئين في مهنة الصّيد من ممارسة مهنتهم في تلك البقعة من دجلة، لأن التّيار غادر، فكثيرًا ما انقلب الزّورق، وأودت المياه بدوامتها بحياة الصيّاد، لكنّه رغم صغر سنّه كان يتمتّع بمهارة يحسده عليها كبار الصيّادين. قصد تلك البقعة متعمّدًا لأنّه يعرف أن الصّيد وفير فيها، فالتّيار دائمًا وأبدًا يجرف السّمك الضّخم معه نحو الجنوب، كان واثقًا بأنّه سيرجع بصيد ثمين قبل حلول العصر، ليرى حبيبته، ويتمتّع بقربها، لا سيما وأنّه تزوّجها قبل ثلاثة أيّام فقط.

هيّأ الصيّاد الشّاب شبكته، ثم رفعها، وقذفها فوق رأسه لتنتشر دائرة هلاميّة كبيرة تسدّ فضاء السّماء بأسره، ثم تسقط في الماء، وهو يدعو الله ليستفتح يومه بصيد ثمين. قضى ثلاثة أيام العرس في غرفة في بيت أهل

زوجته، لأنّ بيتهم صغير ليس فيه سوى غرفة واحدة تنام فيها أمّه وأخته وأخيه الصّغيرين. لم يتبرّع أهل العروس له بالسّكن عندهم حسب بل تحمّلوا كافّة مصاريف الزّواج والولائم، حتى أنّهم تسامحوا معه في المهر المقدّم، قبلوا منه درهمًا واحدًا فقط، بينما كان أقلّ مهر لفتاة مثل ابنتهم الحسناء لا يقل عن مئة درهم، إن لم يزد إلى ألف. لم تكن عائلته تملك غير ذلك الدّرهم.

أوصته أمّه في الصّباح وهي تعدّ فطوره أن يردّد: يا الله، يا فتّاح، يا رزّاق من البيت إلى أن يرمي أوّل شبكة. قالت له إن فعلت فستنال رضا الله وسيرزقك من حيث لا تحتسب. طبّق اقتراح أمّه فعسى أن يُرزق ما يبيّض فيه وجهه أمام أهل زوجته، ليثبت في الأقل لعروسه الكاعب الصّغيرة ولأهلها، أنّ ثقتهم به في محلّها، وأنّ الله سيكافئه لنشاطه، وخبرته في الصّيد، واعتماده على نفسه.

أحس وهو يسحب الشّبكة بثقل خفيف فيها، وتوقّع أن تكون سمكة لا يزيد طولها عن نصف قدم، وبالفعل ظهر شيء في ثنايا الشّبكة وهو يسحبها والمياه تتساقط منها، ثم وضُح بتلافيفها شيء أسمر في آخره خيط، فتلهّف لمعرفة ما فيه، حتى إذ وضع الشّبكة في القارب، رأى كيسًا من الجلد بحجم ساعده ينتهي بحاشية فيها خيط معقود يحجب ما فيه. كان عندهم واحد مثله يطلقون عليه -الجراب-، تدّخر أمّه فيه ما لديها من نقود وأشياء ثمينة، لكنّه خلا من كلّ شيء بعد مرض والده ووفاته.

رقص قلبه طربًا، وهو يتحسّس الجراب، فوجد فيه شيئًا قويًا، ربما قطعة ذهب كبيرة، إذن سيصبح غنيًّا، استجاب الله لدعائه كما حدست أمّه. حينما فتح الجراب، ارتجف، فوجئ بساعد فتاة مقطوعًا، فيه آثار حناء.

ارتجف، جاشت نفسه، كاد يتقيّأ، رما السّاعد في قعر القارب. تناول من القارورة كفّ ماء رماه على وجهه. جلس يفكّر فيما يفعل! هذا السّاعد لفتاة قُتلت، يعني جريمة، مُثِلَت أمام عينيه زوجتُه الصّغيرة وكيف أحبّها وتزوّجها، ومُثلت أختّه الصّغيرة ذات تسعة الأعوام، هل يقبل أن يقتُل مجرم واحدة منهما؟ لا، ماذا يفعل؟ أرجع السّاعد إلى الجراب ويداه ترتجفان.

سمع من أبيه وأناس مختلفين في كلّ مناسبة يذكر فيها اسم الخليفة المعتضد إشادة بعدله وذكائه، وقدرته حلّ أعقد المشاكل، وأكثرها غموضًا.

جدّف نحو الشّاطئ، لا نحو الشمال، فمن المستحيل مقاومة التيّار، وإذ وصل الشاطئ، ربط القارب بالحبل وأخذ يسحبه وهو يسير على حافة الماء بسهولة لأنّ التيّار يضعف في حافاتي دجلة. كان واثقًا أنّه سيصل في خلال نصف ساعة على الأكثر إلى شارع الكرخ الذي ينتهي بدجلة، وسيكون بإمكانه أن يرجع إلى الصّيد بقية النّهار، فلعله يحضى بصيد مناسب.

سحب قاربه، وحين وصل الشّارع العريض بات في غاية التّعب. بدا قصر الخليفة والجامع الكبير أمامه مباشرة، على بعد ثلاثمئة متر فقط، أوثق القارب إلى أحد الأعمدة الموجودة على جدار النهر الطويل، ثم ترجل، وأسرع في مشيه، قبل أن يصل القصر أحس بالجوع، ثم تذكّر أنّ كيس الطّعام وقارورة الماء في القارب. تمنى ألا يسرقهما أحد. لم يكن في جيبه أيّ فلس ليشتري به شيئًا يؤكل. لكنّه نسي الجوع لاضطرابه الشّديد، والجراب في يده يذكره بالمغدورة الشّابة، فساعد المسكينة القتيلة أشبه بساعد زوجته البضّ. تُرى كم عمرها؟ ولماذا قُتلت؟ وأيّ قلبٍ قاسٍ تجرّأ على قتلها، وتقطيعها هكذا! كاد يبكي، لا بل دمعت عيناه. لمّاً اقترب من القصر، شاهد مئات النّاس ينتظرون خارجه، وحرسًا مدجّجًا يقف أمام عموديْ البوابّة الكبيرة. انقبض

قلبه، قدّر أنّه حين يأتي دوره فستنقضي بضع ساعات. عندئذ سيقترب النّهار من نهايته، فيفلس من أيّ صيد. يا لسّوء الحظ، ضاع اليوم عبثًا، وضاعت أدعية أمّه كذلك.

وجد أيضاَ نحو عشرة أشخاص، بدوا وكأنّهم موظّفون في القصر، يضعون في عمائمهم ريشًا أحمر يميّزيهم عن الآخرين، كانوا واقفين أمام الباب، يستفسرون من المراجعين عن أسباب وجودهم، ويقرؤون عرائضهم الّتي تلخّص ما يريدونه، ويفسحون لهم الطّريق بعد أن يؤشّرون بأيديهم إلى ناحية معيّنة من القصر، ليقفوا فيها.

بداية الخريف، الجوّ بارد، لم تكن الشّمس شديدة الحرارة. مرّة أخرى تذكّر أنّه أضاع أكثر من ساعتين، فكم سيضيع من النّهار؟ وقف في دوره والألم يعتصر قلبه.

بعد بضع دقائق اقترب منه شاب في عشريناته من ذوي عمامات الرّيش الأحمر، ابتسم وهو يسأله بطريقة مطمئنة: ما عندك؟

فوجئ، تلعثم، لكنّه استجمع شجاعته، قال ووجهه يتضرّج: أنا صيّاد استفتحتُ بهذا الكيس، وعندما فتحته رأيت فيه ساعد وكفّ فتاة قتيلة.

اتسعت عينا الشّاب الموظّف، اختلجت ألوانه، لا بل بدأت شفته السّفلى بالارتجاف، مدّ يده ليتناول الجراب، لكنّه تراجع إلى الخلف، كأنّه نار محرقة. ظلّت يده معلّقة أمام الكيس، قال له، بصوت أثّر فيه الانفعال: تعال معي.

ساحة القصر واسعة جدًا، انقسم فيها المراجعون عشرات الأقسام، كلّ قسم في ناحية، يتجمّعون ينتظرون أحد الموظّفين ليقودهم إلى مبتغاهم. مشى الموظّف أمامه بسرعة، وهو يلاحقه، حتى إذ اقترب من باب بعيد في وسط

القصر يسدّ فتحته أربعة حرس مدجّجون بالسّلاح. وقف قرب أحدهم وتكلّم معه بصوت هامس، فأفسح له هذا المجال وهو ينظر إلى الصيّاد في اضطراب بيّن. دخل في ممرّ طويل يسوده صمت ثقيل، خالٍ من أيّ نأمة، مفروش بسجاد فاخر، وبعد بضع دقائق من المسير وصلا إلى بهو مسقّف بأجمل أنواع الخشب المحفور والمنقوش، فيه عدة أبواب، وبضعة حرّاس، وكهل وقور في بزّة حسنة، لا يحمل أيّ سلاح.

اقترب الموظّف من الكهل، وهمس له ببضع كلمات، توقّع الصيّاد أنّه أصيب بالذّعر كما حدث للموظّف، رأى عينيه تتسعان وأخذ ينقل نظراته بينه، وبين الجراب المعلّق في يده، وبين الموظّف. ثمّ أحنى الموظّف رأسه وانسحب. تقدّم منه الرّجل وابتسامة أنيسة رفيقة واسعة تملأ وجهه، حدّق فيه بعينين خارقتين لمّاحتين، سأله هامسًا: متى وجدت الجراب؟

أجاب الصيّاد بصوت اعتياديّ وقد هدّأته ملامح الرجل وابتسامته: قبل.

فرفع الرّجل سبابته إلى فمه مقاطعًا، والابتسامة ما زالت تملأ وجهه، همس: لا ترفعْ صوتك.

أطاع الصيّاد: قبل أكثر من ساعة.

- ما اسمك؟

- هاشم بن جرير.

شعّت عينا الرّجل جذلًا: كُنيتي أبو هاشم، أهلا وسهلًا.

- بارك الله فيك. قال هاشم ذلك، ومدّ يده بالجراب: خذه. أريد أن أرجع إلى الصّيد فلعل الله يرزقني ما أسدّ أفواه عائلتي، فلي أخوة صغار يتضوّرون من الجوع.

ابتسم الرّجل هامسًا: كم تتوقّع أن يكون دخلك اليوم؟

- حسب قسمة الله.
- ونِعْمَ بالله، لكنْ كم تُقدّر أقصى ما يمكن أن تربح؟
- درهمان، ثلاثة دراهم.
اتسعت ابتسامة الحاجب: سنأمر لك بخمسة دراهم اليوم، وفي كلّ يوم تزورنا، لا تقلق لطعام أهلك. لن يترك الله دابّة على الأرض من دون رزق. أأنت راضٍ؟
ضحك هاشم، فذعرت عينا الحاجب، ووضع أصبعه ثانية على فمه، همس بجد: صه. الوزير أبو عبيد الله عند الخليفة، ستقابل الخليفة ما إنْ يخرج.
أشار الحاجب إلى بضعة كراسي: إن أحسست بالتّعب أجلس.
أيّ كرسيّ وثير! أكان يحلم بالجلوس على مثله يومًا! أغمض عينيه. خمسة دراهم دفعة واحدة؟ حاول أن يتصوّر فرحة زوجته وأمّه وأخويه بما سيحصل عليه في أوّل يوم من العمل بعد العرس! إذن فقد استجاب الله دعاء أمّه. لكنّ ثقل التألم لصاحبة الجراب في يده بدّد الفرحة. عاد ليتذكّر ساعد المسكينة القتيلة الشّبيه بساعد زوجته، ومرّة أخرى تساءل مع نفسه كم عمرها؟
أحس بيد تهزّ كتفه برفق، فتح عينيه، رأى الحاجب يبتسم، يهمس: أنمتَ؟
هزّ رأسه منتفضًا: لا.
- تفضّل الخليفة بانتظارك.
نهض، أصحيح أنّه سيقابل الخليفة؟ يا له من محظوظ! قال له الحاجب وهو يبتسم: أأنت في السّادسة عشرة؟
- نعم. أراد أن يسأله كيف عرف؟ لكنه أبعد الفكرة. وراء الحاجب، حتى إذ دخلا، أغلق الحاجب الباب. فوجئ. ابتسامة الخليفة الشاب مريحة.

كأنّه يعرفه منذ دهر، نهض، تقدّم نحوه، في نحو الثلاثين من عمره، أطول منه بأكثر من شبر، نحيلًا. سمرة خفيفة، عينان كبيرتان، سأله: لا شكّ أنّك ارتعبت يا هاشم.

- نعم، يا أمير المؤمنين.

حدّق مرّة أخرى في عينيه الواسعتين، كانتا حوراوين، لحية صغيرة حالكة السّواد مشذّبة، في عمامته ماسة حمراء تلمع على شكل قلب.

تلعثم هاشم، لا بل ارتجف، أحس بالنار تتقد في أذنيه وخديه! إذن هذا هو الخليفة الذّي يحكم العالم كلّه، من الأندلس حتى الصّين والهند، ومن أرمينيا حتى اليمن. يقترب منه يحادثه برقّة كأنّه أبوه. ربت على كتفه: لا تخف. أعطني الجراب.

مدّ يده بالجراب نحو الخليفة، وهو يكبر فيه شجاعته، فلا ذعر ولا قلق ولا اضطراب. أخرج ساعد القتيلة، نظر إليه بتمعّن يطغى عليه أسف عميق، ثم تقدّم نحو منضدة مدوّرة قرب الحائط الأيمن، من خشب أسود محفور ومطعّم بالعاج والذّهب، وضع عليها السّاعد، والجراب، قلّبهما، حدّق بالحنّاء طويلًا! ثم بالجراب وهو يمتحنه. رفع بصره، نظر إلى الحاجب، قال بصوت هادئ: ليأتوا بالماء والصّابون.

هُرع الحاجب إلى الخارج، بينما استمرّ المعتضد ينظر إلى السّاعد والحنّاء.

جاء ثلاثة خدم، أحدهم أسود بيده إبريقان، الثّاني رومي أشقر يحمل منضدة صغيرة أخرى، الثالثّ على كتفه منشفة مذهبّة، وبيديه أجانة منقوشة ومزخرفة من فضّة، وضعها على المنضدة، فمدّ المعتضد يديه إلى الأمام. سكب الأسود على يديه الصّابون من الإبريق الأوّل، ثم الماء من الإبريق الثّاني، وبعد أن مسح يديه بالمنشفة غادر الثّلاثة بهدوء كما دخلوا.

أخذ المعتضد يتمشى في الغرفة الواسعة وهو مطرق، ثم رفع رأسه، وتقدّم من الصيّاد، قال: أتستطيع أن تحدّد أين رميتَ شبكّتك؟

هزّ الصيّاد رأسه: نعم يا مولاي.

- اذهب اليوم، وفي الغد، وكلّ يوم إلى المنطقة نفسها من النّهر، وارمِ شبكتك، فإن جاءت بأشياء كهذه اجلبها.

ثم التفت إلى الحاجب: دعوه يدخل إليّ حالًا.

- نعم يا أمير المؤمنين.

خرج الحاجب معه، وحين أغلق الباب وراءه، وابتعد بضعة أذرع عنه، سأله وعيناه تضحكان كأنّه صديق في عمره نفسه: أهذا يومك الرّابع بعد الزّواج؟ حدّق هاشم فيه مذهولًا، اكتشف سنّه في الحال، وها هو يكتشف متى تزوّج؟ أيّ ذكاء! أهو إنسان أم جنيّ؟ وقف هاشم، ظلّ ينظر إليه مشدوهًا، هل يسأله كيف عرف؟ قال الحاجب وابتسامة أقرب إلى الضحك على تقاطيعه: سِرْ، لا تعطّلني. الخليفة يحتاجني.

- لكن كيف عرفت؟

ضحك وهو ينظر إليه: إنّه سرّ من أسرار الدّولة.

ثمّ ربت على كتفه: وجهك، أيّ وجه صفحة يُكتب فيها كلّ شيء، وأنا قضيت عشرين سنة أدرس كيف أقرأ علامات الوجه. قال ذلك وابتسم، ثم سأله بغتة: هل درست شيئًا؟

- نعم، تعلّمت القراءة والكتابة والحساب، وحفظت بعض الشّعر.

- ذلك شيء مهمّ لصيّاد ذكيّ نشط مثلك.

ثم استأنف حديثه: إن جئت في المستقبل فسل الحرس عن أبي الوفاء، فهو يدخلك حالًا، من دون تأخير. ثم أشار إلى أحد الحرس أن يأتي، قال له: خذه

إلى محاسب القصر، ليصرف له خمسة دراهم الآن.
قال هاشم للحارس وهو يسير بقربه: لم أرَ في حياتي أذكى من أبي هاشم، عرف عمري، ومتى تزوّجت وهو يراني أوّل مرّة.
ابتسم الحارس بمرح: نعم، هو ذكيّ جدًا، لكنّك صغير، لم ترَ أحدًا، لم ترَ شيئًا، لو رأيت ذكاء الخليفة المعتضد ستُجَن.
كانت فرحة هاشم الطّاغية يحدّ منها ألمه على المغدورة الشّابة، وحزن أهلها ومحبيها لما جرى لها، وعندما رجع إلى وسط دجلة كان يتمنى أن يعثر على أثر آخر لها. رمى شبكته مرّة، بعد مرّة، لكنّها كانت تظهر خاوية أو مع سمكة أو سمكتين، حتى إذ أنهكه التّعب قبل مغيب الشّمس، رجع وبيده سبع سمكات، أخذها كلّها إلى البيت.
له قبل الزّواج بيت واحد، لكنّه منذ اليوم أصبح له بيتان. قابل أمّه أوّل الأمر فأخذت تضحك وهي تعانقه وتقبّله، ثم تمعّنت في الصّيد، وبخاصة سمكة من نوع البرزم بطول ذراع، قالت له: لماذا لم تبع صيدك، هذه وحدها تساوي نصف درهم؟
- لا، سنحتفل اليوم. رزقني الله غيرها سمكتين كبيرتين جدًا بعتهما بدرهمين، هاكهما، اشتر ملابس جديدة لنا كلّنا، وللعروس وأهلها لنجعلها مفاجأة لهم.
لم يخبر أمّه بما حدث، كان يعرف رقّة قلبها، هجمت عليه، عانقته مرّة أخرى، ثم احتفلت العائلتان بعد العشاء.
في اليوم التّالي بكّر هاشم للذّهاب إلى دجلة. قضى الوقت حتى العصر في رمي شبكته، صاد أسماكًا كثيرة لكنّه لم يعثر على شيء آخر، وقبل أن يقرّر الرّجوع إلى البيت، رمى الرّمية الأخيرة، الرّمية التي ينعتها الصّيادون برمية

الوداع. أحس بثقل خفيف، لم يتأكّد حتى أخرجه من الشّبكة. رأى جرابًا آخر، جعل قلبه يخفق. ثم ذهب بالسّمك إلى تاجر الجملة في السّوق، واستمرّ في طريقه إلى قصر الخليفة. آنذاك لم يجد أيّ مراجع، كانت الساحة خاوية. اقترب من الحرس وسأل عن أبي الوفاء، فهرع أحدهم مسرعًا وعاد بكهل في الخمسين حسن الملبس، باسم الوجه، بادره: أأنت هاشم الصيّاد؟

- نعم.

- أوجدت شيئًا؟

- نعم، هذا الجراب.

- ماذا فيه؟

- لم أفتحه. لكن الجلد نفسه.

- حسنًا فعلت.

سار معه حتى وصلا إلى الحاجب، فاستقبله هذا بابتسامة كبيرة: تأخّرت اليوم.

- يئستُ من العثور على شيء، لكنّي ابتعدت قليلًا عن المكان الأوّل، وأنا أدعو الله كي يوفّقني، فجاء هذا الجراب. أسرعت إليك به من دون أن أفتحه.

- سأخبر الخليفة في الحال.

ثم أدخله بعد بضع دقائق، رأى الخليفة واقفًا يبتسم له، وعندما شاهد الجراب، طلب من الحاجب استدعاء أحد الخدم. جاء الخادم الأشقر. أمره الخليفة أن يأتي بالجراب الأول، وبرقعة قماش بيضاء فرشها على المنضدة، ثم أخرج الساعد الأوّل الذّي فيه، وفتح الجراب الآخر، فوجد ساعدًا ثانيًا. كان السّاعد الأول قد انتفخ قليلًا، وبدأ يصدر روائح كريهة، لكن السّاعد

الجديد بدا كما هو، كان في السّاعدين حنّاء بنقش متماثل. ثم التفت إلى الحاجب: هل الطّبيب يزيد بن حيان موجود؟
- نعم يا أمير المؤمنين.
- دعه يدخل.
جاء شيخ في الخامسة والسّتين، أبيّض عارضاه من تحت عمامة سوداء كبيرة خاصة بالأطبّاء، وما إن انحنى للخليفة حتى ذهب إلى السّاعدين وأخذ يعايُنهما.
سأله المعتضد: منذ كم يومًا قُتلت؟
حدق الطّبيب بالمعتضد: يومان، أو ثلاثة في الأكثر.
- أهي لفتاة واحدة؟
- نعم، لواحدة.
- أأنت متأكّد؟
- نعم.
- أتستطيع تقدير عمرها؟
هزّ الطّبيب رأسه: من بشرتها، وأعصابها، وشرايينها المخفية، لا يمكن أن تتجاوز العشرين، ربما الحادية والعشرين.
ظهر الألم على تقاطيع المعتضد. نظر إلى الحاجب: دع هاشمًا الصيّاد يذهب إلى أهله ليأخذ راحته، لا شك أنّ العمل أتعبه.
حنا الحاجب رأسه، ابتسم، قال لهاشم: هيّا.
أشار إلى أحد الحراس: أذهب به إلى المحاسب وأمره بصرف عشرة دراهم حالًا.
كادت الفرحة تذهب بعقله، لكنّ حزنه على الشّابة المغدورة، خفّف من

غلُوه بالفرح كما في اليوم الأوّل، قرّر ألا يبوح بسرّ الفتاة لأيّ كان، حتى أهله، وأن يطلب من زوجته أن تخفي النّقود مدّعيًا أنّها لصديقه إسماعيل، لتوفيرها للزّواج، فما جاءه من الصّيد كافٍ.

في اليوم التّالي أخذ هاشم يوسّع دائرة صيده، فاصطاد سمكتين فقط، كانت الشّمس قويّة ذلك اليوم، وحين وضع قارورة الماء على شفتيه اكتشف أنّه شرب الماء كلّه، فقرر أن يقذف الشّبكة خمس مرّات قبل أن يملأ قارورته، لكنّه وجد في القذفة الأولى ثقلًا لسمكة كبيرة قدّر أنّها بطول ذراع، وتوقّع مقاومة السّمكة واضطراب الشّبكة، لكنّه عندما بدأ بسحبها، لم يجد أيّ مقاومة، ولم يخطر في باله أنّه سيسحب قطعة أخرى من الجثة، لكنّه شاهد جرابًا طويلًا في اللون نفسه. أخرجه. لم يفتحه. جدّف إلى الشّاطئ، وبدأ بسحب الزورق نحو قصر الخليفة.

جاء خدم الخليفة وأخرجوا ما في الجراب، فكان طرفًا كاملًا من طرفي الفتاة المغدورة، بدءً من الرِّجل حتى الفخذ، وعندما جاء الطّبيب بن حيّان قال من دون أنْ يسأله أحد: إنّه من الجثة نفسها.

همس الحاجب: لكن لماذا لا يرميها كما هي؟ لماذا يضعها في الجراب؟

حدّق فيه الطّبيب، ولم يجب. قال الخليفة، إنْ رماها عارية فقد يراه أحد ويكشف السّر أما إن رماها وهي في الكيس فسيظنّ الرّائي أنّه يريد التّخلص من قطّة، أو أفعى أو شيء مؤذٍ. الكيس لا يثير الاشتباه.

نظر الخليفة إلى هاشم: استمر في الصّيد في المنطقة نفسها، ووسع الدّائرة قليلًا، وتعال كلّ يوم حين تنتهي من الصّيد حتى لو لم تجد شيئًا، لمدّة عشرة أيام.

صاحب الحاجب هاشمًا الصيّاد، ثم سار معه نحو المحاسب، فتوقّف هاشم.

قال: لا، لن آخذ اليوم أيّ فلس. لست طمّاعًا. ما أخذته كافٍ.
وقف الحاجب، وحدّق فيه مستنكرًا: أترفض هديّة أمير المؤمنين؟
ثرثر معه كأنّه ابنه، أسرّه كأنّه صديق له: الخليفة المتعضد حزين جدًا على الفتاة، وعندما قابل الوزير أبا عبيد احتدّ عليه في الكلام. قال له: إنّكم تضيّعون حقوق الناس، ما هذه خلافة؟ ولا هذا حكم! أنا الخليفة المعتضد إنسان مثلي يقتل ويقطّع ويرمى في النّهر، ولا أعرفه؟ لا يمكن أن يجري هذا معي، في مدينتي، في دار السّلام.
ثم أحنى الحاجب رأسه، همس: بقي البارحة هائجًا لا يقرب الطّعام ولا الشّراب طيلة اليوم، أحبّ هاشم الحاجب واحترمه كما يحبّ أباه، لم يكن يتصوّر أنه سيلتقي شخصًا يعمل في مكان عظيم متواضع وودود مثله قطّ.
وفي صباح اليوم الرابع، قال المتعتضد للوزير آمرًا: اجلب خلال ساعة واحدة عشرة من أذكى أذكياء الشّرطة. وحينما جاؤوا طلب من الخادم أن يريهم قطع أعضاء جسد الفتاة المغدورة، قطعة قطعة، يرفعها أمامهم، هي والأجربة. قال لهم إنّ هذه أشلاء أنثى، قُتلت قبل أيام، أنتم أفضل المحقّقين، اذهبوا إلى كلّ مكان في بغداد، جميع المساجد، الجوامع، الكنائس، المعابد، الأسواق، الملاهي، لا تبقوا حيًّا من أحيائها كلّها، ابحثوا عمّن يعطيكم أيّ خبر عن اختفاء شابة لا تتجاوز الواحدة والعشرين. آتوني بأيّ خبر يتعلّق بها.
ثم أعطى ثلاثة منهم كلّ واحد جرابًا، وقال لهم: هذا جراب جلد. لا بدّ أنّه من صنع خيّاط واحد، اذهبوا إلى جميع الخيّاطين في بغداد، فالخيّاط يستطيع التّعرف على عمله، وسلوه لمن باعه، فإن عرف اسمه استدعوه، وإن لم يعرف اسمه خذوا أوصافه، فلا بدّ أنّه راجعه غير مرّة، أو بقي ينتظره

حتى ينتهي من خيّاطته. فإن لم يكن من عمل خيّاط في بغداد، فهو مستورد من مدينة أخرى. اذهبوا إلى التّجار المستوردين، جدوا من استورده، أو من يبيعه. استدعوا خمسين شرطيًّا آخر، استخدموا من شئتم من النّابهين والأذكياء، ليحقّقوا معكم. احصلوا على معلومات كاملة، جيئوني بها سريعًا، أريد أن أعرف المجرم هذا اليوم.

ثم كرّر وهو يهتف بغضب ويضرب المنضدة التي أمامه: نعم، هذا اليوم.

كان أبو هاشم الحاجب يراقبهم وهم يخرجون مضطربين، مشغولي البال، تتصارع في أذهانهم شتى الأفكار. يسكن مدينة بغداد ثلاثة آلاف آلف مواطن، فكيف يستطيعون أن يمشّطوها في يوم واحد، أن يستخلصوا الأخبار منها. ذلك من سابع المستحيلات. لكنّه أمر المعتضد الّذي يأمر الجميع، يخافه الجميع. ما عليهم سوى التّنفيذ. بذل الجهد. كانوا كلّهم واجمين سوى اثنين منهم، لهما الملامح نفسها، والهيئة نفسها، كانا غير قلقين، كأنّهما من نوع آخر، يبتسمان بثقة، يحمل واحد منهما فقط جرابًا للمغدورة بيمناه، أشّر الحاجب إلى أحد الحرس، طلب منه أن يدعوهما للمثول أمامه, عندما جاءا واجها ابتسامته بابتسامة مماثلة، قال لهما: أنتما أخوان، ما اسمكما؟

أجاب أقربهما إليه: أنا مروان بن محمد وهذا أخي سفيان.

قال الحاجب، وهو يبتعد بهما عن باب الخليفة كي يتكلّموا من دون قيد: أنتما تعرفاني، لا حاجة لذكر اسمي.

هزّا رأسيهما، قال: لا أخبركما لماذا استدعيتكما، لأنّي أتوخّى أنّكما أذكى من أن تغفلا ذلك، لكنّي أطرح سؤالًا واحدًا يكشف دخيلتكما، لماذا تبتسمان، بينما الآخرون غارقون في التّفكير والحيرة، ما السّبب؟

قال أحدهما: لأنّنا نعرف كيف نحلب النّاقة.
ضحك الحاجب: بارك الله فيكما اذهبا موفقيّن.
قال الحارس القريب منه: سيدي الحاجب لم أفهم أيّ شيء، هلا وضّحتَ لي.
نظر إليه: ستفهم كلّ شيء قبل مغيب الشّمس، من دون حاجة إلى كلمة مني.
راقبهما وهما يمشيان على هونيهما، ويثرثران مع بعضهما، حتى اختفيا.
كان يراقب تقاطيع الخليفة كلّما فتح الباب، ليبلغه بقدوم زائر، أو يجيب على سؤال له يخطر في باله، حتى انتهائه من صلاة الظّهر، حينئذ أحس بجوع شديد، لكن كيف يأكل والخليفة باقٍ من دون طعام وشراب منذ صلاة الصّبح وحتى الآن؟ القلق يأكله، يذرع القاعة ذهابًا وإيابًا، وحين يحسّ بالتّعب يجلس على كرسيه، ويسند رأسه إلى الخلف. يغمض عينيه لتأخذه سنّة خفيفة من النّوم، يستيقظ على أثرها، مضطربًا. لم يعلم ماذا تناول خلال الأيام الثّلاثة السّابقة، لكنّه بدا وكأنّه فقد نصف وزنه. فكّر كيف يخفّف من جوعه، ثم أمر الخادم الموكل برعايته أن يقدّم له كلّ مرّة يطلب فيها ماءً كأس عصير الأجاص بالعسل، وأمر الطّبّاخين أن يضعوا في العصير مسحوق اللّوز والفستق، فربما يعينه هذا أن يسترجع بعض قواه.
وبعد قليل، استدعاه المعتضد، استفسر منه باسمًا: أأنت أمرت بتقديم العصير؟
- نعم.
- بارك الله فيك. إنّني أشعر ببعض الطاقة ترجع إليّ الآن، لكنّ شهيتي للطّعام انسدّت. لعلّ الله يحيطني برحمته، وينقذني من هذه المصيبة التي وقعتُ فيها، أنا مسئول من الله عن إشاعة السّلام والأمان للنّاس كلّهم

في حدود مملكتي، مسئول عن أرواحهم، أولادهم، مصالحهم، وهذه فتاة بعمر أختي تقتل! ولا أحد يعرف المجرم، هذا كثير، كان الله في عون أمّها وأبيها، وأهلها، هم الآن يعانون، يتمزّقون لا هي.

- أنا واثق من أنّنا سنعرف اليوم الأسرار كلّها من مروان وسفيان.

ابتسم الخليفة: من مروان وسفيان؟

- محقّقان أخوان واثقان من نفسيهما، تفصح قسماتهما عن ذكاء لمّاح، رأيتهما اليوم بين المحقّقين.

- لنتفاءل.

حينما وصل المحقّقون إلى الباحة خارج القصر، ذهب مروان مع الأكثرية، بينما هرع نحو سفيان المحقّقان اللذان معهما جرابين مثله. تساءل أحدهما عن أهميّة وضع خطة يبدؤون فيها تحقيقهم. عندئذ سألهما سفيان: كم سوقًا للجلد وخيّاطيه في بغداد؟

- ثلاثة.

ابتسم: خطّتنا بسيطة، ليست خطّة، ليذهب كلّ منا إلى سوق.

احتجّ المحقّقان وهما في أقصى حالات الاضطراب: في كلّ سوق أكثر من ألفي محلّ، فكيف سنمشط كلّ تلك المحلّات بيوم واحد؟

ضحك سفيان: هذا قدرنا. اللهم إلّا أن ينزل الله صاعقة تمحق المحلّات كلّها! فتريحنا، أتريدان ذلك؟

- أنت دائمًا تمزح.

ابتسم: مهمّة ثقيلة ملقاة على رؤوسنا، المزاح والضّحك وحدهما يخفّفان من ثقلها، إن لم نضحك نموت. هيّا، لا وقت لدينا، سآخذ سوق الكرخ، مع السّلامة.

- اخترت أبعد الأسواق. ستضيّع ساعتين ذهابًا وإيابًا.
قهقه: لأوفّر عليكما التّعب.
فغمت مناخيره رائحة الدّبغ حريفةً كريهةً وهو يدخل سوق مسقوفًا بحصائر كبيرة، لكنّ الشّمس تخترق الفراغات بينها فتضرب الأرض بأحزمة أشعة بين ذراع وآخر لتنيره، وتلوّنه بسرياليّة طبيعيّة عابثة بين مشرق ومنير، ومظلّل، وأدكن. لكنّ جميع من فيه يبدون بوضوح كافٍ لتمييزهم. مدّ سفيان من دون أن يشعر يده وسدّ منخريه لبرهة قصيرة. مئات أنواع الجلود، ثخينة بسمك إصبع، ورقيقة كالورقة، كان قسم من الخفافين ينقعون الجلود الثّخينة في الماء ليسهل خياطة أغلفة الأحذية عليها، وكان القسم الآخر يخيطها فعلًا، بينما كان القسم الثّالث يطرقها على السّندانة لتخفيف سمكها، هناك من يقصّ الجلود، من يفصلّها، من يصبغها. من يقطّع جلود الأغنام لصناعة الفروات. السّوق مزدحم، بالراغبين في سروج الخيل والبغال والحمير والأتان، وأسِرَّة قيادة الحيوانات، والعربات. يمشي النّاس مزدحمين، يحتّك في الحركة الدّائبة جسد الواحد بالآخر، وبين دقيقة وأخرى تقطع الطّريق عربة يسحبها إنسان أو دابة، تحمل الجلود المدبوغة، أو المصبوغة، أو المعدّة للعمل، فيفسح لها المارّة الطّريق.
تقدّم سفيان نحو حانوت واسع يعرض أسرجة جميلة للدّواب، واضعًا قسمًا منها على الأرض، ومعلّقًا أجمل ما عنده في السّقف لتجذب النّظر. عرّفه بنفسه، سأله عن اسم نقيب الدّباغين والجلود.
رد الرّجل: يحيى الفلكيّ.
تطوّع بمرافقته إلى محلّه. وجده يتكلّم مع أربعة أشخاص يجلسون حوله، قال لصبيّ كان موجودا في المحلّ: أهمس بأذن مولاك أنّي رسول الخليفة

المعتضد، لا أريد للآخرين أن يعرفوا. فوقف الصّبي مرتعبًا أمام يحيى، غمز عينه ووضع سبابته على فمه، أشار بالتفاتة رأس إلى سفيان. فهم النّقيب الإشارة. ترخّص من الموجودين، اقترب الصّبي منه وهمس معرفًا بسفيان. عندئذ ابتسم الرّجل، كان في نحو السّتين، ربعة متينًا، على رأسه عمامة النّقباء ذات الألوان الثّلاث: الأسود، الأصفر، الأحمر.

انتحى سفيان به ناحية لا يراهما أحد، كشف الجراب، لخّص القضيّة بعبارات حضّرها، ثم قال له أريد أن أحصل على من صنعه خلال ساعة واحدة. الخليفة بنفسه يقوم بالتّحقيق، ومنذ أربعة أيام وهو شبه صائم، قلق لم يأخذ النّوم طريقه إلى عينيه، سأشير بتقريري إلى أيّ رجل يساعدني.

سرت عدوى القلق إلى النّقيب، تناول قطعة الجلد، بدأ يتحسّسه، ثم خرج من المحلّ إلى عرض السّوق. كان هناك لسان من أشعة الشّمس، وضع الجراب في الضّوء، ثم التفت إلى سفيان: أبشر. أعرف من يدبغ هذا الجلد، ومن يبيعه، لكنّي لا أعرف من يخيطه. تعال معي، المحلّ على بعد نصف ساعة فقط.

استبشر سفيان خيرًا، سار معه، وصلا إلى محلّ كبير فيه أكثر من عشرة عمال يأتون بأحمال جديدة، فيها جلود يابسة، وأخرى مطويّة، وثالثّة ما زالت طريّة ذات رائحة نفاذّة. كان صاحب المحلّ يتكلّم مع اثنين وظهره إلى السّوق، فناداه النّقيب: أكثم، يا أكثم. عندما تنبّه هذا إليه، أسرع نحوه. فهمس له بمختصر القضيّة. كان ممتلئًا في حدود الخامسة والأربعين، أخذ الجراب، تحسّسه، قال للنّقيب: لا، لا أبيع هذا النّوع. إنّه خاص بمحسن بعقوبي. وأعرف من يخيطه، التفت إلى محدثيه في المحل، هتف: دقيقة واحدة. ثم سار حتى لسان الشّمس ووضع الجراب في الضّوء أيضًا، قال

للنقيب وسفيان: أنظرا إلى هذا الخيط، إنّه حرير دمشقيّ. أغلى أنواع الخيوط. هيا سأدلّكما على محلّه. ساروا نحو مئة ذراع، لا أكثر.
كان محل الخيّاط بعقوبي هو الأكبر الذّي شاهده سفيان في سوق الجلود. ستة صفوف من الخيّاطين باعمار تبدأ من العاشرة حتى الثّلاثين، يجلسون على حصائر على الأرض، خيّاط يقابل آخر، بينما ظهره إلى ثالث. ثلاثة شباب آخرون يجدلون خيوط الحرير، آخرون يقصونها، أمثالهم يضعون قطع الجلود أمام الخيّاطين.
يجلس بعقوبي في صدر المحل، بينما يهرع إليه بين الحين والأخر عامل يأخذ رأيه في قضيّة ما، ثم يرجع إلى عمله. حينما شاهد النّقيب أراد أن يقف، لكن هذا هتف: واللهِ لن تقوم، نحن سنأتي.
كان هناك ممرّ ضيّق بين أجساد العمال والجدار، سار الثّلاثة فيه واحدًا وراء الآخر حتى وصلوا إليه. حينما تسلّم الجراب، رفع عينيه نحو النّقيب، هتف: يا شباب. من خاط هذا الجراب؟
نهض رجل في العشرين من عمره، تفحّصه، قال: سُحبان، إنّها طعنات إبرته الدّقيقة.
أشار إلى شاب آخر يماثله بالسّن، فأسرع هذا، تناول الجراب، هزّ رأسه: نعم أنا.
- من يبيعه؟
قال بعقوبي: تاجران.
- أتستطيع استدعاءهما؟
تدخّل سفيان: لا. سنذهب إليهما بأنفسنا.
قال ذلك ثم خرج، فاعترض النّقيب: لماذا نتعب أنفسنا؟

- اختصارًا للوقت. أنت أعلم مني، هناك باعة عند كلّ تاجر. ولن يعرف من اشترى البضاعة سوى البائع، وربما يأتينا من لم يبعه، فنقوم باستبداله وكلّ ذلك تضييع وقت. أرجو أن تكمل المهمّة معي.
ابتسم النّقيب: أنت محقّ، لم يخطر هذا على بالي. هيّا.
- اطلب منه أن يرافقنا ليدلّنا إلى المحلّ.
سار صبي في العاشرة أمامهما نحو عشر دقائق، ثم أشار إلى محل كبير يعرض جرابات جلديّة فقط، صغيرة وكبيرة، بألوان شتى.
المحلّ طويل، نحو خمسة عشر ذراعًا، جاء صاحبه مسرعًا ما إن عرف بوجود النّقيب، ثم استدعى البائعين عنده، فأكّدوا أنّهم لم يبيعوا مثل هذا الجراب منذ شهرين.
انتقلا إلى المحلّ الثّاني، قال صاحبه وعيناه تلمعان: نعم، نحن بعناه، إلى أحد خدم أمير قبل أسبوع.
فعصفت الفرحة بسفيان، تساءل: أمير؟ ما اسمه؟
هزّ الرّجل رأسه: نسيت اسمه، دعني أتأكّد!
نادى بأعلى صوته: أسامة، مدّثر، عبد العزيز، تعالوا.
جاء ثلاثة شباب أحدهم شديد الأدمة. أكّد عبد العزيز: نعم، أنا بعته، أخبرني الخادم أنّه للأمير علي بن الحسن.
قال مروان، وهو ينظر نحو البائع: أعندك ورقة وقلم.
- نعم، تفضلوا إلى الدّاخل.
يبدو داخل المحلّ من بعيد شبه مظلم، لكنّهم عندما دخلوا كان هناك غرفة صغيرة عليها منضدة وقصب كتابة ومحبرة من الفضّة. التمس منه سفيان أن يكتب اسمه، واسم البائع، وشهادة بالبيع إلى خادم الأمير علي

بن الحسن. وطلب منه أن يوقّع هو والنّقيب يحيى الفلكي، والبائع عبد العزيز.

مضت نحو أربع ساعات وسفيان ينتقل على رجليه من مكان إلى آخر، أحس بالتعّب، لكنّ فرحته بالعثور على المشتبه به، طغت على إرهاقه، وحينما صافح النّقيب وترخص منه للمغادرة شدّ هذا على يده، قال: لن أسمح لك بالذّهاب، حينما نصل إلى المحل سترى شواءً شهيًّا أمامك، كُلْ واذهب.

التفت إليه سفيان: لماذا تريد أن تحطّمني؟

ذعرت عينا النّقيب: أنا؟ معاذ الله!

- إن سمع الخليفة أنّني أكلت معك لقمة واحدة أثناء الواجب فصلت من عملي، وتعرّضت للتّحقيق والسّجن، الولائم والهدايا أثناء الواجب رشوة، والعقوبة مضاعفة.

- حسنًا في يوم آخر.

- سأفعل.

انتهت صلاة الظّهر، وأخذت روائح الطّعام تنتشر في أرجاء السّوق، ولم يدرِ لماذا ازدادت شهيته إلى الطّعام، لكنّه استطاع أن يقاوم، فهو يعلم أن أفخر المطاعم موجود على مقربة من القصر، حيث يرتاده نفر كبير من القادة والأمراء حين يدعون ضيوفهم، وضيوف القصر. حين دخل المطعم، شمّ توابل السّماقية بلحم الضّان، والجوز، وجوز الهند، وجوز الطيب، والقرفة وبقية توابلها المهيّجة للمعدة. ثم جِيء بها، وُضعت أمامه على المنضدة، غمره شعور بالفرح لأنّه سيطفئ جوعه، لكنّه ما إن أخذ أوّل لقمة، حتى وجد يدًا تمسك برسغه. رفع نظره فرأى مروان أخاه، قال له سأشاركك السّماقية على أن تشاركني النّرجسيّة بالباقلاء، فضحك سفيان: لا مانع عندي.

- رأيتك تدخل، علمت أنّك جوعان مثلي. فقلت أباغتك.
- أتوصّلت إلى شيء.
- نعم.
- وأنت.
- نعم. لكنّي لن أقول لك، ستسمع منّي أمام الخليفة.
- حتى أنا.

بعد أن انتهيا، غسّلا أيديهما وفميهما، فرّشا أسنانهما بالمسواك، طلياها بالنّبك ، ليزيلا أي رائحة للطعام. ثمّ توجّها نحو القصر، فاستقبلهما الحاجب مرحّبًا: أنتما أوّل القادمين، لن أسألكما إن وفقتما لأنّي توقّعت نجاحكما. بارك الله فيكما. الخليفة بانتظاركما.

قال مروان بعد تحيّة المعتضد: توصلت يا أمير المؤمنين إلى معرفة هوّية الفتاة المغدورة، هي مغنيّة حسناء شابة في العشرين من عمرها، صوتها جميل جدًا، اسمها جُمان ابنة الحكيم حسان. اختفت قبل ثلاثة أيام.

احتدمت تقاطيع المعتضد بألوان شتى، مضت ثوانٍ لم يستطع أن يتكلّم فيها، ثم تمالك نفسه: -كيف وجدت الحقيقة؟- نظر إلى كليهما: أريد أن ترويا خطوات التّحقيق بالتّفصيل.

ابتسم مروان: أعرف أن هناك أربعة مراكز للشّرطة في الرّصافة، فذهبت إلى المركز الأوّل فعلمت أنّه لم تصله شكوى عن اختفاء أيّ فتاة، وكان مثل هذا عند الثّاني، أما الثّالثّ فذكر أحد الشّرطيين أنّ هناك فتاة اختفتْ، لكنّ أهلها تستّروا على القضيّة، ولم يرفعوا أمر اختفائها إلى السّلطة. ففرحت، وأدركت

.مادة تصنع من العطور لإزالة روائح الفم بعد الأكل -

أنّها هي المغدورة، وصمّمت أن أعرف كلّ شيء عنها. قادني الشّرطيّ إلى بيت أهل الفتاة. كانوا في حزن لا يوصف. لم يبوحوا لي بشيء أوّل الأمر، توقعت أنّهم يخافون من الإفصاح عن اسم القاتل، ربما لأنه متنفذ، أو لأنهم لا يعرفونه. صرفت الشّرطيّ، وبقيت أتحدث معهم في البيت، أخبرتهم عن رغبة أمير المؤمنين بالاطلاع على كلّ شيء. أعطيتهم الأمان باسم أمير المؤمنين. عندئذ قالوا لي هناك أمير كان يريدها لنفسه من دون زواج، فرفضتْ أن تختلي به، أو تغني له، لا بل اعتزلت الغناء. اعتكفتْ في البيت لا تغادره. لم يعرفوا كيف عرف الأمير بأنّهم جميعًا يغادرون البيت إلى الحمّام يوم الخميس. حينما رجعوا لم يروا جمانًا. أخبرهم طفل في السّادسة، أن امرأة عجوزًا طرقت الباب. طلبت قرص خبز، وعندما جاءتها جمان بالخبز، دفع الباب ثلاثة رجال أشداء، دخلوا البيت، وخرجوا بعد حين وبأيديهم لفة قماش كبيرة، ملفوفة بأحزمة، يحملها اثنان منهم. وكانت عربة تنتظرهم في رأس الزّقاق.

- ولم تعرف القاتل؟

- لا يا أمير المؤمنين.

- هل تظنّ أنّهم يعرفونه.

- نعم، أنا متأكّد مئة بالمئة، لكنّهم يخافون.

فكّر المعتضد طويلًا، ثم نظر إلى سفيان: وأنت؟

- أنا أعرف القاتل؟

ابتسم المعتضد مدهوشًا هتف: وتبقى ساكتًا من دون أيّ كلمة؟

- نعم يا أمير المؤمنين. إنّه الأدب، لم تسألني، كنت منشغلًا مع أخي، فلم أقاطعك.

ضحك المعتضد بسعادة: أنتما رائعان، تفضّل، من هو القاتل؟
تكلّم سفيان بهدوء وهو ينطق كلمة كلمة بتوئدة: ابن عمّكم يا أمير المؤمنين.
اتسعت عينا المعتضد دهشة، حلّت أمارات الجد على تقاطيعه بدل الحبور: أيّهم؟
- الأمير عليّ بن الحسن.
- أأنت متأكّد؟
-نعم. - قال ذلك وأخرج من جيبه ورقة فيها توقيعات البائع، صاحب المحل، نقيب صناعة الجلود.
ضرب المعتضد المنضدة بكفّه وهو يهتف: اللهم عفوك.
ثم نظر إلى الحاجب: أريد قاضي القضاة الآن، لن يغرب هذا اليوم إلا وينال المجرم جزاءه.
في اليوم التّالي استقبل المعتضد ذوي المغدورة، كافأهم بضعف ما توقّعوه، خلع على الأخوين مروان وسفيان والصيّاد الشّاب هاشم، خلعًا ثمينة، وفي الوقت نفسه شاهد سكان بغداد كلّهم، في بوابة الجس القريب من القصر، والذي يربط بين الكرخ والرّصافة أربعة رجال وعجوزًا واحدة مشنوقين، وعلى صدر كلّ منهم رقعة مكتوب عليها اسمه وعمره، وجنايته.

*****

جرائم أسواق بغداد

محمود سعيد

حدثت السّرقات الأربع الأضخم في تاريخ بغداد، في شهر حزيران سنة ٩٠٢ بالتّفصيلات الآتية: أولًا: السّرقة الكبرى الأولى في سوق القماش مصحوبة بمقتل أحد الحراس، شمال الجسر على دجلة في يوم الثّلاثاء في الأسبوع الأول من حزيران، ثانيًا: في سوق العرب في بداية الأسبوع الثّالثّ منه. ثالثًّا: في سوق الميدان في وسط الأسبوع الثّالثّ أيضًا، رابعًا: في سوق السّراجين في نهاية الأسبوع الرّابع.

جُنّ الخليفة المكتفي، وطلب من الوزير أبي الحسن بن خاقان استدعاء مسؤول الشّرطة العام الحسين بن يحي الواثقيّ، فقدّم هذا تقريره عن السّرقات الأربع، للوزير، لكنّ الخليفة لم يقرأ التّقرير، رماه بوجه الواثقيّ، قال له، وهو في أقصى حالات الغضب: خلال أسبوع واحد عليك أن تقبض على اللّصوص وإلا غُرّمت المبلغ كاملًا مع السّجن.

وعندما أراد أن يتكلّم، مدّ الخليفة ذراعه إلى الأمام بحركة سريعة، وكأنّه يدفعه، ووضع سبابّته على شفتيه، نبر بحرفين فقط: صَه.

---

٢٣٦ هجرية -

الوزير في العهد العباسي يعني رجل الدّولة الأول عمليًا، إذ أن تحت يده ما لايقل - عن ألف موظّف متخصّص يديرون الدّولة تحت إرشاده، وما الخليفة سوى رئيسًا كملكة بريطانيا، لا يحلّ ولا يربط، لكنّه يتدخّل عندما يفشل الوزير في اتخاذ إجراء مناسب.

همس أبو الحسن بن خاقان وهو ينظر إلى الواثقيّ عندما خرجا من غرفة الخليفة: يا حسين، مضت خمسة وعشرون يومًا واللّصوص يعيثون فسادًا في بغداد، أمام أعيننا ونحن سكوت! ما ذنب عائلة الحارس التي فقدت معيلها؟ ما ذنب التّجار الذين فقدوا تعب العمر؟ أنعيش في (دار السّلام) أم في غابة؟ قرأت أنا التّقرير الذّي قدّمته، قُل لي بربّك كم مقدار المبالغ المسروقة؟

أجاب الواثقيّ: خمسة وعشرون ألف ألف ، وسبعمئة ألف دينار ذهبيّ.

- لا أحد يعذرك لكونك ذكرت في تقريرك أن السّرقات الأربع مخطّطة بذكاء شديد، ومطبّقة بمهنيّة متقنة، لأن هذا يدلّ على فشلك في القبض عليهم، أما اعترافك أنّ اللصوص تخلّوا عن ثمانين ألف ألف درهم، وتركوها لأصحابها، لا يعني سوى مدح ساذج، غير مقنع للصوص مجرمين.

قال الواثقيّ بهدوء: سأنتهي من المشكلة قبل نهاية الأسبوع.

وإذ همّ بالابتعاد، أمسك أبو الحسن بن خاقان بذراعه، قاده إلى مكتبه الواسع، وما إن دخل حتى وقف أكثر من ثلاثين كاتبًا، بأيديهم ألواح خشبيّة عليها تقارير، عن أحوال الإمبراطوريّة شاسعة الأطراف، الممتدّة من المغرب حتى الهند، وحدود الصّين. كانوا قلقين مضطربين مشوقين كي يقدّموا المعلومات عن مشاكل الأقاليم اليوميّة وأخبارها، وما ينبئ المستقبل من أحداث محتملة، أو ناشبة، أو مستفحلة، قبل أن تتطور إلى أسوأ، وتلقي أوامره وتعليماته، لكنّ نظرات أبي الحسن بن خاقان إلى الواثقيّ وطريقة

دار السلام. اسم بغداد -

.لم يكن اصطلاح مليون أو مستعملًا آنذاك وكانوا يستعيضون عنه بألف ألف -

كلامه أعطته انطباعًا بأنه يتّفق معه بعض الشّيء حول مبرّرات التّأخُر في تقديم الجناة إلى القضاء، سأله وهو ينظر في عينيه: حسنًا لخِّص لي كيف حدثت الجريمة والسّرقات الهائلة.

- أنت تعلم أن فصل الصّيف يعني مضاعفة تدفق القوافل إلى بغداد من جميع الأقطار، وصل عددها البارحة مئتي قافلة، كلّ يوم تدخل قافلة أو أكثر، عدد أفراد القافلة بين تاجر وحمال وحوذيّ وحارس وجنديّ يترواح من ألف وخمسمئة إلى ألفين وخمسمئة، يعني يوجد الآن بين مئتي إلى ثلاثمئة ألف غريب في بغداد. هم قليل بالنّسبة إلى سكان بغداد الذّين يربون على ثلاثة آلاف ألف، حول بغداد خمسون قناة تجلب الماء من دجلة والفرات لتسقي هذا الكمّ الهائل من النّاس. القوافل الموجودة الآن من الهند والصّين وبلاد السّند وبلاد الحوريات البيض ، وبلاد الجزر الشّرقية ، وبلاد البلغار والرّوم ومصر وأرمينيا وبلاد التّتر والإفرنج والبربر. قبل أسبوع واحد جاءت قافلة من إفريقيا تحمل عشرة آلاف أوقيّة ذهبًا خالصًا، أمرت سبعة حراس بالبقاء أربعًا وعشرين ساعة في الغرفة المودع فيها الذّهب حتى يتوزع على التّجار، علينا أن نهيئ لجميع العاملين في القوافل جوًا آمنًا يوفّر له دور العبادة وخانات المنام والحمّامات والطّعام والرّاحة والاستجمام. هؤلاء اللّصوص أذكياء إلى درجة تفوق التّصور. لكنّا سنسيطر على الوضع، بالرّغم من أنّ أهمّ ما نخشاه هو أن يشيع أمر السّرقة إلى القوافل، أنت تعلم أن العراق الآن يقطنه أكثر من ثلاثين ألف ألف

.بلاد الحوريات او جزر الحوريات يعني كوريا -

.اندنوسيا وهونك كونك الخ -

وكلهم من مزارع وصانع وسائس وناقل وتاجر يستفيدون من وارد التّجارة، بطريقة ما، أخشى ما أخشاه أن تتسرب معلومات السّرقة إلى رجال القوافل فينقطعوا عن المرور في أراضينا، ويقطعون أرزاقنا، نحن نعلم أنّهم من جميع أقطار الأرض، يأتون ليبيعوا بضائعهم، ويشترون ما يبغونه.
قال أبو الحسن بن خاقان بهدوء وهو ينظر إليه بقلق ليتفرّغ إلى موظفيه: أعلم كلّ هذا، اذهب راشدًا.
كان معاونو الواثقيّ الخمسة ينتظرونه في بهو الانتظار الكبير، نهضوا لاستقباله من بين موظّفي الوزير الذين ينوفون على أربعمئة شخص، يريدون تقديم تقاريرهم وتسلّم واجباتهم. اقترب المعاونون من الواثقيّ باحترام. حدّق فيهم واحدًا واحدًا: لن نغادر قصر الخليفة إلّا ومعنا خطّة تعيننا على عملنا، من منكم فكّر في خطّة؟
ابتسم أحد المعاونين، كان يقف أمامه: السّرقات الأربع من محلّات تجار أثرياء لكن ما يزال هناك تجار أثرى منهم وفي مستواهم، رأيي أن نراقب محلّات هؤلاء الأثرياء لأن اللّصوص سيقصدونها حتمًا.
هزّ الواثقيّ رأسه بهدوء: أنت على حقّ. لكنّ هذه الخطّة تستلزم أشهرًا، إن نصبنا كمائن حول المحلّات الغنيّة فسيعلم اللّصوص بها، وسيتوقّفون، ونحن نريد أن نقبض عليهم ونسترجع ما سرقوه من الآخرين، ونعاقبهم على جريمة القتل.
تتالت اقتراحات الأعوان لكنّها جميعًا كانت تصطدم بالوقت المحدود من جهة وبذكاء اللّصوص من جهة أخرى. حينئذ قال لهم وهو يبتسم بألم: حتى أنا ليس عندي أيّ فكرة عما يجب أن نفعل، لكنّه أشار إلى مقاعد تحت ظلّ أشجار باسقة في حديقة القصر، قال دعونا نجلس هناك ونناقش

الموضوع، فنحن نفكّر منذ شهر، ولم نتوصّل إلى شيء، ومن طول ممارستي في مهنتي تعلّمت شيئًا معينًا بسيطًا وهو أن النّقاش في أيّ موضوع مغلق مع الآخرين يقود إلى خيط ربما يؤدي إلى حلّ المشكلة.

كانت حرارة تمّوز لاهبة، بالرّغم من ظلّ الأشجار الكثيف، أضاف: كلّنا نعرف حيثيّات السّرقات، وربما تظنّون أن إعادة ذكر الحوادث نوع من تبديد الوقت، لكن دعونا نضيّع ساعة في ذلك فلعل وعسى، أخبروني ما الغريب في السّرقات؟ تتالت التّعليقات: الغريب في الحادثة الأولى أنّ اللّصوص جاؤوا بهودج وأناخوا الجمل قرب باب المحلّ، وعندما جاء العسس، وسألوهم ماذا يفعلون هنا؟ قالوا لهم: نحن غرباء وجئنا من مصر، وهذه أمّنا مريضة ونحن نبحث عن طبيب، وفتح أحدهم حجاب الهودج وقال للشّرطي انظر. وحينما قرّب وجهه، ضربه أحدهم على رأسه ففقد وعيه، وعندما استعاده وجد عينيه، معصوبتين بكوفيّة سوداء، وفمه مكمّم، ويداه ورجلاه مقيدتان وهو مرمي في الطّريق هو وحارس آخر مذبوح. يبدو أنّه قاومهم. ولم يجد هودجًا، ولا جملًا ولا لصوصًا. أما السّرقة الثّانية فكانت بشكل أذكى لا تخطر على بالٍ مطلقًا. فمن اشتكى صاحب محلّ بيع الباقلّاء، ونحن نعلم أنّ محلّ الباقلّاء ليس فيه ما يسرق، لا بل لا يوجد فيه غير بضعة قدور وأصحن، وباقلّاء يابسة وبعض التّوابل، لا غير، ولهذا لم يكن صاحبها وأصحاب المحلّات المشابهة كالخبّازين، وطباخي الحمص وبائعي العلف يوثّقون محلّاتهم بأقفال ثقيلة، ربما يغلقون الباب من دون قفل. دخلوا محلّ الباقلاء ونقبوا المحلّ إلى محلّ العطار ونقبوا محلّ العطار إلى أهم محلّ حرير في بغداد، المحلّ الذّي يستورد حريره من الصّين ودمشق والأندلس، وكسروا الخزانات الحديد، وسرقوا آلاف آلاف الدّنانير، أما الثّالثة

فكانت أشبه بالأولى، لكنهم استعملوا فيها عربة يجرها بغل، وكانت إحدى العجلات مكسورة خارجة عن وتدها، وعلى العربة تابوتان، زعم اللصوص أنّهما لأخوين لهما سقط عليهما حائط فقتلهما، وكانت معهم أمّهم، تبكي وتكفّف دمعها، وبينما كان الشّرطي يتسمع لهما، فقد وعيه، وشهد نفسه في صباح اليوم التّالي مرميًا على الرّصيف هو وزميله. وحدثت السّرقة الرّابعة بحيلة أشبه بالثّانية، فالمحلّ لم يكسر، والحائط لم يهدم، بل أن اللصوص استغلوا رحيل أصحاب دار ملاصق من الخلف ليثقبوا الحائط بين البيت والمحلّ ويدخلوا إليه.

فاجأهم الواثقيّ بسؤال: ما القاسم المشترك في كلّ هذه الحوادث؟

حينما لم يجب أحد قال: في بعض السّرقات توجد قضيّة صغيرة لم يلتفت إليها الحارس. ففي الحادثة الثّانية شكّ الحارس في الهودج لكنّه اقترب منه أكثر من اللازم، ولو ذهب وجلب بعض العسس ليساعدوه لما حدثت السّرقة، وكذلك في القضية الرّابعة، أما الثّانية والثّالثّة فأكثر تعقيدًا. من هذا كلّه نستنتج شيئًا وهو يتوجّب علينا أن نلاحظ أيّ شيء غريب، وندقّق فيه.

ثمّ حدق فيهم وتساءل: كيف نبدأ؟

تساءل أحدهم: علينا أن نقرّر إنْ كان القائم بالسّرقات كلّها فئة واحدة أم عدّة فئات؟

حدق الواثقيّ فيهم واحدًا واحدًا، ثم قال: أترك الإجابة إليكم. من يريد أن يبدي رأيه فليفعل!

ابتسم الذّي على يساره: نعم. جهة واحدة. لكن العدد ربما أربعة أو أكثر، لكنّهم كما يبدو أشداء لأنّهم استطاعوا نقب الحيطان وتكسير الخزانات

الحديدة.
- هذا مؤكّد من شهادة الشّرطة الذّين ضُربوا وشهدوا الحوادث.
- ماذا لو خرجوا من بغداد إلى جهة أخرى، ليعجزوا المحقّقين، كانوا من الذّكاء إلى حدّ لا يمكن أن يتخيّله أحد.
ردّ آخر: مستحيل؟ هم ما يزالون في بغداد، لم يخرجوا.
سأله الواثقيّ: لماذا؟
- لأنّهم جشعون، وإلّا اكتفوا من السّرقة الأولى، بضعة آلاف ألف دينار تكفي مئة شخص لمئة سنة في العيش في النّعيم.
قال الواثقيّ: صدقت.
قال أحد الشّرطة: لفرط ذكائهم أنّهم ضربوا الحارسين ووضعوهما في التّابوتين، وعندما انتهوا أخرجوا الحارسين من تابوتيهما ورموهما على الأرض. لو تركوا تابوتًا واحدًا لعرفنا من صانعه، ومن اشتراه، لكنّهم سحبوه معهم.
هذا صحيح. لو تركوا العربة أيضًا لعرفنا كذلك من صنعها ولوصلنا إليهم.
ابتسم الواثقيّ: أرأيتم؟ جميع استنتاجاتكم صحيحة. الآن بدأت أثق أنّني معكم لا بدّ أن نصل إلى الحلّ في خلال أقلّ من أسبوع.
ابتسم أحدهم ابتسامة أقرب إلى الضّحك: كلّكم نسيتم نقطة جدّ مهمّة، تدّل على ذكاء اللّصوص. أخذت خبراء الاقتفاء معي إلى جميع أمكنة الحوادث فلم يستطيعوا تشخيص أيّ أثر. كانوا يكنسون التراب تحت مواطئ أقدامهم إلى مسافة خمسين مترًا.
من المستحيل أن تتم سرقة كبيرة من دون تعاون أحد العاملين في المحلّ مع اللصوص، لكنّا حققنا مع الجميع ولم نستطع اكتشاف أيّ كان.

قال من كان جالسًا على الجهة اليمنى: أرى أن نضع مكافأة لمن يعطينا معلومات عن أي دليل يقود إلى كشف ولو سرّ حادثة واحدة، بعدئذ يصبح حلّ القضايا الأخرى سهلًا.

قاطع أحدهم بصوت محتدم: لا، لا يمكن.

نظر إليه الواثقيّ باهتمام: أوافقك الرّأي. لكنّي أريد أن أعرف وجهة نظرك,

أحنى المتكلّم رأسه احترامًا: لأنّنا إن فعلنا فسيصل الخبر حتمًا إلى الّلصوص، فيتوقّفوا حتى ينسى النّاس الحوادث ويستأنفون سرقاتهم بعدئذ.

قال آخر: إعلان المكافأة ينتشر بسرعة، ويصل إلى التّجار الضّيوف ويحبطهم، ماذا سيقولون؟ عاصمة العالم الكبرى لا تتمتّع بالأمان؟

هزّ الواثقيّ رأسه، موافقًا: هذا صحيح.

- ماذا بعد حلّ لغز القضايا والقبض على الجناة؟

- آنئذ سنقوم نحن بشرح كل شيء لهم، وبأخذهم إلى أماكن السّرقات لاطلاعهم على الحقائق كما هي كي لا يبقى في أذهانهم أوهام مضطربة منقولة إليهم من جهات بعيدة عن الحقيقة، سنريهم اللصوص، ونطلعهم على العقوبة ليثقوا فينا.

قال أحدهم: أرى أنّ الخطوة الأولى هي وضع حرس مخفيّين لمراقبة المحلّات الغنيّة أربعًا وعشرين ساعة.

تدخل الواثقيّ: لا أحبّذ هذا الرّأي، لأنّه ينبّه اللصوص. لكنّي أقترح تقسيم بغداد إلى مئتي منطقة، وتعيين الأذكياء من الشّرطة لمراقبة كلّ قسم شارعًا شارعًا، دربًا دربًا، وهم متنكّرون.

تساءل أحدهم: لكنّ ذلك سيدخلنا في مشاكل مع النّاس الأبرياء، و. .

قاطع ثانٍ: لماذا؟

التفت إليه المتكلّم: ألسّت ابن بغداد؟
نعم، ابن ماذا إذن؟
- إنْ لحظت أيّ شخص يمرّ في درب بيتك غير مرّة ألا تشكّ أنّه يلاحق فتاة في الزّقاق؟
ضحك الواثقيّ، نظر إليه: أنت على حقّ.
- كنت سأقول شيئًا في هذا الصّدد، لكن لأدعكم تتكلّمون.
بالرّغم من جلوسهم تحت ظلّ الأشجار إلّا أنّ أجسادهم ابتلّت بالعرق.
تساءل أحدهم: كل الشّوارع، حتى شوارع الفقراء؟
- نعم، شوارع الفقراء بالذّات، اللّص لا يسكن منطقة غنيّة إلا بعد أن يطمئن إلى نسيان الجريمة.
- أين نلتقي؟
- ستروني طيلة اليوم في منطقة الكرخ على دجلة، بين الجسر القديم وشارع الحرير، وسيبقى عشر مراسلين مع بغالهم في المقرّ فإن أراد أحد أعوانكم أن يتّصل بي ليذهب إلى هناك فالمراسلون يعرفون أين يجدونني. وسنلتقي يوميًّا بعد غياب الشّمس في مقرّنا الرّئيس إلا إن جدّ جديد. عليكم جميعًا إزالة شارات الشّرطة من ملابسكم، والتجوّل متنكّرين بزي دروايش أو فقراء أو حرفيين. (قال ذلك ونظر وهو يبتسم إلى من اعترض على المرور غير مرّة في درب كي لا يظنّ النّاس أنّه يلاحق فتاة أو امرأة ما) ثم أضاف: ولا تستعملوا في تنقّلكم البغال والبراذين فهي وسيلة الأغنياء، استعملوا الحمير.
تفرقوا في أرجاء العاصمة المتّسعة، ثم اجتمعوا بعد صلاة المغرب في مقر الشّرطة، سألهم الواثقيّ عما لاحظوه أو جلب انتباههم طيلة اليوم،

فطرحوا الكثير منها: أحدهم وجد عربة مكسورة، كما في السّرقة الثّالثّة، لكنّه تأكّد أنّها كانت كذلك منذ أكثر من شهر، وقال ثانٍ إنّه تأكّد أنّ الهودج المستعمل في السّرقة الأولى لم يكن مستأجرًا، لأنّه استجوب أصحاب الهوادج فلم يجد أيًا منهم أجّر واحدًا في ليلة الحادثة. أبدى الآخرون ملاحظات كثيرة جلبها أعوانهم. لحظ أحد المراقبين عاملًا في سوق الذّهب اشترى أكبر محلّ للذّهب فيه، وعندما تتبّع أصول الخبر وجد أنّه ابن أحد التّجار من جارية له، لم يعترف الأب به إلّا بعد إصابته بمرض عضال. أثار شكّ معاون آخر في زواج ابنة أحد أكبر مستوردي أشجار الأرز، من أحد موظّفيه الفقراء، وعندما استقصى الأسباب اكتشف أنّ الأب كان يثق فيه لأمانته، وأنّه لم يرزق بأولاد.

التفت الواثقيّ إلى الباقين قال لهم: استمرّوا في سعيكم وحاولوا أن تستقصوا الخبر مهما صغر.

حدث الشّيء نفسه أثناء لقائهم في الأيام الثّلاثة التّالية. كانت كلّ ساعة تمضي تزيد ألم الواثقيّ وشجونه، حتى أنّه لم يستطع أن يرقد في الليل أكثر من نصف ساعة فقط.

في نهاية اليوم الخامس قال أحدهم إنّه رأى عظام خروف مشويّ، مع جمجمته المحروقة، مكدّسة قرب باب بيت في زقاق النّخالين الفقير، قرب القناة العاشرة مع الجادة الرّئيسة، وعندما سأل عن أصحاب البيت أو وجود مناسبة كزواج أو ختان، لم يفده أحد.

انتفض الواثقيّ، اتسعت حدقتاه: سأجيء معك إلى الحيّ نفسه في الغد.

بكّر الواثقيّ في صباح اليوم السّادس. تطلّب منهم الوصول إلى زقاق النّخالين نحو ساعتين. الزّقاق طويل متعرّج، يمتد نحو سبعمئة ذراع.

بدت البيوت متواضعة جدًا، معظمها من الطّين، إلّا عشرها تقريبًا فكانت من الآجرّ المفخور، لكنّها بشكل عام مبنيّة من طابق واحد، إلا بيتين في أوّل الطّريق، إذ كانت تشرئب غرفة لكلّ منها على الزّقاق الضّيق. في كلّ منها كوى صغيرة لا تتجاوز شبرًا مربعًا، تبدو وكأنّها حفر في الجدران، كان البيتان متلاصقين. قال الواثقيّ: ربما هما لمالك واحد بناهما لأخوين اثنين.

سار الواثقيّ مع ضابطه، وهما متنكّران بزيّ حجاج قادمين من ماردين. كان الزّقاق حيًّا، أمام عشرات البيوت تقف عربات تجرها الدّواب، وبين الحين والحين يدخل عمال يأتون بأكياس الطّحين والنّخالة يصفونها على العربة، ثم يغادرون الزّقاق. بدأت شمس الضّحى قويّة جدًا، أحس بالعطش، وبالعرق يرطب جسده كلّه. قال الضّابط: الدّار الذّي تحدثت عنه في آخر الزّقاق. وعندما وصلوا إليه لم يجدوا عظام الخروف، لكنّهم وجدوا هيكلًا عظميًا لسمكة ضخمة بطول يزيد على خمسة أقدام.

قال الضّابط: لا شكّ أن الزّبالين نظفوا الشّارع أمسِ.

هزّ الواثقيّ رأسه وهو يقول: كم تظنّ أن مثل هذه السّمكة تكلّف؟

- إنها من النّوع الممتاز الثّمين، بين ثلاثة أربع الدّينار والدّينار.

ابتسم الواثقيّ: أكثر من راتبك الشهري.

ضحك الضابط: صدقت.

- البارحة خروف كامل واليوم سمكة بهذا الحجم، لا شكّ أنّ صاحب البيت غنيّ جدًا ليصرف مثل هذه النّقود على طعامه.

قال الضّابط: ألّا ندّق الباب عليهم لنرى من في البيت؟

الكوة: مربع صغير يبنى في أعلى الحائط لكي يراقب منه أهل البيت ما يجري في - .الشّارع، من دون أن يراه المتطّفلون. لم تكن الشّبابيك معروفة آنذاك

نظر الواثقيّ إليه بغضب: أتريد أن تفسد القضيّة؟ دعنا نسأل أولًا، توقّف قرب الباب الملاصق للبيت المقصود، قال لمرافقه: قف ورائي. طرق الباب.

فجاء صوت بعد بضع ثوانٍ من وراء الباب: مَنْ؟

قال: غريب أريد كأس ماء.

- لا أستطيع أن أفتح الباب، إنّه أمر زوجي ولا أقدر على عصيانه.

قال لمرافقه: دعنا نذهب إلى الباب الملاصق من الشّمال، وحينما طرق الباب، خرج طفل في السّادسة، قال: لا نستطيع أن نشرب الماء الآن، جاءنا السّقاء به قبل قليل، ولا نشربه إلّا بعد غليه. تعال بعد ساعة.

ضحك الواثقيّ: لا بأس. من علمّكم غلي الماء.

- أبي مساعد للطّبيب ابن العوسجي.

- سلم لي على أبيك.

- أيعرفك؟

- لا، قل له حاج من ماردين.

توجّها إلى البيت المقابل، كانت العتبة من مرمر أصفر، نظيف جدًا، كأنّها مغسولة، فتحت الباب عجوز في السّتين، ترتدي قماشًا من خام أزرق، وتشد جبهتها بعصابة سوداء، بينما ينطرح على صدرها ذؤابتان شمطاوان يختلط البياض فيهما بالسّواد، ابتسم الواثقيّ ابتسامة كبيرة: يا خالة، أنا وصديقي حاجّان من ماردين، حرّ تمّوز لا يرحم، نريد كأس ماء.

- أبشر.

دلفت إلى الدّاخل، وسمعها تنادي: محمد جئ بماء للحجّاج.

جاء طفل في الثّامنة وبيده طاسة ماء كبيرة تكفي الاثنئن، قالت: اشربا هنيئًا.

تناول الطّاسة، منها، وقبل أن يشرب، أشار إلى عظام سمكة الدّار المقابل: أرأيت مثل تلك السّمكة من قبل؟

مدّت رأسها وابتسمت: هذا ديدنهم، يوم خروف مشويّ ويوم سمكة بهذا الحجم أو سمكتان، ويوم عظام بطّ ثمين غالٍ.

- لا شك أن عددهم كبير.

-لا، هم خمسة رجال. لكنّهم يبدون أشدّاء ضخمين.

- أتعرفينهم؟

هزّت راسها: لا، لا يعرفهم أحد في زقاق النّخالين هذا، استأجروا بيتهم قبل نحو شهر فقط. لم نرَ أيّ امرأة تدخل أو تخرج منه.

عبّ شيئًا من الماء: من يخدمُهم؟

- فتىً لم يتجاوز العشرين من عمره، ينظّف البيت، يطبخ الطّعام، يذهب بالملابس الوسخة إلى أهله ليغسلوها.

- كيف تعرفين ذلك؟

- سألت الفتى، إنّه طيب و-شاطر-، يسألنّي في طريقه إلى السّوق دائمًا إن كنت بحاجة إلى شيء.

ناول الطّاسة إلى مرافقه، مسح فمه: لم تري أيًا منهم؟

- بالطّبع لا. لا أنا ولا أيّ كان، حسب قول الفتى إنّهم تجّار يريدون التّخلّص من حرّ الصّيف، يقضون النّهار مرتاحين من دون عمل، يأكلون ويشربون ويلعبون الشّطرنج والنّرد، أمّا في الليل فيتفرّقون إلى بيوتهم، ولا يرجعون إلا في السّحر.

انحنى المرافق وهو يسلمها الطّاسة، سأل الواثقيّ: هل ينام الفتى في البيت ليلًا؟

فتحت عينيها وكأنها فوجئت بالسّؤال: لا، يخرج عصرًا كلّ يوم، ومعه ما تبقى من الطّعام، والفواكه، ولا يأتي إلّا في الصّباح، جاء قبل ساعة فقط.

- وأنتم ألا يصيبك شيء من الطّعام؟

ضحكتِ العجوز: بلى، نكتفي بشمٍّ رائحة الشّواء. سيبدأ بعد قليل.

ابتسم الواثقيّ: شكرا لك يا خالة، أنت طيّبة.

- أدعوا لي عندما تصلان إلى قبر رسول الله.

- سندعو لكِ ولأهالينا جميعًا.

التفت إلى معاونه: هذا البيت بغيتنا، أسرعْ، اذهب إلى نقطة التّجمع، جيء بخمسين شرطيًا، وليأت معكم النّافخ في بوق النّفير، مع بوقه. على وجه السّرعة، استعملوا دوابكم لتصلوا بسرعة، ولا تسيروا مجتمعين، كي لا تثيروا المارّة، ستروني واقفًا في رأس الزّقاق.

أخذ الواثقيّ يفكّر في طريقة يقبض فيها على اللّصوص من دون أن يتمكّن أحد من الهرب، كانت العقبة الأولى أمامه هي إقناع الجيران بالتّعاون، إذ أن الخطّة التي رسمها تقضي أن يصعد الشّرطة إلى أسطح البيوت المجاورة كي لا يلجأ أحدهم إلى الهرب عن طريقها، ووضع حرس خلف جدران البيت عند الجيران. أما العقبة الثّانية فكانت منع النّاس من المرور في الزّقاق حينما تبدأ الخطة، والزّقاق -كما رآه- مطروق بشكل دائم بعربات تحمل النّخالة والدّقيق وحمالّين بشكل دائم.

نقع جسده بالعرق، وهو يتمشى في المنطقة تحت شمس جهنميّة، لكنّه نسي الحرّ والعرق حين وصل تابعوه، وزّعهم في الشّوارع الملاصقة بحيث لا يستطيع أيّ كان أن يراهم مجتمعين، كانوا جميعًا متنكّرين، لا يحملون أشرطة الشّرطة على أذرعهم، قال لهم: انتظروا إشارتي. عندما أرفع يدي يأتي

خمسة منكم، لا أكثر، عند كلّ إشارة.

ذهب إلى الشّارع الملاصق لشارع النّخالين من الخلف. طرق أحد الأبواب. تفاءل عندما ردّ عليه صوت رجل، ثم ظهر رجل في مقتبل العمر، يرتدي بزّة العلماء الفقهاء، فتفاءل، متوقّعًا تعاونه. نظر الفقيه إلى عينيه، محيّيًا، قال الواثقيّ: أنا أمين بغداد على مصالح سكانها.

- أهلًا وسهلًا.

بدأ في توضيح الأمر بصوت هادئ، حاول أن يكون مقنعًا: سيصعد خمسة من أفرادنا إلى سطح بيتكم لأنّنا نخشى أن يهرب أحدهم عن طريق تسلق حائط سطحكم. وافق الفقيه على ذلك، لكنّ الواثقيّ لم يؤشّر على تابعيه بالقدوم، بل قال له: إنّي أطمع بالمزيد من التّعاون.

ابتسم الفقيه. بدت عليه إمارات الحيرة، تساءل: ماذا تريد؟ أنا مثلك أشاركك مسئوليّة الأمانة على مصالح سكان بغداد.

- أريد أن تصاحبني لإقناع سكان البيوت الأربع المجاورة لك، والبيوت المجاورة في زقاق النخالين، سيطمئنون إليّ إن صحبتني.

- لكني لا أعرف غير ثلاثة منهم.

قال ذلك وسكت مفكّرًا، بضع ثوانٍ، قال بعدئذ: سأطلب من زوجتي أن تقنع البيت الرّابع. هي صديقة لصاحبته. قال ذلك ثم دخل الدّار، قضى بضع دقائق وخرج ووراءه زوجته محجبة لا يبدو غير نصف وجهها، منكسّة رأسها، وحينما أقنعت صاحبة البيت، نظر الواثقيّ نحو تابعيه ورفع يده إلى الأعلى فجاء خمسة أشخاص وقبل أن يصعدوا إلى سطح الدّار، قال لهم: إن سمعتم بوق النّفير، اقفزوا حالًا إلى سطح بيت اللصوص وأشهروا سيوفكم. ثم ذهبا إلى البيت الثّاني، حتى إذ انتهى من البيوت الخمسة الأربعة

الملاصقة رجا الفقيه أن يكمل معروفه فيرافقه إلى زقاق النّخالين الموازي.
لم يبقَ سوى بيت السّيدة التي تلتزم بتعاليم زوجها في عدم فتح الباب، فاستعان الفقيه بزوجته وبالعجوز في البيت المقابل، لكنّ هذه صرختْ في وجه الواثقيّ: كذبتَ عليّ، قلت إنّك حاجّ.
ابتسم الفقيه، وهو ينظر إليه: كفر عن كذبتك باعتزامك الحج مرّة ثانية.
- إن شاء الله.
وعندما اطمأنّ إلى توزيع أعوانه على البيوت المجاورة، رفع يده فجاء آخر ستّة أشخاص، أحدهم صاحب النّفير، قال لخمسة منهم: سأطرق الباب، وما إن يُفتح اندفعوا حالًا إلى الدّاخل شاهرين أسلحتكم، لكن إيّاكم والقتل. لا تقتلوا إلّا مضطرّين. سنباغتهم قبل أن يمدوا أيديهم إلى أسلحتهم. ثم قال لصاحب البوق: حين ينفتح الباب انفخ في البوق حالًا.
ثم تقدّم وطرق الباب، فأجابه صوت من الدّاخل: من؟
- أمين
- من أمين؟
- أمين بغداد.
قبل أن يكمل كلامه فتح الباب، ظهر شاب طويل ممتلئ في نحو التّاسعة عشرة، تقدّم خطوة لكنّ أربعة أيدي قويّة دفعت الباب بعنف جعلته يسقط على ظهره إلى الأرض، واندفع المسلحون الخمسة إلى داخل الدار شاهرين أسلحتهم في الوقت الذي ارتفع صوت بوق النّفير ليصل كلّ من كان يعيش في زقاق النّخالين وما يوازيه من أزقّة، ويدفعهم للتوجّه نحو البيت.
دخل الواثقيّ خلفهم، وأوعز إلى أحدهم أن يوثق يدي ورجلي الشاب،

وحينما وصل إلى وسط الدار ففغمته هو وجميع الرجال رائحة خروف كامل موضوع فوق مشبك حديد يشوى على نار هادئة، فيما اندفع من غرف البيت الثّلاث خمسة رجال عزّل يرتدون مباذل نوم فقط.
وإذ رؤوا أسلحة المهاجمين على الأرض وفي سطح المنزل والمنازل المجاورة المحيطة، استسلموا حالًا، ولم يلجؤوا إلى المقاومة.
وبعد تكبيل أيديهم وربطهم واحدًا بالآخر، قال لهم الواثقيّ: قبل أن أنقلكم إلى مركز القيادة، عليكم أن تعترفوا أين خبأتم النّقود كلّها. لأنّكم تعلمون أن لا وسيلة لنا في انتزاع المعلومات منكم سوى التّعذيب.
حدس الواثقيّ أن الخليفة المكتفي سيطلب منه رؤية اللصوص السّتة، فأخذهم معه، في اليوم نفسه، بعد أن أجبرهم على ارتداء ملابس لائقة.
رافقهم الوزير، وأدخلوا إلى غرفة الحاجب وأيديهم مربوطة بإحكام بعضهم إلى البعض الآخر، حتى يطلبهم الخليفة.
كانت ابتسامة الخليفة خفيفة، لكنّها مطمئنة تعكس ارتياحًا ورضًا، ردّ تحية الواثقيّ وهو يهزّ رأسه، قال له: لنر اللصوص.
اللصوص ضخام وسيمون ممتلئين بغير سمنة، حدّق فيهم الخليفة واحدًا واحدًا ثم سألهم: كم ألف ألف دينار سرقتم في المرة الأولى؟
نكّسوا رؤوسهم، لم يجيبوا، نظر الواثقيّ إليهم بصرامة، قال للشّخص الأوّل فيهم: أجب الخليفة وإلا ستضطرّ إلى الإجابة.
قال اللصّ: سبعة آلاف ألف ومئتي ألف دينار.
قال الخليفة: لا أملك أنا ولا أيّ من عائلتي مثل هذا المبلغ، إنّه يكفيكم جميعًا خمسمئة سنة للحياة حياة مرفهة لا مثيل لها، فلماذا الطّمع، كان بإمكانكم الذّهاب إلى أيّ مدينة في الرّوم أو إفريقيا أو بلاد البلغار أو بلاد

الهند أو السّند أو الصّين، أي مدينة في العالم؟ من دون أن يطّلع على سركّم أحد. لماذا استبدّ بكم الطّمع؟

لم يجب أيّ منهم. فنظر الخليفة إلى الواثقيّ، عندئذ هتف بهم هذا: أجيبوا الخليفة وإلّا.

قال من كان يقف في الوسط: يا أمير المؤمنين أغرانا الشّيطان.

ابتسم أبو الحسن بن خاقان الأعظم: الشّيطان أم هذا؟

قال ذلك وأخرج دينارًا ذهبًا.

*****

اختفاء ضابط

محمود سعيد

حين أنهى عَضُد الدّولة توقيع جميع الأوراق على منضدته، وكتب التّعليقات عليها، سلّمها إلى الوزير الكلواذانيّ، لم يبقَ معه سوى رئيس حرسه منصور القدمانيّ. حدّق فيه كأنّه يراه أوّل مرّة. ارتعب منصور، علت وجهه حمرة المفاجأة. قال عَضُد الدّولة بصوت جادّ وهو يركّز عينيه عليه: ألا ترى شيئًا غريبًا؟

زاد اضطراب منصور، أجاب حائرًا وهو يفكّر عميقًا: ماذا تقصد يا سيّدي؟

أعاد عَضُد الدّولة سؤاله: قلت لك ألا ترى شيئًا غريبًا؟

بسط منصور ذراعيه وهو ينظر حواليه: لا، لا أدري.

هتف عَضُد الدّولة: أين حسن شيرزايّ؟

- لست أدري يا سيّدي.

- قبل شهر تسلمت رسالة من خالتي، أرسلتها لي نيابة عن أمّه، جاءت الرّسالة من الرّيّ تقول إنّ حسنًا لم يرسل لأمه أيّ فلس منذ ثلاثة أشهر، وعندما أطلعته عليها، قال صحيح، لكنّي أرسلت لهم هذا الأسبوع وربما ستصل الحوالة خلال عشرة أيام أخرى. لا أدري إن كان صادقًا أم لا، إن كذب عليّ فذلك يعني أنّه يستحقّ عقابًا شديدًا لأنّه لم يرسل لأمّه واخته ما يعيلهما منذ أربعة أشهر. عائلته ذات نسب مع عائلتي، وأبوه كان من

حاكم بغداد القويّ في القرن التّاسع -

المخلصين لي. قتل في معركة ضد أعدائي، كان عليّ ردّ الجميل، جلبته إلى بغداد كي يرتقي في الوظائف تحت رعايتي. أين هو؟ لم أره منذ أسبوع.

لفّت الحيرة منصور، كاد يرتجف من الخوف، كلمة واحدة من عَضُد الدّولة تنهيه، تجعل رأسه يتدحرج بين رجليه، هو الذّي يحكم باسم الخليفة وبصلاحياته معظم العراق وإيران، لم يخرج عن طاعته سوى الموصل.

جاء صوته عاديًا خاليًا من التّعاطف: أخبرَني حينما قدم قبل ثلاث سنوات أنّه أستأجر بيتًا مع ضابط آخر، أتعرف من هو؟

- معي يا سيّدي.

- معك؟ ويحك؟ ويختفي منذ أسبوع ولا تخبرني؟

- لم أرد إزعاجك، أعلم أنّك مشغول.

- أنا دائمًا مشغول، الشّغل لا ينتهي مع رجل مثلي، ألست تعرف ذلك؟ كان عليك إخباري.

- بدأتُ مع أبي الحزم تحقيقًا طويلًا في اليوم الثّالث.

- لماذا لم تبدأه في اليوم الأوّل؟

أخذ العرق يتصبّب من قسمات وجه منصور، فهو يعرف أكثر من غيره شدة ذكاء عَضُد الدّولة، وصرامته، وحديّته، اضطرب: لأنّي ظننت أنّك أرسلته في مهمة سريّة، سبق وأن أخبرني غير مرّة بذلك، أنت يا سيّدي تثق فيه كثيرًا إلى الحدّ الذي يجعلني أتردّد ألف مرّة في قول أيّ كلمة تخصّه حتى لو كانت في صالحه.

- هذا صحيح، أنا أثق فيه، لكن ليس على حساب مصلحته.

- سامحني إن قصّرت، بيدك الأمر، أنت القويّ الكريم.

- لا بأس. لكن كيف عرفت أنّني لم أرسله في مَهمّة خاصّة؟

نظر نحو الباب من دون إرادته، فهتف عَضُد الدّولة فيه متسائلًا: لماذا تنظر نحو الباب؟ من تتوقّع أن ترى؟

- أمين شرطة بغداد أبو الحزم الطّبرسي. لأنّه يعرف كلّ شيء عن التّحقيق، فقد كان حسن شيرزاي يتسلّم تفصيلات أوامركم الصّادرة له منه في مثل هذه الأمور.

نظر إليه عَضُد الدّولة وتقاطيعه تشي بالتّفكير بدل الغضب، ثمّ خفّف من حدّة صوته: وماذا توصّلت في تحقيقاتك؟

احمّر وجهه مرّة ثانية، فأدرك عَضُد الدّولة أنّ هناك أشياء يحجم عن ذكرها، قال بهدوء وهو يمدّ رأسه نحوه: اذكر لي جميع التّفصيلات مهما صغرت مع دقائقها وملابساتها، ولا تخجل من كشف أيّ شيء.

وإذ سمع عَضُد الدّولة صوت خطوات خارج بهو الحكم، قال لمنصور: إنّه أبو الحزم استدعه، فدخل هذا حينئذ فاجأه عَضُد الدّولة بلهجة حادّة: لماذا لم تخبرني باختفاء حسن شيرازي؟

- ليس قبل أن يكتمل التّحقيق يا سيّدي.

بدا على عَضُد الدّولة أنّه ما زال يفكّر، ثم التفت إلى منصور: أين استأجرتم البيت؟

- على القناة التّاسعة في شرق بساتين الرّشيدية نحو الشّمال.

- لماذا هذا البعد. كم يقتضيكما للوصول؟ إلى هناك؟

- نحو ساعة.

- ولماذا ابتعدتما؟

- كلّ شيء رخيص، الإيجارات، الفواكه، اللحوم، الدّجاج. جيراننا طيّبون، يحترموننا كثيراً.

حدّق فيه عَضُد الدّولة: وماذا عن النّساء؟ ألم تقيموا علاقات معهن.
ابتسم أبو الحزم، بينما غلب الاحمرار على تقاطيع منصور: لا نستطيع يا سيّدي أن نفعل ذلك، إنّهم متعصّبون. نظرة واحدة تدخلنا في مشاكل لا أوّل لها ولا آخر.
- لكنّ هناك رسالة من أم حسن شيرازي تقول فيها إنّ ابنها حدّثها عن فتيات كثيرات من غير ملّة واحدة في محلّته.
هزّ منصور رأسه: نعم، المنطقة خليط كبير، فيها عرب قرشيون، غسانيون، مناذرة، وعرب مسيحيّون من تغلب وطيّ، وكلدان، ونساطرة، وآراميون، ويهود، وصابئة وو كلّهم عندهم بنات.
قاطعه عَضُد الدّولة: أما حاولتم إقامة علاقة مع إحداهن؟
- لا، هم محافظون وشرفاء.
- في الرّسالة أن حسن يحب ابنة جاره، ويريد أن يخطبها. يعني أنّ هناك علاقة.
- نعم جارنا تركي من الرّي، عنده ثلاث بنات جميلات جدًا.
قال عَضُد الدّولة: سألتك أن توضّح لي أمور الخطبة، لا أن تتكلّم عن بنات جارك التّركي، هل تريد التّستر على شيء ما.
احمّر وجه منصور ثانية: لا يا سيّدي أنا أقول الحقّ، ما أعرفه.
- ماذا تعرف؟ لا تضيّع الوقت.
- نعم، كان حسن ينوي خطبة صغراهنّ، لكنّي قلت له، لا أظن أنّ أباها يوافق، خوفًا من أن تبقى الكبيرة من دون زواج.
- لماذا قلت له ذلك؟ هل فاتحت الأب؟
- لا، لم أفاتحه، لكنّها العادة هنا في بغداد. يزوجون الكبرى فالصغرى

وهكذا دواليك.

- كم أعمارهن؟

- ثلاث عشرة سنة، خمس عشرة، سبع عشرة.

- كان حسن يريد الصّغيرة.

- نعم ياسيّدي.

- ألم تكن الكبيرة جميلة؟

- بلى. كلّهن في مستوى الجمال نفسه، لكنّي لا أدري ماذا أصابه.

- لماذا لم يخطبها؟

اضطربت ألوان منصور القدماني مرّة أخرى. بادره عَضُد الدّولة: هناك شيء مخجل، أليس كذلك، قل لي كلّ شيء؟

ضحك أبو الحزم: بالتّأكيد يا سيّدي.

قدحت عينا عَضُد الدّولة غضبًا: أنتما كلاكما تعلمان أنّني أريد معرفة كلّ شيء، لو كنتُ على معرفة بأوّليات الأمر لاتّخذت احتياطات تحول دون اختفائه.

ثم نظر ثانية إلى منصور يحثّه على الكلام. قال هذا: دعانا التّركي غير مرّة. كان منصور جادًا في شأن الخطبة ثمّ غيّر رأيه فجأة، قال لي: إنّني لا أريد سجن نفسي في الزّواج، ثم طلب مني مرافقته إلى زيارة عِتاب.

- من عِتاب؟

قهقه أبو الحزم: المغنيّة المشهورة؟

- أذهبت معه؟

- نعم، لكنّي امتنعت من الذّهاب معه ثانية، لأنّي متزوّج، لي أطفال. تجاوزتُ سنّ المغامرت، أنا في الخامسة والثّلاثين، زوجتي وأمي في واسط.

- لكنّك ذهبت معه!
- نعم، للتّجربة.
- هل استمتعتَ.
حنى رأسه. ابتسم أبو الحزم: يبدو كذلك.
ظلّ عَضُد الدّولة ينظر إليه بتركيز، قال منصور: نعم، كان صوتها قويًّا جميلًا صدّاحًا.
- ماذا غنّت؟
- يقولون ليلى في العراق مريضة، يا ليتني كنت الطّبيب المداويًا.
ضحك عَضُد الدّولة: ومن منكما كان الطّبيب المداوي؟
ازداد خجل منصور. وجاء صوت عَضُد الدّولة: كم مرّة كان يذهب إلى سماعها؟
- مرّة، مرّتين في الأسبوع، ثم قال لي إنّه رأى مغنيّة أفضل.
- من هي؟
- طَلٌّ. وأنّه يريد أن يقيم علاقة معها.
تدّخل أبو العزم: بعد اختفائه أخبرني منصور بذلك. ذهبت بنفسي أستقصي الأخبار، دخلت الحانتين الّلتين تغني فيهما المغنّيتان عِتاب وطَلٌّ، فوجدتهما ممتلئتين. أظنّه كان يبالغ في كلامه، لا يمكن له أن يحبّ أيًا منهما.
-لماذا؟
- لا يستطيع أن يكلّم أيّا منهما كلمة واحدة لأنّهما غالبًا ما تغنيان من وراء ستار، دون أن يراهما أحد، ولا يظهر منهما سوى ظلّ.
- هلّا أوضحتَ؟
- عندما انتهتْ عِتاب من الغناء، انفردتُ بصاحب الحانة، وكشفت له عن

شخصيّتي، ليخبرني بالحقيقة. سألته عن حسن شيرازي أخذ يفكّر، سألنّي عن أوصافه، ثم لم يستطع تذكّره قطّ، وذهبت إلى الحانة التي تغني فيها طَلّ، فلم يستطع صاحبها أيضًا أن يتذكّر حسن شيرازي. ما استنتجته أن المغنيتين كانتا محافظتين، شريفتين، وهما تغنيان من دون أن يرى أيّ كان وجهيهما، لم أسمع أيًّا كان يدّعي أنّه أقام علاقة معهما، ولسمعتهما الطّيبة وصوتيهما الرّائعين ازداد حبّ النّاس لهما، وكثر الحضور إلى حانتيهما، من لم يبكّر بالذّهاب لن يجد له مقعدًا، حتى الموسيقون مشهورون ومحترمون، وفيهم مفكّرون، وذو باع في العلم والمعرفة، لكنّ حسنًا الشّيرازي شاب، والشّاب يعتزّ بنفسه ويبالغ بالتفاخر في مغامراته الخياليّة، ويدّعي حبّ النّساء له.

حدّق عَضُد الدّولة بأبي الحزم: لهذا السّبب توقّف عن إرسال النّقود إلى أمّه، من يبعثر نقوده على سماع الأغاني ينسى حاجة أهله، مع الأسف وثقت به.

قال منصور: ليس هذا حسب، بل أخذ يسهر يوميًّا، ولا يعود إلّا بعد منتصف الليل.

- أين يسهر؟

- لم يقل لي. كان في بعض الأحيان يأتي مخمورًا.

حدق عَضُد الدّولة به غاضبًا، فأخذ منصور يرتجف، ثم نكّس رأسه، فجاء صوت الحاكم مؤنبًا: انظر كم أسأت التّصرف! لو أبلغتنا بسوء تصرفاته هذه قبل أن تستفحل لكنا أوقفناه عند حدّه.

نظر منصور باستعطاف نحو عَضُد الدّولة أتسمح لي يا سيّدي بالكلام؟

- تكلّم.

- لم يطلب مني أحد أن أنقل إليه أخباره، كما أنّ نفسي لا تطاوعني بنقل

أخبار زميل لي أصغر مني سنًّا ووظيفة.
هزّ عَضُد الدّولة رأسه: أنت على حقّ.
قال أبو الحزم ليلطّف الجو: لكنّه كان أمينًا على مصالح الدّولة، ومنفّذا دقيقًا لتعاليم سيّدي.
- هذا لا يكفي، عليه أن يكون أمينًا على مصالح أهله أيضا، متى ذهب إلى الحانتين؟
- منذ ستة أشهر.
- أين انتهى استقصاؤك للبحث عنه؟
- بعد ذهابي إلى الحانتين، زرت الحانات الأخرى التي توقّعت أنا ومنصور أنّه ربما طرقها، لكنّ أحدًا لم يتذكّره قطّ، والغريب أنّ الجميع كانوا يقولون، ويؤكّدون أنّهم لم يروا أيّ شخص تنطبق عليهم صفات حسن شيرزاي.
وافق منصور كرماني على ذلك بترديده كلمة نعم، وهو يهزّ رأسه.
- ألا تعرف السّبب؟
حنى أبو الحزم رأسه مؤكّدًا: نعم، يلقي الجميع سؤالًا واحدًا عندما أسألهم عنه، يقولون: صف مرافقه، يبدو أن مرتادي تلك الحانات لا يذهبون فرادى إلّا فيما ندر، وينطبق عليهم القول: -ولذّة العيش أن نشتركَ-، وهي عادة عربيّة قديمة، فقلما يأكل العربيّ وحده، وكلّنا نعرف أنّ معنى ابن أبي زائدة كان يقول لخادمه اجلب لي أيّ شخص يأكل معي، حتى لو كان عابر طريق.
وكذلك الشّرب والأنس. شعر أبي نؤاس مليء بالإشادة بشريك الشّرب. لم أستطع أبدًا العثور على شري حسن شيرازيّ في مغامراته.
التفت عَضُد الدّولة إلى منصور: ألم يدعُ أحدًا إلى غداء أو عشاء أو شرب في البيت؟

- لا.

أطرق الحاكم بضع ثوانٍ ثم رفع رأسه، وهو ينظر إلى أبي الحزم: انظر مَن مِن الجنود عندنا من مسقط رأسه مدينة جيلان، وبخاصة ممن هم في عمره، إن كان قد رافقه، أو قضى معه وقتًا ما وأتني به، سأتكفّل أنا بالتّحقيق.

لم يستطع أبو الحزم مقابلة عَضُد الدّولة إلّا في نهاية اليوم التّالي ثم جاء ومعه جنديّ قصير القامة ممتلئ، يبدو واثقًا من نفسه، وحينما أراد أبو الحزم الانصراف، أشّر إليه عَضُد الدّولة أن يبقى، ثمّ نظر إلى الجنديّ فطلب منه الطّبرسي أن يعرّف نفسه، فانحنى، قال بجنان ثابت: أبو نصر خسرو ياسيّدي.

- قل لي ماذا تعرف عن حسن شيرازي؟

- كنا نلتقي بضع دقائق كلّ مرة هنا في مركز الحكم، خلال أوقات الرّاحة، منذ جاء وإلى ما قبل ثلاثة أشهر، ثم سالنّي إن كنت أعرف بيوتًا للمتعة، فقلت له إنني أحضر مجالسّ ياقوت المعالي، بعض الـ

قاطع عَضُد الدّولة: من ياقوت المعالي؟

- مغنية ذات صوت رائع، أراد أن يراها، كنت أسمعها مرّة في الشّهر، أما هو فعشقها من صوتها، ومن دون أن يراها، قال لي أتمنى أن تمنحني ياقوت نظرة واحدة. لكنّه لم يستطع، وعندما سأل عن عمرها قالوا له إنّها في العشرين، عندئذ قال أتمنى أن يزوّجوني إياها، فقلت له إنّ ذلك مستحيل.

- لماذا مستحيل.

ابتسم أبو نصر خسرو: إنّ هناك المئات ممّن هم أغنى منه يتمنّون ذلك، ومثل هذه تربح مئة ضعف ما يحصل هو عليه من الجنديّة. قلت له: لا تفكّر فيها، اسمعها ما شئت، واطرب لصوتها الرّنان، ثم انسها. لكنّه

لم ينسها، سحره صوتها، وعندما يلتقيني: يردّد بعض المقاطع من أغانيها، لا بل يحاول أن يغني مثلها، ويغمض عينيه ويقول: إنّ هذا الصّوت هو صوت من أصوات الجنة. وإن تزوّجتها فلن أموت. كنت أضحك منه حينما يتكلّم ذلك. وعندما رآني لا أزورها باستمرار انفصل عنّي، ذهب إليها قدر استطاعته إلى حدّ أنّه بدأ يقترض منّي، لكنّي لم أعطه سوى مرّة واحدة. وعندما طالبته برد دينه، قال سأبدأ بتقسيط الدّين من بداية الشّهر. لكنّه قبل عشرة أيام قال لي إنّه سيتوقّف عن الذّهاب إلى هناك. ثم لم أره بعدئذ.

- لماذا لم تره؟

- هو يأتي ليجلس قربي وقت الغداء، ولست أدري لماذا لم يحضر.

- وما عدا أوقات الغداء؟

- لا نلتقي قطّ، أنا أدرّب الجنود على استعمال الحربة والفأس، وهو مراسل في خدمتكم، والمسافة بين المكانين بعيدة، فكيف نلتقي؟

- متى ذهب للاستماع لياقوت المعالي آخر مرّة؟

- لا أدري بالضّبط.

- حاول التّقدير؟

- ربما قبل اثني عشر يومًا، ثلاثة عشر يومًا، لا أدري بالضّبط.

- لا يحق لكم الذّهاب بزي الضّباط إلى هذه الأماكن، ألا تعلمون ذلك.

- بلى نعلم. نذهب عادة بزّي التجار.

سمح عَضُد الدّولة لخسرو أن يذهب، ثم التفت إلى الطّبرسي: أريد أن أعرف من ياقوت أو أحد المقرّبين إليها عن حسن الشّيرازي كلّ شيء، لم أكن أتصّور أنّه يمكن أن ينزلق في المعاصي إلى هذا الحدّ.

قال أبو الحزم: حتى أنا هالني الأمر.
فجأة رفع عَضُد الدّولة رأسه، نظر إلى منصور الواقف في قرب الباب: أسرع واستدع خسرو حالًا، ثم التفت إلى الطّبرسي، قال وهو يبتسم: نسيت أن أسأله شيئًا.
انحنى خسرو أمام عَضُد الدّولة، ثم نظر إليه مستطلعا.
- عندما قال لك إنّه سيتوقف عن الذّهاب إلى هناك، ألم يذكر لماذا؟ هل كانت النّقود هي السّبب؟
- لا لم تكن هي السّبب، بل قال وجدت أخرى لا تكلّفني أيّ شيء.
- أين؟
- لم يخبرني.
- ألم يذكر اسمها؟
- لا.
تركّزت نظرات عَضُد الدّولة على لا شيء، أخيرًا تنبّه إلى وقوف خسرو أمامه، قال له: اذهب الآن.
ثمّ قال لأبي العزم: توجّه إلى حانة ياقوت الآن، سأبقى هنا، أنتظرك. لا أستطيع أن أرقد ما لم أجد واقعًا أبني عليه فرضيّة لعمل محتمل في سبيل فكّ غموض القضيّة.
غادر أبو الحزم متوجّهًا نحو حانة ياقوت. وصل إليها في بداية العشاء. الباب ضخم من الخشب المصفح، بعرض أربعة أذرع في ستة، فيه خادعة في أسفله إلى اليمين. فويق الباب مسمار حديد طويل، معلّق فيه قنديل

الخادعة باب صغير في باب ضخم يفتح لتسهيل الدخول والخروج بدل استعمال الباب الكبير -

مغطّى بزجاجة. طَرق الباب، جاء صوت من الدّاخل يخبره أنّ وقت الحانة لا يحين إلا بعد صلاة العشاء بساعة كاملة، وعليه أن يرجع في الوقت المحدّد.

- افتح، نحن رسل عضد الدّولة.

- جاء الصّوت مضطربًا: من؟

- رسل عَضُد الدّولة، سمع الطّبرسي صوت أقفال باب الخادعة تُفتح. كان بابها بارتفاع نحو ذراعين وعرض ثلاثة أرباع الذّراع. فُتح الباب الصّغير وظهر وجه رجل كهل بعمامة بيضاء صغيرة، وهو ما زال يلوك لقمة في فمه، وأنفاسه معطّرة بتوابل شواء. حين استوى خارج الباب مدّ يده مصافحًا الطّبرسي. ابتسم ابتسامة كبيرة: أهلا وسهلًا. تفضّل أنت ومن معك، العشاء جاهز، شوينا سمكًا فاخرًا، عندنا أحد أفضل الطّهاة في بغداد.

ابتسم الطّبرسي: شهّيتني، لكن الحاكم عضّد الدّولة ينتظر رجوعنا، لا أستطيع التأخّر، وقتنا محدود. أرجوك قل لي، هل رأيت شابًا في الخامسة والعشرين طويلًا وسيمًا، يرتدي زيّ التّجار.

ابتسم الرّجل: من يحضر لسماع الأغاني يتخلى عن زيّه الحقيقيّ؟

ضحك أبو الحزم ضحكة صغيرة: يتنكّر بزيّ التّجار.

- أزياء التّجار مختلفة، حسب ثرواتهم.

احتار أبو الحزم كيف يوضّح له: حسنًا سأصفه، أطول مني نحو شبر، عريض الصّدر أحور، وسيم.

- دعني أنادي على العاملين في الحانة؟

- لك ما شئت.

أدخل الرّجل رأسه في فتحة الخادعة، نادى بصوت عالٍ: عبد الكريم، بهيج،

تغلبي، أبو الأكثم، تعالوا كلّكم، رُسل الحاكم عندنا، هيّا أسرعوا.
قال معتذرًا: إنّه وقت العشاء، وإلا جاؤوا سريعًا.
تقاطر العاملون الأربعة، كانوا جميعًا شبابًا، أكبرهم نحيف، طويل في الثلاثين وكان بعضهم يلوك لقمة أيضًا، فازدادت رائحة الشّواء قوّة. بينما كان اثنان منهم لا يتجاوزان العشرين، أعاد عليهم الرّجل ما ذكره الطّبرسي.
فحدّق أحدهم بالآخر وأسئلة شتى تضيع في نظراتهم. زوى أكبرهم سنًّا عينه اليمنى حتى كادت تنغلق، كان ينظر نحو الطّبرسي: هلا ذكرت مع من كان يحضر؟
أكمل الثاني: هل كانوا اثنين أم ثلاثة أم أكثر.
تدخل ثالث: يحسن أن تسألوا أصحابه.
- يأتي مع شخص آخر في معظم الأوقات.
اقترب النّحيف من دابة الطّبرسي، وهو يرفع رأسه لينظر إليه: هل جاء البارحة؟
- لا، قبل أثني عشر يومًا.
ضحك النّحيف: مستحيل أن نتذكّره، إنّنا لا نتذكّر من جاء البارحة، إلّا إن كان فيه مظهره شيء مميّز، فكيف بمن جاء قبل اثني عشر يومًا.
- ماذا تقصد بالشّيء المميّز؟
- مثلًا أن يحجز الحانة تاجر ثريّ، أو أمير، أو رجل يريد أن يحتفل في مناسبة عرس، أو طهور الخ.
تدّخل الرّجل الكبير مطمئنًا الطّبرسي وهو يهزّ رأسه بلهجة الخبير الواثق: لا تقلق، كثيرًا ما يخرج البعض من هنا إلى بيوت أصدقائهم ليحتسوا بعض الكؤوس، ومن المعتاد أن يقضوا الليل راقدين بعيدًا عن بيوتهم، وفي اليوم

التّالي يأخذون طريقهم إلى مساكنهم. لا تقلق. سيرجع من دون شكّ.
ابتسم الطّبرسي: لكنّه لم يرجع منذ أسبوع.
هتف الجميع بذهول: أسبوع؟
أكّد الطّبرسي بهزّة رأس: نعم، أسبوع.
وجموا كلّهم، مرّت ثوانٍ ساد الشّارع الصّمت فيها إلا من عواء كلاب ضالة، بعيدة جدًا. قال الرّجل بلهجة مشبّعة بالطّاعة، والتّعاون: نحن تحت أمركم، إنْ شككتم أنّه هنا فالبيت مفتوح أمامكم، الآن، أو في أيّ ساعة تبغون، هلمّوا فتّشوا حتى تقتنعوا وتطمئنوا.
ابتسم الطّبرسي، وهو يلوي رأس دابته: لا، أشكر تعاونكم معنا، لكنّنا لا نفتّش الآن، ربما سنأتي في المستقبل بعد يوم، يومين، أسبوعًا أكثر، لا أستطيع تحديد الوقت. حسب مقتضى التّحقيق. ما أرجوه منكم أن تفكّروا في الأمر، فربما نسيتم شيئًا، ربما يتذكّر أحد بعدئذ علامة بسيطة يكون لها رابط بالضّابط، إن حصل ذلك فاقصدوا مقرّ حكم عَضُد الدّولة، وسلوا عن الطبرسيّ.
قال ذلك، ثم رفع يده محيّيًا، واستدار يغذ السّير بسرعة، فتبعه أعوانه.
كان يعلم أن عَضُد الدّولة يهتمّ بكلّ صغيرة وكبيرة، يريد أن يكون على اطّلاع بكل ما يجري في الرّقعة التي خوّله الخليفة بحكمها، ولا يهمّه إن كانت المسألة تتعلّق بأمير أو بشخص من العامّة، فالكلّ عنده سواء. هذا هو سبب شيوع شهرته، وخوف المخالفين منه، كان يعلم أنّه ينتظره، ولا يغادر إلى مضجعه ما لم يسمع آخر الأخبار عن مصير الضّابط الذّي يشاركه في الانتساب إلى وطنه ومدينته. استمرّ في طريقه حتى دخل قبّة الحكم، وكما توقّع كان عَضُد الدّولة بانتظاره. استقبله عَضُد الدّولة وتقاطيعه تشي

بانفعاله، قائلا: أرى في وجهك ما ينبئ بالخيبة!
انحنى الطّبرسي انحناءة كبيرة: نعم يا سيّدي. لم نعثر على أيّ خيط يقود إليه.
سهمت عينا عَضُد الدّولة في نقطة غير محدّدة، ثم أشار إلى ورقة أمامه: قبل قليل وصلت رسالة من أمّه تطلب فيه أن نمنحه إجازة ليذهب إلى جيلان ليحضر عرس أخته الوحيدة بعد ثلاثة أشهر، أخشى ما أخشاه أن يكون لقي حتفه، فهو يبدو مستهترًا، لا يهمه سوى متعته الشّخصيّة.
- وما العمل؟ أخشى أن تفضي جهودنا كلّها إلى هباء.
حدّق عَضُد الدّولة في عينيه: سأقوم بالتّحقيق بنفسي.
نهض فعلم الطّبرسي أنّ عليه الاستئذان للانصراف، لكنّه ظلّ يفكّر في القضيّة. روى لزوجته التي كانت تنتظره ما أفضى إليه التّحقيق، وباح لها بمخاوفه في أن يعاقبه عَضُد الدّولة، أو تنخفض منزلته في عينيه، لكنّها طمأنته، قالت: إن عَضُد الدّولة أكبر عقلًا، وأشدّ كياسة من أن يفعل ذلك. أنت من المخلصين له، وهو لا يفرّط بأمثالك. حتى عندما رقد كانت صورة حسن الشّيرازي تمتثل أمامه وهو يخرج من خادعة بيت ياقوت، يتبعه الرّجل الكبير، والعاملين بالحانة، وبأيديهم مشويّات يعرضونها عليه ليأكل منها، ثم يأخذها منهم ويقدمها إلى عَضُد الدّولة. يتناولها منه هذا غاضبًا، ويرميها بوجه حسن، فيهرب حسن وهو يبكي. عاد الحلم عدة مرّات، وعندما نهض في الصّباح، أحس بجسده يكاد ينقصم من التّفكير، فتناول فطوره على عجل، وزوجته تحثّه أن يهدأ فلكلّ مشكلة حلّ، وأنّ عليه أن يضع حدًّا لقلقه، فبعد كلّ شدّة فرج. أشعره كلام زوجته بالأمل لكنّه عندما وصل مقرّ الحكم في الرّصافة قريبًا من دجلة، وأراد أن يسلّم على

عَضُد الدّولة قبل أن يبدأ عمله، قال له منصور: إنّه مشغول لن يستقبل أحدًا اليوم كلّه. لم يسأله أيّ سؤال آخر، لأن استقصاء أحوال عَضُد الدّولة ممنوع منعًا باتًا. فهمّ بترك المركز والذّهاب إلى مقرّ عمله، لكنّ منصور أوقفه، قال له: إن عَضُد الدّولة سأله حينما حضر قبل ساعة أن كان هو وحسن الشّيرازي يذهبان إلى البيت، ويرجعان من طريق معين واحد، أو أنّهما يغيّران طريقهما كلّ مرّة.

- ماذا أجبته؟

- طبعًا من طريق واحد، لكنّنا لم نسلكه معًا كثيرًا.

- لماذا؟

- لأن حسن ينتهي من الواجب قبلي دائمًا.

- لماذا؟

- أبقى أنا مع عَضُد الدّولة في المقرّ حتى ينتهي من كلّ شيء، دائمًا يغادر آخر واحد فينا ويأتي قبلنا جميعا.

- لماذا لم تصاحب حسن صباحًا.

- واجبي يبدأ مبكرًا، أخرج وهو نائم.

- لماذا تظنّه سألك ذلك؟

- أراد أن يعرف الطّريق.

- ماذا تظنّه سيفعل؟

- لا أدري. لم يخطر في بالي أيّ شيء عندما سالنّي.

- أتظنّه عرف الطّريق.

ابتسم منصور: كأنّه كان يرافقني كلّ يوم، بدءً من سوق السّمك حتى جامع الأخوين. فالقناة التّاسعة فالرّشيديّة، ما إن أذكر الزقاق أو الشارع حتى

يسألني أهو الذي فيه أسطبل للخيل؟ مطحنة حنطة، معصرة زيتون الخ.
رأى منصور عَضُد الدّولة بعد العصر يتنكّر بزّي التّجار، صرف الخدم كلّهم قبل وقتهم. طلب منه أن يضع في خُرج الأتان بقولًا وحلوىً، وأمره أن يلفّ بضع كلّ حفنات منها في كاغد نظيف. وخرج من باب الخدم، بعد أن تأكّد أن لا أحد رآه. أتانه أبيض يستعمله التّجار.
غيّر منصور هيأته هو أيضًا بارتدائه ثوبا يستعمله عامة النّاس، واعتمّ بعمامة خفيفة سمراء. تبع عَضُد الدّولة من حيث لا يراه. شاهده يسير في الطّريق إلى بيته هو وحسن الشّيرازي. يقف في زوايا الشّارع، فإن وجد دُكانًا أو محلّا أو ورشة حياكة أو طاحونة حنطة، أو نجارًا وحيدًا في درب، نزل عن دابته، وقف عنده، سلّم عليه، أهداه لفافة كاغد، تكلّم معه بضع دقائق. ثم غادره، استمرّ في طريقه، حتى وصل بعد ساعة، إلى منتصف زقاق، بدت فيه ظاهرة للعيان قبّة صغيرة لجامع مبيّنة بآجرّ أحمر يجلب النّظر. أمام الباب المفتوح طفلان في السّادسة يلعبان الكعاب. فتوقّف قربهما، سلّم عليهما، ثمّ سألهما إن كان أحدهما يعرّف مؤذّن الجامع، أجاب أحدهما حالًا: أبي.
ثمّ ركض إلى الدّاخل وتبعه صديقه، وبعد قليل خرج رجل نحيف في نهاية عشريناته، وبلحية غير كثة، كانت ابتسامته لطيفة. فنزل عَضُد الدّولة من فوق دابته، اقترب منه، سلّم عليه، ثم صافحه. ومدّ يده إلى الخرج، وأخرج ثلاث لفات سلّمها إلى الأب والطّفلين، ثم رفع رأسه. ابتسم. فضج الطّفلان فرحين ضاحكين: قال أحدهما للمؤذّن: أآكلها الآن أم في البيت؟
ابتسم عَضُد الدّولة، بينما قال أبوه: في البيت.
- إذن سأقتسمها مع أختي.

قال عَضُد الدّولة: هاك أخرى لأختك.
نبر الثّاني: وأنا ألا تعطيني لأخي الصّغير؟
ضحك المؤذّن: ورّطت نفسك مع الصّغار.
ابتسم عَضُد الدّولة: الصّغار جميلون.
ثم نظر إلى الطّفل الثّاني وناوله لفّة أخرى: هذه لأخيك الصّغير.
- بارك الله فيك. قال المؤذن ذلك ثم ركّز عينيه على عَضُد الدّولة.
- أتريد شيئًا؟
- أنا تاجر من جيلان، جئت لأرى ابني في طريقي إلى الحجّ، فقال لي زملاؤه إنّه اختفى منذ أسبوع، ولا يعرفون أين ذهب، وعندما سألت عن بيته، قالوا لي إنه يمرّ من هذا الدّرب، فهل رأيته فيمن رأيت؟
قال المؤذن: أنت لا تعلم أنّني أقضي وقتي في بيتي أصنع السّلال، فما يأتيني من الأوقاف للآذان مبلغ زهيد لا يكفيني أنا وعائلتي، جئتُ الآن إلى الجامع لأنّ موعد آذان العشاء سيحين بعد دقائق. لكن ما صفته؟
- طويل، وسيم، ممتلئ الصّدر.
بادر أحد الطّفلين: أهو الذّي يمتطي حصانًا كستنائيًا؟
قال الثاني: ذا غرّة بيضاء؟
هزّ عَضُد الدّولة رأسه، وقال: نعم. أريتماه.
هتف الطّفلان: نعم.
قال ابن المؤذن: يمرّ من هنا بعد صلاة العصر، قبل هذا الوقت بقليل، ثم يقف أمام ذلك البيت بضع دقائق، ثم يستأنف مشيه.
أشار الطّفلان إلى بيت على بعد ثلاثمئة ذراع في أقصى الزّقاق، قال عَضُد الدّولة: أتستطيعان المجيء معي إلى البيت؟

فنظر الطّفلان نحو المؤذّن، فقال لهم هذا: اذهبا معه، وارجعا حالًا.
قاد عَضُد الدّولة دابّته، وسار معهما ماشيًا وهو يتكلّم معهما حتى وصلوا إلى البيت. ثم أعطاهما لفّتين أخريين. ودعهما وهما يضحكان. سار في الزّقاق إلى نهايته. رآه يتقاطع مع درب ضيّق آخر، فانعطف يمينًا. الزّقاق الثّاني أطول من الأوّل، فيه دكان كبير يبيع الخضار والعصائر. توقّف أمامه، كان البائع شابًا ممتلئًا أبيض الوجه، زغب أصفر غير كثيف في سالفيه وحنكه وشاربيه. سلّم عليه عَضُد الدّولة، سأله: هل تعدّون عصائر جيدة؟
هزّ الشّاب رأسه: نعم، لكنّنا اليوم انتهينا من كلّ شيء إلا من عصير السّفرجل؟
ابتسم عَضُد الدّولة: دعني أجرّبه، فقد يعجبني!
ضحك الشّاب: إن لم يعجبك لا تدفع ثمنه.
تناول الشّاب قارورة نظيفة وسكب منها في كأس فضيّ لامع، ثم سلّمه إلى عَضُد الدّولة، وما إن رشف هذا منها حتى رفع رأسه: نعم، إنّه جيّد، لم أذق مثله في حياتي.
قهقه الشّاب: ألم أقل لك؟ أكرّر إن لم يعجبك لا تدفع الثّمن.
ابتسم عَضُد الدّولة: أوقعت بي وقنصتني، كيف أقول لك لم يعجبني وقد وصفته قبل لحظة بالجيّد؟ من يعدّه؟
- أمّي.
- أهي بغداديّة؟
- أبي بغداديّ، لكنّها مارونيّة من لبنان.
- أأنت مسيحيّ؟
- لا، هي مسيحيّة وحدها في البيت. تزوّجت والدّي بشرط أن تبقى على

دينها.

- قال ذلك ثم تساءل: لكنّي أراك تمرّ من هنا أوّل مرّة.

حدّق فيه عَضُد الدّولة بجدّ، وظهرت على تقاطيعه علامات الألم، حتى ليظنّه الرّائي أنّه يكاد أن يبكي: نعم، أنا من جيلان، في طريقي للحجّ، وعندي ابن ضابط انقطعت أخباره، وقالوا لي إنّه يمرّ من هنا.

- أأسمه حسن شيرازي؟

- نعم.

- إنّه صديقي.

- يقف كل يوم عندي، أقدّم له العصير مجانًا، وهو يصرّ على دفع ثمنه. ما دمت أباه فلن آخذ منك أيّ فلس.

- لكنّي لا أقبل.

- واللهِ. أقسمت، ولا أردّ يميني.

عندئذ مدّ عَضُد الدّولة يده إلى الخرج، وأخرج بضع لفائف، وسلّمها إلى الشّاب: هذه بدل تلك. إنّها من جيلان. فأخذها الشّاب وهو يضحك.

- متى رأيت حسن آخر مرة؟

- لا أدري بالضّبط، قبل أسبوع تقريبًا. أحيانًا لا يقف عندما يراني مشغولًا بالزّبائن.

ودع عَضُد الدّولة الشّاب، ثم ركب دابته. فهتف هذا بصوت عالٍ عندما ابتعد عنه: رجاءً أخبرني عندما تراه.

- أفعل إن شاء الله.

عندما وصل عَضُد الدّولة إلى مقرّه، استدعى أبا الحزم، قال له، خذ منصور ومفرزة من الشّرطة واذهب إلى الجامع ذي القبّة الحمراء، في الطّريق إلى

بيت منصور.
قال منصور: أعرفه أنا، هو طريق بيتي.
- ليكن قصدك البيت الثّالث والثّلاثون إلى اليمين، أطرق الباب فإن خرج رجل منه فأت به حالًا، وإن قالوا لك إنه غير موجود، وسيتأخر فانتظره بعيدًا عن الباب بشكل لا يجذب شكّ من في البيت أو الزّقاق، انتظروا حتى يأتي، لكن لا تروّعوه بعد القبض عليه.
بعد ذهابهم، استدعى الحاجب ليقدّم له سجلّ الزّائرين، فبدأ بقراءته، ثم توقف أمام اسم الوزير الكلواذاني، فسأله إن كان ذكر شيئًا ما. قال الحاجب: سيمرّ في الغد ليزورك، ثم استعرض الأسماء الأخرى، فرأى اسم قائد الجيش في خراسان، وعلم أنّه سيجيء في الغد أيضًا، أمّا الآخرون فكانوا ذوي حاجات. ثمّ بدأ بفتح الملفّات المتكدّسة، كان قد مضى نحو ساعتين على ذهاب أبي الحزم حينما سمع آذان العشاء، وهو لم ينهِ الملفات. وقدّر أنّها ستأخذ ساعتين أخريين. حينئذ سمع ضجّة قرب الباب ثم دخل الحاجب طالبًا السّماح لأبي الحزم ومنصور ومن معهم.
الرّجل شاب في نحو الخامسة والعشرين، أبيض البشرة، ذو لحية صغيرة مشذّبة، وعمامة صفراء صغيرة بطاقيّة بيضاء، وملابس نظيفة. ملامحه مرتعبة، لكنّه متمالك نفسه. حينما حدّق به عَضُد الدّولة لم يسحب نظره، فاعتبر ذلك نوعًا من التّحدي، فنبر بلهجة غاضبة لم يحاول السّيطرة عليها، ليبدو صوته أشبه بالصّراخ: لماذا قتلت الضّابط؟
قال البغدادي: هل تسمح لي بالكلام معك على انفراد؟
- وإن لم أسمح لك.
- لن أبوح لك بالسّر حتى لو قتلتني.

- لماذا؟

- الشّرف أغلى من الحياة.

فكّر عَضُد الدّولة بضع لحظات. بدا الاهتمام على وجهه، ثم التفت إلى أبي الحزم ومن كان موجودًا، قال: اخرجوا دعوني أسمع منه.

حينما تأكّد البغداديّ من خروجهم قال: أنا يا سيّدي شخص نظيف الجانب، وزوجتي امرأة شريفة، والضّابط يأتي كلّ يوم ويوقف حصانه قرب باب بيتي، وينظر من الكوة ، فأخبرتني زوجتي بأنّها كانت تخفي نفسها في مكان لا يراها فيها، وتتوقّف عن الحركة كليّة طيلة المدّة التي يراقبها فيها، ونحن يا سيّدي شرفاء لا نريد أن يلحق بسمعتنا أيّ سوء، ومن يراه واقفًا سيشكّ أنّ وقوفه هنا بتواطئ منا فتسوء سمعتي وزوجتي ونفتضح أمام النّاس، ونحن بريئان. قلت لها إن جاء اليوم فضعي في الكوّة ورقة اكتبي فيها أن يأتي ليلة الغد بعد حلول الظّلام، مشيًا على رجليه من دون حصانه ظللت في البيت طيلة اليوم أحفر حفرة بطوله وبعمق بضعة أقدام، وعندما طرق الباب أخبرته أنّه مفتوح وليتفضّل، وما إن خطا أوّل خطوة حتى سقط في الحفرة، فضربته على رأسه ضربة أفقدته وعيه، ثم رميت عليه الصّخور والتراب حتى ساويت أرض الحفرة بغيرها.

قال ذلك بلهجة محتدمة: أما وقد قلت الحقيقة فلم يعد لحياتي قيمة، ستبقى سمعتي طاهرة لا يلوثها كلام باطل حتى لو قتلتني.

- الكوة أو الرّوزنة، شباك صغير جدًا، مربع، لا يزيد ضلعه على عشرة سنتمترات، وكانوا يبنونه في أعلى الجدار، ويحرصون على أن يكون صغيرًا كي لا يسرّب حرّ الشّارع إلى الغرف، لشدة الحرّ في العراق صيفًا، فالشّبابيك الكبيرة تُدخل الحرارة، وظلّت الكوة تبنى صغيرة كذلك حتى نهاية القرن التّاسع عشر.

أطرق عَضُد الدّولة برهة، ثم رفع رأسه، قال: اذهب طليقًا حرًّا، لا خوف عليك ولا تثريب. فلا يوجد ضابط اختفى، ولا توجد تهمة تلحق بك.
بعد خروجه استدعى أبا الحزم ومنصورًا. قال وهو يوجه نظره إلى منصور: ابحث لك عمن يشاركك سكنك إن لم تستطع دفع الإيجار لوحدك.
ثم قال لأبي الحزم: أَشِر عليّ برأي أخفّف عن أمّ حسن الشّيرازي المسكينة التي كانت تحلم بحضوره زفاف أخته الوحيدة.
ابتسم أبو الحزم: إنّني أفكر في الموضوع منذ البارحة.
- ألم تصل إلى شيء؟
- بلى وصلت.
- ما هو؟
- هل والدّتك الكريمة تودّ الحجّ؟
- بلى.
- لتصطحبها كمرافقة، لكن في رأيي أن يكون ابنها مات مجاهدًا في الثّغور خير من أن يكون موته بيد أيّ كان، في قضية مجهولة، فلا شكّ أنّ موته مجاهدًا سيخفّف كثيرًا من ألمها مع أدائها الحج,
- صدقت، ويا ليته فعل,
- ثمّ ماذا؟
- هذا كلّ ما عندي,
قال منصور: إن سمحت لي يا سيّدي,
- قل,
- أرى أن تستمر في إرسال راتبه كما لو كان حيًّا، ليساعد أمّه وأخته على الحياة,

- ذلك ما فعلته,

قال ذلك ورفع أمامها ورقة عليها توقيعه,

*****

تواصل معنا :

01011464037

E-mail -:Sonon. Pub@Gmail .com

جميع حقوق النشر محفوظه لدار سنون للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه